المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

شيرى (رواية)

تأليف: سودنى جبرييل كوليت
ترجمة وتقديم: شيرين عبد الحميد على
مراجعة: أحمد فؤاد عبد المجيد
تحرير: عبد الرحمن حجازى

1249
الإبداع القصصى

شـــيرى

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة : خيرى دومة
- العدد : ١٢٤٩
- شيرى
- سودنى جبرييل كوليت
- شيرين عبد الحميد على
- أحمد فؤاد عبد المجيد
- عبد الرحمن حجازى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة رواية :

CHERI
De : COLETTE
World Copyright © LIBRAIRIE ARTHÈME FAYARD 1989

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

شـــيرى

(رواية)

تـــألـــيـــف : سـودنى جـبـرييل كـوليت

ترجمـــة وتقديم : شـيـرين عـبـد الحـمـيـد على

مـــراجـعـــة : أحـمـــد فـؤاد عـبـد المجـيـد

تحـــــرير : عـبـــد الرحـــمن حـجـازى

٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كوليت ، سودنى جبرييل ، ١٨٧٣ - ١٩٥٤
شيرى (رواية) : تأليف : سودنى جبرييل كوليت ، ترجمة وتقديم : شيرين عبد الحميد على ، مراجعة : أحمد فؤاد عبد المجيد ، تحرير : عبد الرحمن حجازى .
- ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٢٦٤ ص ، ٢٠ سم
١- القصص الفرنسية
(أ) على ، شيرين عبد الحميد (مترجم ومقدم)
(ب) عبد المجيد ، أحمد فؤاد (مراجع)
(جـ) حجازى ، عبد الرحمن (محرر)
(د) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢١٣٩٢
الترقيم الدولى 977-437-489-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مـقـدمـة 7

الفصل الأول 13

الفصل الثانى 29

الفصل الثالث 59

الفـصل الرابع 73

الفصل الخامس 83

الفصل السادس 93

الفصل السابع 113

الفصل الثامن 131

الفـصل التاسع 145

الفـصل العـاشـر 159

الفصل الحادى عشر 177

الفصل الثانى عشر 235

مقدمة المترجمة

كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية مصدراً خصباً للإنتاج الأدبى، فضلاً عن آثارهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وتميزت هذه الفترة بالإنتاج الروائى الغزير من جانب كثير من الكُتَّاب الفرنسيين، ومنهم الكاتبة سودنى جبرييل كوليت التى تعتبر رمزاً لتحرير نساء القرن العشرين، وتركت بصماتها على النصف الأول من ذلك القرن، واستخدمت خبراتها الحياتية فى كتاباتها، وسردت حياتها البوهيمية مع زوجها الأول ڤيلى، خاصة أنها كانت امرأة متحررة وتلقائية المشاعر، وروائية لها تقديرها بين كُتَّاب معظمهم من الرجال.

وفى العاشرة من عمرها، قرأت كوليت لفيكتور هيجو، وبلزاك، وفولتير، وأيضاً شكسبير، ومع أن والدتها منعتها من القراءة لزولا ، فإنها قرأت له خلسة.

وقد بدأت الكاتبة أعمالها الأدبية بمجموعة « **كلودين** » التى تحكى فيها أحداث طفولتها، ثم قدمت بعد ذلك روايات تبحث فيها عن

ذاتها ، مثل : « **إشراقة النهار** »، و"**سيدو**" ، وغيرهما؛ حيث نجحت فى إبراز المشاعر المعنوية والحسية دون مواراة، وإن لم تكن لها نظرية معينة فى هذا الصدد. وفى سبيل ذلك كانت شخصيات رواياتها تتحرك حول فكرة تريد إبرازها أو تحليلها.

وبعد أن أصبحت كوليت أمّا، بعد زواجها الثانى، قدمت مجموعة من الروايات المهمة، وأعطت لها عنوانًا شاملاً هو "**فصول الحب**"، ومن هذه الروايات: "**القمح الأخضر**"، "**شيرى**"، "**نهاية شيرى**"، "**القطة**"، "**المتشردة**"، ... إلخ. والموضوع الرئيسى فى كل هذه الروايات متشابه، ويتمثل فى أن الأبطال يدخلون فى قصص غرامية كانوا يحلمون بها ويحبون معايشتها.

أما الرواية التى قمنا بترجمتها، وهى رواية "**شيرى**"، وتعنى بالعربية "**حبيبى**"، وإن كان البطل يحمل اسمها بالفرنسية؛ فتعتبر، بحق ، واحدة من أروع أعمالها؛ لأنها ليست مجرد قصة شاب يحب امرأة أكبر منه سنًا؛ فقد كانت كوليت تقول دائمًا : «إن الحب الغرامى ليس له عمر ولا يتحدث بلغتين».

وتلخص هذه العبارة موضوع الرواية التى ترجمناها إلى العربية وغيرها من الروايات.

وفى الواقع، فإن الإطار العام الذى تدور فيه أحداث رواية "**شيرى**" تعيش فيه أجيال من المراهقين مثلهم مثل بطلة الرواية التى تمثل – على

وجه الخصوص - الحياة التى عاشتها كوليت بكل أحداثها وشخصياتها، منذ مولدها عام ١٨٧٣ حتى كتابة أحداث هذه الرواية عام ١٩٢٠، ولا ننسى أن نذكر أن كوليت عملت فنانة فى صالة للموسيقى، وانتابتها فى ذلك الحين مشاعر الحرية العاطفية القلقة، والحلم بسعادة مستقرة بين المروج والطبيعة والمزارع والحيوانات.

ويعكس موضوع رواية "**شيرى**" علاقة كوليت الخاصة بابن زوجها الثانى "برتران دى چوفنل" الذى يختفى فى الرواية تحت اسم "شيرى" على الرغم من أن هذه العلاقة كانت لاحقة على نشر الرواية، وعلى قيام كوليت بتمثيل دور بطلة الرواية التى أسمتها "ليا".

ويجد القارئ فى هذه الرواية عرضًا لأوضاع المرأة فى بداية القرن العشرين التى تمثلت فى جميع مراحل حياة البطلة "ليا" من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب إلى مرحلة النضج حتى الشيخوخة؛ حيث جرت الأحداث فى أوساط اجتماعية مختلفة.

والواقع أن لكل شخصية فى رواية "**شيرى**" أفكارها ومشاعرها وتصرفاتها الخاصة التى تتفق مع ظروفها، ومع الوسط الذى تعيش فيه. وهكذا نجد فى الرواية كثيرًا من الموضوعات المهمة، مثل : الحب، والطبيعة، والاستمتاع بالحياة، والاضطراب النفسى، والزواج، وتقدُّم السن بصفة خاصة؛ حيث إن موضوع الرواية يتناول حب شاب لامرأة

تكبره بكثير. وبهذه الكيفية، وفى ظل هذا الإطار الروائى للرواية الذى يعتبر - إلى حد كبير - إطاراً كلاسيكيًا، تُبدع كوليت بأسلوبها الحساس وتعبيراتها المرهفة واقترابها العملى الحسى من الحياة، ليس فقط بسبب تصويرها للعلاقات الغرامية بين النساء والرجال، لكن أيضًا بسبب بحثها عن الشخصية الأنثوية، وإبرازها لجمال الطبيعة بما فيها من نبات وحيوان ... وأبدعت كوليت كذلك فى تصوير المواقف الروائية وإبراز شخصيات أخرى سياسية واقتصادية وعاطفية.

وهكذا يمكننا القول إن رواية "شيرى"، التى كتبتها المؤلفة عام ١٩٢٠م، تتضمن - بوجه عام - قصة الحركة الداخلية لنفسيتين : نفسية البطلة "ليا" - المرأة المتقدمة فى العمر، ونفسية "شيرى" - البطل الشاب الذى يفخر بشبابه. ولا شك أن الحب الجسدى يحتل فى حياة كوليت، وفى هذه الرواية، مكانًا كبيراً، وقد أكملت كوليت أحداث هذه الرواية فى رواية أخرى أسمتها "**نهاية شيرى**" عام ١٩٢٥م.

وعلى الرغم من دقة أسلوب كوليت، وبلاغة عباراتها فى الرواية، فقد قمنا ببذل كل الجهد لتقديمها إلى القارئ بلسان عربى مبين، دون أى إخلال بالتعبير الرائع، والقدرة الأدبية للكاتبة المبدعة التى مُنحت وسام الشرف الأكبر من الحكومة الفرنسية، والتى توفيت عام ١٩٤٥ م ، وأقامت لها فرنسا جنازة رسمية تقديراً لمكانتها العظيمة فى عالم الرواية فى النصف الأول من القرن العشرين.

وأخلص إلى القول بأن الكاتبة تستحق بحق ما وصفها به النقاد بأنها "عبقرية الأسلوب".

الفصل الأول

"ليا" Léa ، أعطينى عقدك اللؤلؤى ! أتسمعيننى ياليا ؟ أعطينى عقدك!

لم تصدر أية إجابة من السرير الكبير المصنوع من الحديد المطروق، والنحاس المرصع، الذى كان يلمع فى الظلام مثل السلاح.

لماذا لا تعطيننى عقدك ؟ فهو لائق علىَّ كما يليق عليك، بل وأفضل!

وعند سماع صوت قفل العقد، اهتزت الحواشى الزخرفية للسرير، وظهر ذراعان عاريان، رائعان رقيقان عند الرُّسغ، وانكشفت يدان جميلتان متراخيتان.

– دعك من هذا يا "شيرى" Chéri، لقد عبثت بهذا العقد بما فيه الكفاية.

– إننى أتسلى، أتخافين أن أسرقه منكِ ؟

كان شيرى يرقص أمام الستائر الورديه، التى تخللتها أشعة الشمس وملامحه تبدو قاتمة اللون كعفريت واضح الملامح جالس فى عقر جهنم.

كان "شيرى" يرقص أمام الستائر الوردية – تبدو ملامحه قاتمة اللون مثل عفريت – التى تخللتها أشعة الشمس، واضح الملامح، جالس فى عقر جهنم . لكنه عندما تراجع نحو السرير، أصبح شديد البياض مرة أخرى، بدءًا من المنامة الحريرية إلى الخفين المصنوعين من جلد الإبل.

ومن قلب السرير صدر صوت رقيق خفيض قائلاً : « أنا لا أخشى شيئًا، ولكنك تتلف خيط العقد؛ لأن اللآلئ ثقيلة » .

وقال "شيرى" بهدوء : « إنها كذلك، وبالنسبة للأثاث، فإن الذى أحضره لك لم يخدعك فيه ».

ووقف "شيرى" أمام مرآة طويلة موضوعة على الجدار بين نافذتين، وهو يتأمل صورته شابًا فتيًا، رائع الجمال، ليس طويلاً ولا قصيرًا، شعره مائل إلى الزُّرقة مثل ريش طائر الشحرور.

وانفتح لباس الليل الذى كان يرتديه مظهرًا صدرًا بارزًا قويًا، منحنٍ على هيئة درع، وانعكس الوميض الوردى نفسه على أسنانه، وعلى بياض عينيه السوداوين، وعلى لآلئ العقد.

وقال الصوت الأنثوى بإلحاح : «اخلع هذا العقد. أتسمع ما أقوله لكَ ؟»

وكان الشاب المتسمِّر أمام صورته، يضحك بصوت منخفض، قائلاً :

«نعم، نعم، إننى أسمع. إننى أعلم جيداً أنكِ خائفة أن آخذه منكِ !»

وأسرع الشاب إلى السرير، وألقى بنفسه متكوراً، ثم قال :

«كيف ذلك؟ إننى إذن أتجاوز التقاليد. إننى أرى أنه من البلاهة أن يقبل رجل من امرأة لؤلؤة ذات مشبك، أو لؤلؤتين يتباهى بهما، أو لؤلؤتين على هيئة أزرار، بل إن الرجل سيصيبه العار إذا أعطته امرأة خمسين لؤلؤة....

– تسعة وأربعون[1] !

– تسعة وأربعون! إننى أعرف هذا الرقم جيداً.

قولى إذن: "أهذا لا يناسبنى؟ قولى إذاً إننى قمىء ».

وبعث إلى المرأة المتمددة ضحكة مستفزة أظهرت أسناناً صغيرة جداً، كما أبانت باطن شفتيه، وجلست "ليا" على السرير، ثم قالت :

«لا، إننى لا أقول ذلك. أولاً لأنك لا تصدقنى، لكن ألا تستطيع أن تضحك دون أن تقطّب أنفك على هذا النحو ؟ أستكون سعيداً عندما تصبح لك ثلاث تقطّيبات فى جانب من الأنف؟»

---

(١) تسعة وأربعون : إنه عمر "ليا".

وفى الحال توقف عن الضحك، ومطَّ جلد جبهته، وشفط أسفل ذقنه بمهارة ، كما تفعل العجوز الأنيقة. وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة عدائية، وارتكزت على مرفقها وسط مفروشاتها ومشغولاتها من الدانتيل، أما هو فجلس كما تجلس إحدى ساكنات الأمازون على طرف السرير. وكان يعتقد أنه يحلو لها أن تتحدث إليه عن التجاعيد التى ستصيب وجهه. أما هى فكانت تتساءل: «لماذا يكون قبيحًا عندما يضحك، رغم أنه الجمال بعينه ؟» لقد فكرت لحظة، ثم توقفت تمامًا عن التفكير، قائلة بصوت عالٍ :

«ذلك لأنك تبدو شريرًا جدًا عندما تكون مرحًا ... ، وأنت لا تضحك إلا عند الشر أو السخرية. وذلك يجعلك قبيحًا. وأنت فى أغلب الأحيان قبيح.

– وصاح شيرى غاضبًا، ذلك ليس صحيحًا!»

وارتسم الغضب على حاجبيه من أول منبت الأنف، واتسعت عيناه، وامتلأت بضياء غير مريح، وساعدهما على ذلك الحاجبان، أما الفم فنجد فيه تقوسًا ينبئ عن الازدراء والصفاء فى الوقت نفسه. وضحكت "ليا" عندما رأته كما كانت تحبه، ثائرًا ثم أليفًا، كما لو كان مقيدًا بقيد غير محكم، وفى الوقت نفسه غير قادر على التحرر من القيود، – ووضعت يديها على هذه الرأس الفتية التى حركت

النيـــر بعد طول الصبر. وتمتمت قائلة، كما لو كانت تهدئ من روع أحد الحيوانات :

«هناك .. هناك .. ما هذا؟ ما هذا إذن؟»

«هناك .. هناك .. ما هذا؟ ما هذا إذن؟»

وارتمى الشاب بمقدمة جبهته على كتفها الجميل العريض ، ووضع أنفه، وأخذ منها مكانه المعتاد، وأغلق عينيه باحثًا عن النعاس كعادته كل صباح، لكن "ليا" دفعته قائلة :

«ليس كذلك ياشيرى، إنك ستتناول طعام الغداء فى مطعم "الهاربى الوطنى" Harpie Nationale ، والساعة الآن الثانية عشرة إلا الثلث.

– لا؟ ألا أتناول طعام الغداء عند صاحبة المطعم ؟ وكذلك أنت ؟»

وانزلقت "ليا" فى وسط السرير، ثم قالت :

« أنا لا، لدى إجازة. سوف أذهب لتناول القهوة فى الساعة الثانية والنصف – أو الشاى فى الساعة السادسة ، أو أدخن سيجارة فى الساعة الثامنة إلا الربع ... لا تقلق؛ لأن صاحبة المطعم ترانى دائمًا بما فيه الكفاية ... ثم إنها لم تُوجِّه إلىَّ دعوة».

أما "شيرى" – الذى كان واقفًا – فقد ظهر عليه المكر، وقال :

«إننى أعرف، إننى أعرف لماذا! لدينا مدعوون ! لدينا الجميلة "مارى لور" Marie-Laure وطفلتها الشقية !»

وتثبتت عينا "ليا" الواسعتان الزرقاوان الحائرتان، ثم قالت :

«آه ! نعم ! إن الصغيرة فاتنة. نعم، إنها أقل جمالاً من أمها، ولكنها جميلة ... وأخيراً، اخلع إذن هذا العقد».

– وتنهد شيرى وهو يفك مشبك العقد قائلاً : «يا للأسف! ربما يكون أفضل من ذلك فى سلته» .

وارتكزت "ليا" على مرفقها : «أية سلة ؟»

– قال شيرى باهتمام ساخر: «إنها سلة مجوهرات زواجى ... ».

وقفز فى الهواء، ثم سقط مرة أخرى على قدميه، بعد أن قام بست قفزات كاملة، ثم دفع الباب برأسه، واختفى وهو يصيح قائلاً :

«أعدّى حمامى يا "روز" Rose مادام ذلك ممكنًا ! إننى سأتناول طعام الغداء عند صاحبة المطعم !»

قالت "ليا": «وهو كذلك؛ فهناك بحيرة من الماء فى الحمام، وثمانى منشفات، وبعض أمواس الحلاقة فى الحوض. ولو كان عندى حمامان ... ».

لكنها تنبهت إلى أنه كان ينبغى عدم وجود سلة الثياب – كما فى الممرات السابقة – وإبعاد مكان التسريحة، وأنهت كلامها قائلة : كما فى الممرات السابقة :

«سأصبر حتى بعد زواج شيرى».

ثم عادت مرة أخرى، واستلقت على ظهرها ، ولاحظت أن "شيرى" كان قد ألقى فى الليلة الماضية جواربه على المدفأة، وسرواله الصغير على المنضدة الصغيرة، ورباط عنقه على رقبة تمثال نصفى لليا. وابتسمت رغمًا عنها إزاء هذه الفوضى الشديدة من جانب هذا الرجل، وأغمضت عينيها الواسعتين الهادئتين بلونهما الأزرق الفاقع، ورموشهما كستنائية اللون ، نصف إغماضه.

وعندما بلغت التاسعة والأربعين من عمرها، أنهت "ليونى فالون" المعروفة بـ "ليا لونفول" مهنتها الممتعة كفتاة ليل ذات دخل جيد، وكفتاة جميلة جنبتها الحياة كثيرًا من المكائد الخادعة والأحزان الصعبة. كانت "ليا" تخفى تاريخ ميلادها، ولكنها كانت تعترف طواعية – وهى تلقى على "شيرى" نظرة هادئة تسودها الرغبة – بأنها بلغت العمر الذى تحصل فيه لنفسها على بعض المُتع الصغيرة. كانت تحب النظام، والملابس الجميلة، والخمر المعتقة، والطبخ الجيد.

ولم يقبل شبابها – سواءً منذ أن كانت مراهقة صغيرة، أو فى نضجها عندما صارت غنية شبه أرستقراطية – لا الشهرة التى تجلب لها المضايقات ولا الغموض، ويتذكر أصدقاؤها يومًا من أيام "دراجز" Drags ، حوالى سنة ١٨٩٥م، عندما ردت "ليا" على سكرتير "جيلا بلاس" الذى كان يصفها بلقب "عزيزتى الفنانة":

«فنانة ؟ آه ! حقًا، صديق عزيز، لقد كان عشاقى يثرثرون كثيراً ...».

وكانت النساء المعاصرات لها يحسدنها على صحتها الجيدة، كما كانت النساء الشابات - اللاتى جعلتهن موضة سنة ١٩١٢م - يسخرن من صدر "ليا" البارز، وكانت هؤلاء النسوة أو تلك يحسدنها أيضًا على شيرى، وكانت "ليا" تقول :

«يا إلهى ! لا شىء فى ذلك، فليأخذوه؛ فأنا لا أقيده، وهو يخرج بمفرده».

وفى ذلك كانت تكذب بعض الشىء؛ فقد كانت تشعر بالكبرياء من هذه العلاقة - وكانت تقول أحيانًا إنه نوع من التبنى بدافع الإخلاص الذى دام منذ ست سنوات : « السلة ... إن زواج شيرى ... غير ممكن ،

قالت "ليا" ثانيةً : «السلة ... إن زواج "شيرى" غير ممكن - وليس من الإنسانية أن تُقدّم فتاة إلى شيرى، لأنه لماذا لا نلقى الغزالة إلى الكلاب ؟ إن الناس لا يعرفون من هو "شيرى"».

كانت "ليا" تعبث بأصابعها بحبات العقد المُلقى على السرير كأنه مسبحة. وكانت - فى ذلك الوقت - تخلعه ليلاً؛ لأن شيرى - المحب للآلئ الجميلة الذى كان يداعبها كل صباح - ربما لاحظ، فى كثير من الأحيان - أن رقبة "ليا" السمينة كانت تفقد بياضها، وتبرز تحت الجلد

عضلات مشدودة. ولمسته "ليا" عند مؤخرة العنق دون أن تستيقظ، وأخذت مرآة من فوق المنضدة الصغيرة الموضوعة بجانب السرير.

وقالت "ليا" دون تحفظ :

«إننى أبدو تمامًا كبستانية، كمزارعة خضر - مزارعة خضر نورماندية تذهب إلى حقول البطاطا، مرتدية عقدًا، وذلك ربما يناسبنى تمامًا مثلما توضع ريشة النعام فى الأنف، وإننى لذوّاقة» .

وهزت كتفيها، ورغم أنها متشددة فى كل ما تكرهه فى نفسها فقد كانت سحنتها مليئة بالحيوية وبالصحة ، حمراء بعض الشىء. إنها سحنة فى الهواء الطلق من شأنها إثراء اللون الواضح لإنسانى عينيها الزرقاوين اللتين تحيط بهما هالة زرقاء أكثر قتامة.

لقد كان أنف " ليا" الشامخ لا يزال جميلاً ، كما كانت تؤكد والدة "شيرى". حين تتحدث عن أنف "مارى أنطوانيت"، التى لم تكن تنسى أبدًا أن تضيف قائلة : « ... وفى خلال سنتين، سيكون لليا الطيبة ذقن مثل ذقن لويس السادس عشر».

وكان هذا الفم - بأسنانه الملتصقة، والذى لم يكن يقهقه أبدًا من الضحك - يبتسم فى كثير من الأحيان بالتوافق مع العينين ذات الغمزات البطيئة والنادرة، تلك الابتسامة التى امتُدحت مائة مرة، مع التغنى بها وتصويرها؛ لأنها كانت ابتسامة عميقة وواثقة تسر النفس.

كانت "ليا" تقول : «أما بالنسبة للجسم، فإنه من المعروف جيداً أنه عندما يكون حسن التكوين يبقى لوقتٍ طويلٍ» ، وكان لا يزال بوسعها أن تُظهر هذا الجسد الطويل الأبيض ذا اللون الوردى، والساقين الطويلتين، والظهر الأملس الذى نراه فى تماثيل العرائس فى نافورات إيطاليا، وكانت "ليا" تقول :" إن الردف ذا الغمازة، والثدى العالى غير المتدلى ... كل ذلك يمكنه الصمود حتى بعد زواج "شيرى"».

نهضت "ليا"، والتقطت قميص نوم، وفتحت الستائر بنفسها، ودخلت شمس الظهيرة إلى الغرفة الوردية البهيجة شديدة الزينة، والتى تسودها الرفاهية؛ حيث تمتلئ بالدانتيل المزدوج الموضوع على النوافذ، كما أن الجدران كانت مكسوة بالحرير الوردى، وبالأخشاب المُذهبة، وبالأنوار الكهربائية غير المباشرة ذات الضوءين الوردى والأبيض، كما أن الأثاث القديم كان مكسواً بالحرير الحديث، ولم تكن "ليا" تترك هذه الغرفة الوثيرة، ولا سريرها الذى يُعتبر تحفة قيمة لا يمكن أن تبلى، وهو مصنوع من النحاس والصلب المطروق الذى يُعتبر منظره شديداً على العين ومقاوماً للشظايا.

ولكن والدة "شيرى" كانت تحتج قائلة : «لكن لا، لكن لا، إنه ليس قبيحًا إلى هذه الدرجة، وأنا أحب هذه الغرفة؛ لأنها تمثل عصر الأناقة. إنه "البايفا" Païva» .

وكانت "ليا" تبتسم من جراء تذكر "الهاربى القومى" Harpie Nationale وهى ترفع شعرها الأشعث، ووضعت على وجهها البودرة

بسرعة، وهى تسمع بابين يصطكان، كما سمعت صوت اصطدام قدم تلبس حذاءً بأحد مكونات الأثاث الرقيق. لقد كان "شيرى" يعود بالبنطال والقميص، دون أن يضع ياقة اصطناعية، وكانت أذناه بيضاوين من بودرة التلك، وكان مزاجه عدوانيًا عندما قال :

«أين الدبوس الخاص بى ؟ يا صندوق النحس ! فهل تُسرق الجواهر فى هذا الوقت؟»

– وقالت "ليا" بصوت حاد : «إنها "مارسيل" Marcel التى شبكت الدبوس فى العصابة التى تضعها حول رقبتها لكى تذهب إلى السوق» .

أما "شيرى"، فقد تجرد من روح المرح، وتوقف عند هذه الدعابة تمامًا مثل النملة التى تُمسك بقطعة فحم. وتوقف عن التهديد، ولم يكن بوسعه إلا أن يجيب قائلاً : «ذلك رائع ! وأين حذائى ذو الرقبة ؟»

– أى حذاء ؟

– المصنوع من جلد الإبل !

ورفعت "ليا" عينيها الرقيقتين جدًا – وهى جالسة أمام تسريحتها – وقالت بصوت لطيف : «لن أخبرك».

– ورد "شيرى" قائلاً : «إننى سأكون تعيسًا جدًا، فى اليوم الذى تحبنى فيه امرأة من أجل ذكائى. وانتظارًا لذلك، أريد الدبوس والحذاء ذا الرقبة».

– ماذا تفعل بهما ؟ إننا لا نضع الدبوس مع السترة، كما أنك تلبس حذاء بالفعل.

ودق "شيرى" الأرض بقدميه، ثم قال :

«لقد تحملت الكثير، فإن أحداً لا يهتم بى، هنا ! وقد فاض بى الكيل !»

ووضعت "ليا" المشط قائلة : «حسنًا ! اذهب».

وهز "شيرى" كتفيه قائلاً بلهجة جافة : «هل يُقال ذلك ؟!».

وردت قائلة :

– اذهب. إننى أخشى دائمًا من هؤلاء المدعوين الذين ينتقدون الطبخ، والذين يضعون الجبن كامل الدسم فى الكاسات. اذهب إلى أمك المقدسة، يابنى، وابقَ عندها».

ولم يعبأ "شيرى" بنظرة "ليا"، وخفض عينيه، واحتجَّ مثل التلميذ قائلاً :

«هكذا لا أستطيع أن أقول أى شىء ؟ على الأقل، ألا يمكننى أن أستعير سيارتك كى أذهب إلى منطقة "نويى" Neuilly؟!».

فقالت "ليا" : لا" .

– لماذا ؟

– لأننى أخرج فى الســـاعة الثانية ، عندما يتناول "فليبير"

Philibert طعام الغداء.

– أين تذهبين فى الساعة الثانية ؟

– أؤدى واجـبى الدينى، لكن إذا كنت تريد ثلاثة فـرنكات أجـرة التاكسى...؟ ثم استـأنفت كلامـها قائلة برقة : «أيها الأبله، إننى ربما أذهب لتناول القـهـوة عند السيدة الأم فى الساعة الثانيـة، ألا يسعدك ذلك ؟»

وهز "شيرى" جبهته كحملٍ صغير، وقال :

«إن الجميع يضيقون بى، يرفضون لى كل شىء، ويخفون أمتعتى، إن الجميع ...».

– وقالت "ليا" : «ألا تعرف إذن كيف تلبس ملابسك وحدك ؟»

وأخـذت اليـاقـة الاصطناعـيـة من "شـيـرى"، وربطت بيـديهـا، رباط العنق بيديها، ثم أخذت الياقة الاصطناعية من شيرى بيديها، وربطت رباط العنق وعقدته، ثم قالت :

«إنه هناك ! ... آه ! رباط العنق البنفسجى ... إنه يليق بالفعل على الجمـيلة "مارى لـور" وبعائلتها ... فهـــل تريد أيضًا حبّة من اللؤلؤ ؟ إنك غريب بالفعل ... لماذا لا تأخذ أيضًا أقراطًا للأذن ؟...»

واستمر "شيرى" فى كلامه بسذاجة وخلاعة يشوبها الكسل والسرور، ثم أغمض عينيه...

وتمتم قائلاً :

«لا يا عزيزتى "نونو" Nounoune[1] ... ».

وأمسكت أذنيه، وعدلت من فرق الشعر الرقيق المائل إلى الزرقة، الذى كان يفصل بين جانبى شعر رأس "شيرى" الأسمر، وأمسكت خصلات شعره بأصبعها المبتل بالروائح العطرية، وقبَّلته بسرعة ؛ لأنها لم تستطع أن تتمالك نفسها من أن تُقبِّل هذا الفم الذى كان يتنفس بالقرب منها. وفتح "شيرى" عينيه وشفتيه، ومدّ يديه ... لكنها أزاحته قائلة :

«لا ! إن الساعة الواحدة إلا الربع ! اذهب، ولا أراك بعد الآن !».

– أبداً ؟

– وقالت "ليا" وهى تضحك برقة : «أبداً».

وعندما صارت وحدها، ابتسمت بكبرياء، وتنهدت باستهتار من الرغبة التى تنتابها، واستمعت إلى وقع أقدام "شيرى" فى فناء

(١) المقصود بـ "نونو" ليا : حبيبة "شيرى".

الفندق، ورأته وهو يفتح باب السور ثم يغلقه ويبتعد بخطى سريعة، ويرد تحية رقيقة من ثلاث عاملات كنَّ يمشين متأبطات ذراع بعضهن البعض وهن يقلن:

«آه ! يا والدتى ... ! هذا مستحيل، إنه مصدوم ...! ألا يطلبن ملامسته ؟»

لكن "شيرى" المتضايق لم يكلف نفسه حتى مجرد الالتفات.

الفصل الثانى

حـمـامى، يا "روز" ! لأن طـلاء الأظـافـر يمكن أن يـزول؛ فالوقت متـأخـر جداً. ها هـو التايـيـر الأزرق، والقبـعـة الزرقاء الجديدة، المحـلاة بلـون أبيـض، والحـذاء الصغـير ذو الزوائـد ... لا، انتظـرى ....

وتحسـست "ليـا" – وهى تضـع سـاقًا على سـاقٍ – كـعب رجلهـا العارية، وهزت رأسها قائلة : «لا، بل أحضرى حذاء البوت المعقود برباط من جلد الماعز الأزرق؛ لأن ساقىَّ اليوم منتفخـتـان بعض الشىء بسـبب حرارة الجو».

ورفـعت عـاملة الفندق المُسنَّة – التى ترتدى التُّل – عـينيـها بنظرة مُعبرة، وقالت لـ "ليا" : «إنها ... إنها الحرارة، وكررت ذلك برقة، وهى تهز كتفيـها، كما لو كانت تقول : «إننا نعرف .... يتحتم أن يبلى كل شىء ...».

وبعد رحيل "شيرى"، عادت "ليا" إلى حيـويتـها ورقتـهـا، وتنفست الصـعـداء. وفى أقل من سـاعـة أخـذت حـمـامـهـا، وتم دعكها بالكحـول المُعطر برائحة الصندل، ومشطت شعرها، ولبست حذاءها. وبينما كانت

مكواة فرد الشعر فى التسخين، وجدت وقتًا لتتصفح نوتة حسابات فندق المتردوتيل Maître d'Hôtel ، وأن تستدعى "إميل" Emile خادم الحجرة لتريه بخارًا أزرق على المرآة. أشاعت "ليا" حولها نظرة ثاقبة لا يُخطئها المرء أبدًا، وتناولت طعام الغداء وحدها وهى سعيدة، وكانت تبتسم وهى تشرب خمر "فوڤرى" Vouvray دون إضافة أى شىء لها، وتأكل فراولة شهر يونيو التى قُدِّمت إليها بأعناقها على طبق "ربل" Rubelle أخضر مثل ضفضع الشجر المبلل. وتعين على من يأكل بمزاج أن يختار أحيانًا، فيما مضى لقاعة الطعام المستطيلة هذه المرايا الكبيرة من طراز لويس السادس عشر Louis XVI، والأثاث الإنجليزى الذى صُنع فى العصر نفسه، وخزائن الآنية ذات التهوية الجيدة، وصوان السفرة المرتكز على أرجل، والكراسى الرفيعة المتينة، كل ذلك مصنوع من خشب شبه أسود به مقرنصات رفيعة. وكانت الإشاعات الخضراء لأشجار شارع "بوچود" Bugeaud تنعكس على المرايا وعلى القطع المصنوعة من الفضة، وكانت "ليا" تتفحص – وهى تأكل – الطلاء الأحمر الموجود على نقش الشوك، وكانت تغمض عينيها حتى يمكنها أن تحكم على لمعان الأخشاب القاتمة، وخلفها المتردوتيل Maître d'Hôtel يخشى مثل هذه الفحوصات.

ونادت "ليا" قائلة :

«"مارسيل" Marcel، إن سائل التلميع مازال يلصق منذ ثمانية أيام».

– هل تعتقدين ذلك يا سيدتى ؟

– إنها تعتقد ذلك. أضف إليه بعض البنزين، واخلطه به، ولن يكلفك إعادة صنعه شيئًا. كما أنك قدمت خمر "فوڤرى" Vouvray مبكرًا. الجو حار حقيقةً.

– حسنًا، يا سيدتى، هل السيد ... Ch .. السيد بلوكس Peloux سيتناول عشاءه؟

– أعتقد ... لا تقدموا لنا هذا المساء قشدة الحليب. فقط، قدموا لنا الشراب مع عصير الفراولة والقهوة فى الغرفة.

وعندما نهضت "ليا"، ظهرت طويلة ومستقيمة، وبدت ساقاها تحت التنورة التى التصقت بفخذيها، وقرأت فى نظرة المتردوتيل Maître d'Hôtel، ما معناه :

«إن سيدتى جميلة» – وهذه العبارة كانت تروق لها.

وكانت "ليا" تقول لنفسها : «"جميلة..." – وهى تصعد إلى مضجعها – لا، لم أعد كذلك الآن؛ ففى الوقت الحالى يلزمنى اللون الأبيض بالقرب من الوجه، واللون الوردى الباهت جداً لما هو أسفل، وتلزمنى ملابس نوم جميلة ... يا، ... أننى لم أعرض حاجة كبيرة لذلك ..، إننى لم أعد فى حاجة كبيرة لذلك ...».

ومع هذا، لم تنم وقت القيلولة فى مضجعها ذى الجدران الممتلئة بلوحات حريرية مرسومة، وذلك بعد أن تناولت القهوة، وتصفحت الصحف. وبوجه عابس أمرت سائقها قائلة له :

«اتجه إلى "مدام بلوكس" Mme Peloux».

كانت الممرات فى الغابة جافة، وإن كانت تلتف حولها خضرة شهر يونيو الجديدة التى تجعلها الرياح ذابلة، وتكتوى من زيادة الحرارة، أما عن منطقة "نوى" Neuilly، وشارع "انكرمان" Inkermann ... فقد سألت "ليا" قائلة :

«كم من المرات قمت باجتياز هذه المسافة ؟» وأخذت تحسبها، ثم تعبت من الحساب، واستمعت، وهى توقف خطواتها فى المدخل الرملى لبيت "مدام بلوكس"، إلى الأصوات التى تصدر من المنزل، ثم قالت : «إنهم فى البهو».

وكانت قد وضعت بعض البودرة قبل أن تصل إلى المنزل، ووضعت غطاءً صغيرًا أزرق على ذقنها وشبيكة مثل الضباب . وأجابت الخادم الذى كان يدعوها للدخول إلى المنزل قائلة :

«لا، إننى أفضل أن أصل إليه بالدوران حول الحديقة».

لقد كانت حديقة رائعة بمعنى الكلمة، بل شبه متنزه، وكانت تحوى بين جنباتها ڤيلا واسعة ناصعة البياض، مثل الڤيلات الكبرى فى ضواحى باريس.

وكانت قبلا "مدام بلوكس" تُسمى "ضيعة ريفية"، فى الوقت الذى كانت فيه منطقة "نوى" لا تزال من ضواحى باريس. وكان يدل على ذلك الإسطبلات التى صارت جراجات، والمنافع العامة التى كانت توجد فيها أوجار الكلاب ومغاسل الثياب، ويدل على ذلك أيضًا مساحات صالة البليار والبهو وغرفة الطعام.

أما العجائز من المتطفلات اللاتى كن يجئن ويروحن، فيقولن بنوع من الورع:

«إن "مدام بلوكس" موجودة هنا من أجل النقود»، وكان هذا القول بالنسبة لهن مقابل عشاء وكأس من الخمر النقية، أو مقابل أن يمسكن فى مواجهتها بكروت لعبة "البزيك" Bésigue و"البوكر" Poker ، وكن يضفن قائلات :

«لكن ما المكان الذى لا تكون فيه نقود لمدام بلوكس ؟»

وكانت "ليا" تسمع صوت همهمة، يقطعه صوت آلة الترونبت Trompette شبه المكتومة الخاصة بمدام بلوكس، وكانت تسمع أيضًا صوت الضحكة العالية لـ "شيرى"، وذلك حينما كانت تسير فى ظل أشجار السنط، وبين أشجار الورد الكثيفة وأقواسها.

وقالت "ليا" فى نفسها : «إن هذا الطفل لا يحسن الضحك». وتوقفت لحظة لكى تحسن سماع صوت نسائى جديد محبب إلى النفس، سرعان ما غطت عليه آلة الترونبت الغريبة.

وقالت لنفسها أيضاً : «إنها صغيرة».

وقامت ببعض الخطى السريعة ، ووجدت نفسها أمام بهو زجاجى، واندفعت منه "مدام بلوكس" صائحةً :

«هذه صديقتنا الجميلة !»

وفى الواقع، فإن "مدام بلوكس" التى كانت ترتدى سروالاً قصيراً، كانت تعمل راقصة من عشر سنوات إلى ست عشرة سنة. وكانت "ليا" تبحث أحياناً عن أخبار "مدام بلوكس"، وتتذكر "إيروس" Eros[1] الصغير القديم الأشقر السمين، وكذلك العروس ذات الغمازات، ولم تكن تجد فيها إلا عينين كبيرتين ثاقبتين، وأنفًا دقيقًا متين التكوين، ووجدت أيضاً فيها طريقة أنيقة لتضع قدميها فى "الصف" كما يحدث بالنسبة لأعضاء فريق الباليه.

قبَّل "شيرى" – الذى أفاق من فوق الكرسى الهزاز – يد "ليا" بسرور لا إرادى، لكنه أفسد هذه الحركة عندما قال :

«أما زلتِ تضعين هذا الغطاء الصغير، إننى أنفر من ذلك».

– وتدخلت "مدام بلوكس" قائلة : « دعها هادئة ! لا ينبغى أن تسأل امرأة لماذا وضعت هذا الغطاء الصغير؟! فإن ذلك لا يقدم ولا يؤخر»، ووجهت حديثها هذا إلى "ليا" بدقة.

---

(١) Eros : غريزة الحب فى رأى فرويد .

ونهضت اثنتان من النسوة فى الظل الأشقر لمخزن القش، ومدت إحداهما – وكانت ترتدى رداءً بنفسجيًا – يدها ببرود إلى "ليا" التى تأملتها من رأسها إلى قدميها، ثم قالت لها :

«يا إلهى، كم أنتِ جميلة، يا "مارى لور" Marie-Laure، لا يوجد أجمل منكِ !»

وتعطفت "مارى لور" وابتسمت. لقد كانت امرأة صهباء اللون، ذات عينين عسليتين تثيران الإعجاب دون حركة أو كلام. وأشارت بدلال إلى الفتاة الأخرى، ثم قالت :

«هل تعرفين ابنتى "إدميه" Edmée؟»

ومدت "ليا" يدها إلى الفتاة التى تأخرت فى أخذها، وقالت:

«كان يتعين علىَّ أن أعرفك يا ابنتى، لكن من كانت فى مدرسة داخلية تتغير بسرعة، كما أن "مارى لور" لا تتغير إلا كى تحيرنا أكثر فى كل مرة. هل أنتِ الآن حرة وغير مقيمة فى المدرسة الداخلية؟».

وصاحت "مدام بلوكس" قائلة : «أعتقد ذلك جيداً، أعتقد ذلك جيداً؛ إذ لا يمكننا أن نترك هذه الفتنة، وهذا الجمال، وهذه الأعجوبة، ذات الثمانية عشر ربيعًا تحت القرميد للأبد».

وقالت "مارى لور" بعذوبة :

– ثمانية عشر.

وردت "مدام بلوكس" قائلة :

«ثمانية عشر ! ... نعم، إنها ثمانية عشر ! أتذكرين ذلك يا "ليا" ؟ إن هذه الفتاة قُدِّم أول قربان لها فى الكنيسة فى الوقت الذى هرب فيه "شيرى" من المدرسة، هل تعلمين ذلك جيداً؟ نعم، لقد كنت ولداً شقياً؛ فقد هربت من المدرسة، وأصاب الجنون كلينا من جراء ذلك !».

– قالت "ليا" : «إننى أتذكر ذلك جيداً»، وتبادلت مع "مارى لور" هزة رأس، تماماً كما يتلامس من يلعبون فى المبارزة بالسيف ودياً.

واستمرت "مدام بلوكس" قائلة :

«يجب أن نزوجها، يجب أن نزوجها ! وعُرفت مدام بلوكس بأنها تكرر الحقيقة المبدئية مرتين على الأقل. وقالت : إننا سنذهب جميعاً إلى حفل العرس !».

وضربت الهواء بذراعيها الصغيرتين، ونظرت إليها الفتاة بخوف برىء. وفكرت "ليا" بانتباه شديد ، وقالت لنفسها :

«إنها ابنة "مارى لور"، وقد أخذت كل بريق أمها، دون أن يحس أحد؛ فشعرها كثيف بلون الرماد، كما لو كان عليه بودرة، وعيناها

اللتان تخفيان نفسيهما يسودهما القلق، وفمها يمسك عن الكلام، وعن الابتسام ... هو كل ما كان مطلوبًا لمارى لور التى كانت تكرر ذلك ... ».

وتوسطت مدام بلوكس "ليا" والفتاة ، وقالت بابتسامة الأم :

«إن هذين الطفلين تزاملا هنا فى الحديقة !»

كانت تعنى "شيرى"، الواقف أمام الحاجز الزجاجى الذى يتصاعد منه دخان؛ فقد كان "شيرى" يُمسك بمبسم السيجارة بين أسنانه، ويلقى برأسه إلى الخلف ليتجنب الدخان. ونظرت النسوة الثلاث إلى هذا الشاب ذى الجبهة المقطبة، والجفون شبه المغلقة، والأرجل المضمومة الثابتة، وكان يبدو – مع ذلك – مخلوقًا ذا جناحين، هائمًا ونائمًا فى الهواء، ... ولم تخطئ "ليا" فى التعبير عن الانزعاج وعن الهزيمة التى تجلت فى نظرة الفتاة إليها. وأعطت لنفسها متعة فى أن تجعل الفتاة تشعر بقشعريرة، فلمست ذراعها، واقشعرت "إدميه" بالكامل، وسحبت ذراعها، وقالت بصوت خفيض شرس :

«ما هذا ؟ ...».

فقالت "ليا" : لا شىء. إن أحد قفازى قد سقط » .

وقالت "مارى لور" بلهجة آمرة دون اكتراث : « هل يحسن أن تذهبى يا "إدميه" ؟»

وسارت الفتاة الرقيقة صامتة نحو "مدام بلوكس" التى كانت تعانى من أربطة ركبتها. وقالت "مدام بلوكس" :

«هل تذهبن الآن ؟ لكن لا ! سنرى بعضنا ! سنرى بعضنا !»

وقالت "مارى لور" : « إن الوقت متأخر، ثم إنكِ تنتظرين كثيراً من الناس بعد ظهر الأحد. إن هذه الابنة غير معتادة على الرحمة...».

وصاحت "مدام بلوكس" قائلة :

«نعم، نعم، لقد عاشت فى مجتمع مغلق، وحيدة جداً ! »

وابتسمت "مارى لور"، ونظرت إليها "ليا" لتقول لها :

«بعد إذنك !»

– لكننا سنعود فى القريب.

– الخميس، الخميس ! يا "ليا"، هل ستأتين للغداء أيضاً، الخميس ؟

– وأجابت ليا : سآتى.

ولحق "شيرى" بـ "إدميه" عند أول الردهة، ووقف بجانبها لا يعبأ بأى حديث، إلا أنه سمع وعد "ليا"، ثم عاد واقترح القيام بنزهة.

وقالت "مدام بلوكس" بإلحاح وبرقة :

« نعم، نعم، إنها نزهة تناسب عمركما. ستذهب "إدميه" مع "شيرى" إلى الأمام أولاً، ثم يصحبنا بعد ذلك بعيداً عن الأخريات. إن المكان الآن للشباب ! المكان للشباب ! "شيرى"، يا حبيبى، هل تريد أن تطلب سيارة "مارى لور" ؟»

وما إن لمست قدماها الصغيرتان المستديرتان الطريق المملوء بالحصى حتى اصطحبت زوارها إلى منعطف الممشى، ثم تركتهم بعد ذلك لـ "شيرى". وعندما عادت، كانت "ليا" قد أخذت قبعتها ، وأشعلت سيجارة.

وقالت "مدام بلوكس" : « ما أجملهما! أليس كذلك يا "ليا" ؟».

– وردت "ليا" قائلة، وهى تنفث دخان سيجارتها : «إنهما رائعان، لكن "مارى لور" !... »

وعندما عاد "شيرى" سألها :

« ماذا صنعت "مارى لور"؟»

– إنها رائعة الجمال !

وأمَّنت "مدام بلوكس" على ذلك قائلة :

– آه ! ... آه ! ...، هذا حقيقى، هذا حقيقى ... إنها رائعة الجمال !

وضحك كل من "شيرى" و"ليا" وهما ينظران إلى بعضهما.

وقالت "ليا" : «كانت !: إنها الشباب بعينه ! وليس بها أى عيب ! ويمكنها أن تلبس اللون البنفسجى الرقيق، رغم أننى أكره هذا اللون الردىء الذى يثير كراهيتى!»

ونظرت "مدام بلوكس" بعينيها الواسعتين غير الرحيمتين، وبأنفها الدقيق، وتركت كأسها، ثم قالت :

«إنها الشباب بعينه ! الشباب بعينه ! عفواً ، عفواً ! فإن "مارى لور" ولدت "إدميه" فى عام ١٨٩٥م، وفى الرابعة عشرة من عمرها خرجت "إدميه" من المدرسة الداخلية مع مدرس الأغانى "خليل بك" Khalil-Bey الذى قد أعطاها ماسة وردية !....لا ! لا! ... انتظرى! ... حدث ذلك منذ عام !... ».

كانت تتحدث بصوت قوى، وتقول أشياء غير صحيحة، ووضعت "ليا" يدها على أذنها، وقال "شيرى" منهيًا الموقف : « كان ذلك سيكون جميلاً جداً فى وقت ما بعد الظهيرة – مثل الآن – لولا صوت والدتى».

ونظرت الأم إلى ابنها بلا غضب؛ لأنها تعودت على وقاحته، وجلست بكبرياء، وتركت قدميها على راحتها متكئة على كرسى بوسادة وعلت ساقيها القصيرتين. وكانت تدفئ بيديها كوبًا من العرقى[1]. أما

(١) العرقى : خمر البلح .

"ليا" فكانت تتأرجح على كرسى هزاز، وتلقى - من وقت إلى آخر - نظرات من عينيها على "شيرى" الذى انبطح على كرسى من الخيزران اللين، وكانت صديريته مفتوحة، وسيجارته شبه مطفأة عند شفتيه، وخصلة من شعره تتدلى على حاجبيه، وكانت "ليا" تصفه سراً بأنه وغد جميل.

وظلاّ بجانب بعضهما دون أن يبذل أحدهما أى جهد ليثير إعجاب الآخر، أو ليتحدث معه، كانا مسالمين وسعيدين إلى حد ما. وكان تعودهما الطويل على بعضهما يجعل "شيرى" مسترخيًا و"ليا" هادئة، حيث يسود الصمت. وبسبب الحرارة التى كانت تزداد شيئًا فشيئًا، رفعت "مدام بلوكس" التنورة الضيقة التى كانت تلبسها حتى ركبتيها، وأظهرت عظام ساقيها الصغيرة، وخلع "شيرى" رابطة عنقه بغضب، وبحركة انتقدتها "ليا" قائلة : «إنك ... بذىء اللسان».

واحتجت "مدام بلوكس" قائلة، كأنها تحلم : «أوه ! اتركيه، هذا الصغير، إن الجو شديد الحرارة ... هل تريدين كيمونو[1]، يا "ليا"؟»

- لا، شكرًا؛ فأنا على ما يرام

وقد ضايقتها الافتراقات التى حدثت بعد الظهر، ولم يحدث مطلقًا أن عشيقها الشاب فأجأها وهى غير مهندمة، ومشدّ صدرها مفتوح، أو وهى

(١) الكيمونو : ثوب فضفاض تلبسه اليابانيات.

ترتدى الشبشب فى وضح النهار، وكانت تقول لنفسها : «يمكن أن أكون عارية، إذا كانت هناك رغبة فى ذلك، لكن لا يمكن أن أكون مكشوفة الصدر»، وتناولت صحيفتها المصورة مرة أخرى، لكن لم تقرأها. وكانت تقول لنفسها : «آه من هذه الأم "بلوكس" وابنها»، ضعهما أمام مائدة عامرة أو خذهما إلى الريف، وستكون المفاجأة : ستخلع الأم مشدّ صدرها، وابنها سيخلع صدريته. إن طبيعتهما طبيعة من يبيع الخمر، فى الإجازات ، ورفعت عينيها وبهما نظرة انتقام على من يصب الخمر، ورأت أنه كان ينام وأهدابه على وجنته البيضاء، وفمه مُغلق، كما كانت تقويسة الشفة العليا واضحة تكشف ما تحتها، وتوجد فى أعلى جزء منها نقطتان من الضوء الفضى، واعترفت "ليا" بأن ساقى الخمر كان يشبه إلى حد كبير أحد الآلهة أكثر مما يشبه بائع الخمر. ودون أن تنهض، أخذت برقة سيجارة مُشتعلة من بين أصابع "شيرى" ، وألقتها فى مطفأة السجائر، وارتخت يد "شيرى" النائم، وسقطت أصابعه الدقيقة، كما تتساقط الزهور الذابلة، أما يده ذات الأظافر الطويلة غير الأنثوية ، وإن كانت أجمل مما كان مرجوًا، فقد قبَّلتها "ليا"مائة مرة دون أن تكون مُستعبدة، لقد قبَّلتها من أجل النشوة، ومن أجل رائحة....

ونظرت إلى أعلى صحيفتها تجاه "مدام بلوكس" ،وقالت: «هل هى نائمة أيضًا ؟». كانت "ليا" تحب أن يعطيها نوم الأم وابنها

نائمين ، وهى مستيقظة ساعة من الوحدة المعنوية وسط الحرارة، والظل والشمس.

ولكن "مدام بلوكس" لم تنم، بل كانت تجلس فى مقعدها مثل امرأة بوذية، تنظر أمامها مباشرة، وترشف الشمبانيا المخلوطة بالكحول.

وتساءلت "ليا" : «لماذا لا تنام ؟ إنه يوم الأحد. ولقد تناولت طعام الغداء جيداً، وتنتظر من يدق عليها الباب فى الخامسة مساءً، وبالتالى كان يتعين عليها أن تنام، وإذا لم تنم؛ فذلك لأنها لا تفعل شيئًا ذا بالٍ».

لقد كانتا تعرفان بعضهما بعضًا منذ خمسة وعشرين عامًا. وكانت لهما خصوصياتهما المتعارضة بوصفهما سيدتين طائشتين يثريهما أحد الرجال ثم يتركهما، ثم يأتى رجل آخر ويفلسهما. لقد كانت صداقتهما تتميز بالمشاكسة بوصفهما متنافستين تترصدان نشوء التجاعيد فى إحداهما أولاً، وكذلك ظهور الشعر الأبيض. كانت زمالتهما تأتى من كونهما امرأتين إيجابيتين ماهرتين فى المضاربات المالية، لكن إحداهما كانت بخيلة والأخرى سخية... وهذه الصلات لها حسابها، ومع ذلك فهناك صلة أكثر قوة جمعتهما فيما بعد ؛ إنه "شيرى".

كانت "ليا" تتذكر "شيرى" وهو طفل معجزة له خصلات طويلة من الشعر، وعندما كان صغيراً، لم يكن يُسمى "شيرى"، لكن كان يُسمى فقط "فرد" Fred .

أما "شيرى" فقد كان يُنسى أحيانًا، ويُحب إلى حد العبادة أحيانًا أخرى؛ فقد تربى بين عاملات النظافة ذوات اللون الشاحب والخدم طوال القامة المثيرين للسخرية. وعلى الرغم من أنه وُلد ثريًا، فإننا لم نجد بجانبه أية فتاة إنجليزية أو ألمانية لرعايته، كما تم تحصينه ضد الأصوات العالية التى تخرج من أفواه هؤلاء الخدم ...

لقد قال شيخٌ كبير - وهو يلفظ أنفاسه - يُدعى "بارون دى برتلمى" Baron de Berthellemy : «إن شارلوت بلوكس امرأة من عصر آخر !، وإننى أُحييّ فيكِ، يا "شارلوت بلوكس"، المرأة الوحيدة ذات الطبائع الخفيفة التى استطاعت أن تربى ابنها وكأنه ابن كركى ! وبما أنكِ امرأة من عصر آخر، فأنتِ لا تقرءين، ولا تسافرين أبدًا، وتنشغلين فقط بقريبك الوحيد، وتربين طفلك بواسطة الخدم. كم هذا جميل تمامًا ! كما نشأ "أبو" About ! وكذلك "جوستاف دروز" Gustave Droz ! ويقولون بعد هذا إنكِ لا تعرفين شيئًا عن ذلك !»

لقد عرف "شيرى" إذن كل مباهج الطفولة الشقية، واستطاع - وهو لم يحسن الكلام بعد - أن يلتقط الأحاديث البذيئة من حوله، واشترك فى التهام طعام العشاء خِفْية فى المطبخ. وقد اغتسل - وهو صغير - بحمامات خلاصة زهرة السوسن فى بانيو والدته، وكان يتم تجفيفه بسرعة بطرف إحدى المناشف. وتحمَّل عُسر الهضم الناتج من تناول الحلوى، والتشنجات العضلية الناتجة من شعوره بالجوع إذا تم نسيان عشاءه. وكان يتضايق - وهو نصف عارٍ ومصاب بالزكام -

فى أعياد الزهور؛ حيث كانت "شارلوت بلوكس" Charlotte Peloux تعرّضه، وهو جالس وسط الزهور المبللة، ولكن حدث أنه كان يمرح فى سن الثانية عشرة، كما يمرح الملوك فى إحدى الصالات المشبوهة؛ حيث كانت إحدى السيدات الأمريكيات تعطيه حفنة من النقود ليلعب بها، وتسميه «العمل الرائع الصغير». وفى الوقت نفسه تقريبًا، أحضرت "مدام بلوكس" لابنها قسًا ليؤدبه ، ثم صرفته بعد عشرة شهور «لأن كما قالت: «ثوبه الأسود الذى كنت أراه فى كل مكان فى البيت، كان يجعلنى كما لو كنت قد جلبت إلى البيت قريبة فقيرة، والله يعلم أنه لا يوجد ما يحزننى سوى أن أرى فى بيتى قريبة فقيرة».

وعند سن الرابعة عشرة، ادْخل "شيرى" مدرسة داخلية، ولم يعتقد فى جدوى ذلك، وكان يفك أى قيد ويهرب. ولم تجد "مدام بلوكس" القدرة فقط على إعادته من جديد إلى المدرسة، ولكن أيضًا كانت تضعف أمام دموع ابنها وشتائمه، وكانت تضع يديها على أذنيها صائحة : «لا أريد أن أرى ذلك ! لا أريد أن أرى ذلك !»، وهذه الصيحة كانت فى الواقع من الصدق بحيث أبعدتها عن باريس، ومعها شاب صغير مُتردد كى تعود إليها وحدها بعد سنتين، وكان ذلك آخر ضعف عاطفى لها.

ووجدت "شيرى" قد كبر بسرعة، كأنه أجوف، وكانت عيناه محاطتين بهالة سوداء، وكان يلبس بذلة تدريب ، ويتحدث بشكل أكثر من ذى قبل. فضربت نهديها، وأخرجت "شيرى" من المدرسة الداخلية. وتوقفت تمامًا عن ذلك، واهتمت بالخيل، والسيارات

والجواهر، ويتطلب ذلك مصروفات شهرية كبيرة. وفى الوقت الذى ضربت فيه أمه نهديها وهى تصدر أصواتًا تشبه أصوات أنثى الطاووس، أوقفها بهذه الكلمات :

«"مدام بلوكس"، لا تشغلى بالك، يا أمى المبجلة، إذا لم يكن يوجد سواى لأضعك على الوسادة المحشوة بالقش، فإنك تخاطرين بأن تموتى من الحرارة تحت وطأة سريرك الأمريكى. ولست أميل إلى المجلس القضائى؛ لأن ما عندك فهو لى، فاتركينى أتصرف. أما بالنسبة للأصدقاء، فإنهم سيقتنعون بحفلات العشاء وبالشمبانيا. وبالنسبة لهؤلاء السيدات، فإنكِ مع ذلك لا تريدين أن أفعل كما فعلتِ؛ إذ إننى سأتفوق معهن فى الثناء على التحفة الفنية ! »

واستدار، بينما كانت "مدام بلوكس" تذرف دموعًا رقيقة، وترى نفسها أسعد الأمهات. وعندما بدأ "شيرى" فى شراء السيارات، ارتجفت من جديد، لكنه أوصاها قائلاً : «عينك على البنزين، من فضلك يا مدام بلوكس ! »، وبيعت خيوله، ولم يتورع "شيرى" عن انتزاع دفاتر السائقين. كان يحسب الأمور بسرعة وبدقة، كما أن الأرقام التى كان يضعها على الورق كانت تتوافق – من حيث عدم أهميتها وضخامتها وخفتها – مع طبيعة كتابته الضخمة البطيئة.

قضى "شيرى" سبعة عشر عامًا وهو يحسب الحسابات، وكان دائمًا جميلاً، لكنه كان نحيفًا، وقصير النفس. وقابلته "مدام بلوكس"

أكثر من مرة عند سلَّم الكهف الذى كان يعود منه بعد أن يحسب عدد الزجاجات فى خاناتها.

وكانت "مدام بلوكس" تقول لـ "ليا" : «ألا ترين ! إنه جميل جداً»..

– وكانت "ليا" ترد قائلة : «إنه جميل جداً، ولكن الأمر سينتهى بسوء، أرنى لسانك يا "شيرى"! »

وجذبها "شيرى" باشمئزاز، ووقاحة ، ولكن "ليا" – التى كانت تعتبر صديقة للعائلة – لم تُصدم ، وكأنها من التعميد، وكان "شيرى" يرفع الكلفة معها.

وتساءلت "ليا" قائلة : «الحقيقة، إنك شوهدت فى البار مع العجوز"ليلى" Lili، تلك الليلة، وأنت تجلس على ركبتها ؟.

– ورد "شيرى" متهكماً : ركبتها ! ليس لديها ركبتان منذ وقت طويل! فقد انتهيا.

– وقالت "ليا" بشكل أكثر حدة : «لقد جعلتك تشرب خمر "الجن" Gin بالفلفل ، ألا تعلم أن ذلك يجعل رائحة الفم كريهة ؟ »

وذات يوم جُرح "شيرى"، ورد على تساؤلات "ليا" قائلاً :

«إننى لا أعرف لماذا تسألينني عن كل ذلك؟ لقد رأيت بالقطع ما كنت أعمله؛ لأنك كنتِ حاضرة فى أقصى الغرفة الضيقة مع المُلاكم صاحب البار !.

– وردت "ليا" ببرود قائلة : «ذلك صحيح تمامًا؛ فليس فى ذلك ما يُشين. أما صاحب البار، فماذا تعرف عنه ؟ إنه ليس لديه أية إغراءات إلا وجه قمىء لا يساوى أربعة فلسات، وله عينان سوداوان».

وفى ذلك الأسبوع، أحدث "شيرى" ضوضاء كبيرة فى منطقتى "مونمارتر" و"الهال" Montmartre et Halles مع سيدات كن يسمينه "الابن الصغير" و"رذيلتى"، ولم يكن معه سجائر فى أى مكان؛ لأنه كان يعانى من الصداع النصفى، ويسعل من الحنجرة. أما "مدام بلوكس" فقد أفضت إلى من تقوم بالتدليك لها، وإلى "مدام ريبو" Mme Ribot، التى تصنع لها المشد، وإلى العجوز "ليلى" ، وكذلك إلى "بيرتيليمى لوديسيشه" Berthellemy-le-Desséché – عن أوجه قلقها الجديدة قائلة :

«آه ! بالنسبة لنا نحن الأمهات، كم هى مؤلمة الحياة ! لقد مرت "مدام بلوكس" بسهولة من مرحلة أسعد الأمهات إلى مرحلة الأم الشهيدة».

وفى إحدى أمسيات شهر يونيو التى جمعت فى "نوى" "مدام بلوكس"، و"ليا"، و"شيرى"، تغيرت أقدار الشاب ، وكذلك أقدار المرأة الناضجة، كما أن الصدفة التى فرقت ذات مساء أصدقاء "شيرى" – وهم تاجر جملة للمشروبات الكحولية، والابن بوستر Boster،

والفيكونت[1] "ديزمو" Vicomte Desmond، وهو طفيلى لم يكد يبلغ سن الرشد، كثير المطالب ويزدرى الآخرين ، جعلته يعود إلى منزل والدته؛ حيث وصلت إليه "ليا" أيضًا بحكم العادة.

ومنذ عشرين عامًا مضت، وماضٍ صُنع من أمسيات كئيبة متماثلة، وقلة العلاقات، وهذا الحذر أيضًا، وهذا الخمول الذى يجعل النسوة اللاتى لم يحببن إلا من أجل الحب يقتربن من نهاية حياتهن، كل ذلك جعل كلتا المرأتين ذات مساء، وهما ينتظران أمسية أخرى، يحذران بعضهما بعضًا. كانتا تنظران – هما الاثنتان – إلى "شيرى" الصامت، كما كانت "مدام بلوكس" – وهى لا حول لها ولا قوة – تحاول أن تعتنى بابنها، وتقتصر على أن تكره "ليا" إلى حد ما، فى كل مرة تميل فيها بحركة ما نحو الخد الشاحب، والأذن الشفافة لـ "شيرى"، أو نحو مؤخرة عنق "ليا" البيضاء ووجنتها الحمراء. كان بودها أن تعصر الدم من رقبة هذه المرأة القوية؛ حيث بدأت عقود هذه المرأة الجميلة تؤثر على جبينها، بحيث تصبغ هذه الزنبقة الأنيقة المخضرَّة باللون الوردى. ومع ذلك لم تُفكر هذه المرأة فى أن تصحب حبيبها إلى الحقول.

وقالت "ليا" لـ "شيرى" معاتبة إياها :

« "شيرى"، لماذا تشرب هذه الخمر المصفاة ؟

(١) الفيكونت : لقب للأشراف.

– فرد قائلاً : «كى لا أهين "مدام بلوكس" التى تشرب وحدها .

– وأضافت قائلة : «ماذا ستفعل غداً ؟».

– لا أعرف، وأنتِ ؟

– سأرحل إلى إقليم "نورماندى" Normandie .

– مع من ؟

– هذا لا يعنيك !

– هل مع "سبيلوف" Spéleïeff الطبيب ؟

– أتعتقد ذلك. لقد انتهى ما بيننا منذ شهرين، وسؤالك متأخر؛ لأن "سبيلوف" فى روسيا .

– قالت "مدام بلوكس" متنهدة : «أين ذهب فكرك يا عزيزى؟ إنك تنسى العشاء الجميل الذى قدمته لنا "ليا" الشهر الماضى. "ليا" إنكِ لم تعطينى وصفة طبق سمك "اللنغوستين" langoustines[1] الذى أعجبنى كثيراً !»

واعتدل "شيرى"، ولعت عيناه، ثم قال : «نعم، نعم، إنه سمك اللنغوستين بالصوس والكريمة، أوه ! إننى أريد بعضاً منه !»

(١) اللنغوستين : حيوان مائى يشبه سرطان البحر .

وقالت "مدام بلوكس" عاتبة : «هل ترين أن "شيرى" – الذى لا تنفتح شهيته كثيراً – يريد أن يأكل اللنغوستين....»

– وقال "شيرى" بلهجة آمرة : « إهدئى ! أما أنت يا "ليا"، هل تذهبين إلى الظلال مع "بترو" Patron؟»

– وردت قائلة : «ولكن لا، يا صغيرى، فإن "بترو" وأنا صديقان، سأذهب وحدى».

– ورمى إليها "شيرى" بكلمة قائلاً : «امرأة غنية !»

– وردت عليه قائلة : «أصطحبك معى إذا أردت، فلن تفعل سوى الأكل والشرب والنوم ...»

– قال شيرى : «أين قريتك ؟»

ونهض شيرى وتسمر أمامها.

وقالت "ليا" : «تعرف "أونفليـر" Honfleur على ساحل "الجراس" Grâce؟ بالطبع نعم ! ... اجلس، فإنك غض. أنت تعلم جيداً أنه بجوار ساحل "جراس"، يوجد باب ضخم كنا نتحدث أمامه دائمًا عندما نمر به، أنا وأمك ...».

واستدارت "ليا" ناحية "مدام بلوكس"، إلا أن "مدام بلوكس" كانت قد اختفت. ولم يكن هذا النوع من الاختفاء السرى، وفقدان الوعى،

يتفق كثيراً مع عادات شارلوت بلوكس، ونظر كل من "ليا" و"شيرى" إلى ذلك ضاحكين من المفاجأة. وجلس "شيرى" مقابل "ليا"، وقال لها : «إننى مُتعب".»

– فردت عليه قائلةً : «"إنك تنهك نفسك».

واعتدل "شيرى" بغرور قائلاً :

«أوه ! أنتِ تعلمين أننى مازلت بصحة لا بأس بها..»

– فردت قائلة : «لا بأس بها بالنسبة للآخرين... ولكن ليس... بالنسبة لى على سبيل المثال.»

– ألستُ غضًا إلى حد كبير ؟

– بالضبط، إنها الكلمة التى كنت أبحث عنها. هل ستأتى إلى الريف بكل إرادة وشرف ؟ توجد هناك فراولة طيبة وقشدة طازجة وفطائر ودجاج صغير محمر؛... ؛ فتلك وجبات خفيفة جيدة، ولا توجد نساء ! .

وانزلق على كتف "ليا" وأغلق عينيه، ثم قال : «ألا توجد نساء.. . يا عزيزتى ... "ليا"! قولى : هل ستكونين أمًا لى ؟ أليس كذلك ؟ إذن، فلنرحل . أما عن النساء فقد عُدت من عندهن... النساء ... لقد رأيتهن».

وبصوت ناعم قال أشياء وضيعة، كانت "ليا" تسمع وقعها ورقتها كلها كما لو كانت تتلقى صفعة فاترة على أذنها. كان "شيرى" قد أمسك بطول عقد "ليا"، ومررت "ليا" ذراعها تحت رأس "شيرى"، وقربته منها دون أفكار ملتوية، واثقة فى العادة التى تعرفها عن هذا الطفل، ثم هدهدته.

وقال "شيرى" متنهداً : «إننى على مايرام. فإنكِ بمثابة أخ لى، إننى على مايرام ...».

وابتسمت "ليا" كما لو كانت قد سمعت ثناءً كبيراً عليها. أما "شيرى" فقد كان يبدو عليه النوم. كانت "ليا" تنظر عن قرب إلى رموشه اللامعة شبه المبتلة التى تنزل على خده الهزيل الذى يحمل آثار تعب، دون سعادة. أما شفته العليا التى حلقها فى الصباح، فقد كانت تميل إلى الزرقة، كما كانت المصابيح الوردية تضيف لوناً صناعيًا أحمر كالدم إلى فمه ...

وقال لها "شيرى" كما لو كان يحلم : «لا توجد نساء ! إذن... قبّلينى!»

لم تتحرك "ليا" من المفاجأة.

فقال لها "شيرى" : « أقول لكِ قبّلينى !».

كان "شيرى" يصدر الأمر وحاجباه مقطبان، كما أن إشعاع عينيه المفتوحتين المفاجئ ضايق "ليا" ، كما ضايقها أيضًا الضوء الذى كان يُضاء فجأة، وهزت الكتفين، وطبعت قبلة قريبة جداً من الجبهة، وطوق "شيرى" عنق "ليا" وأمالها نحوه.

وهزت رأسها، ولكن فقط حتى اللحظة التى تلامست فيها شفتاهما، وعندئذ، بقيت ثابتة تلتقط أنفاسها كمن يرهف السمع. وعندما أطلقها "شيرى"، أبعدته عنها، ونهضت، وتنفست بعمق، وأصلحت من تسريحتها التى لم تنفك، ثم استدارت وهى شاحبة بعض الشىء، وعيناها قاتمتان، ثم قالت لشيرى بلهجة مازحة : «كان ذلك ذكاء !»

وتمدد فى وسط الكرسى الهزاز ، وصمت وهو يرمقها بنظرة معبرة تماماً عن التحدى، وتسودها استفهامات جعلتها تقول بعد لحظة :

« ماذا ؟.»

– وقال "شيرى" : لا شىء، إننى أعرف ما أريد أن أعرفه».

احمر وجهها خجلاً، لشعورها بالإذلال، ودافعت عن نفسها بمهارة قائلة: « ماذا تعرف ؟ ألا يعجبنى فمك ؟ يا صغيرى المسكين، لقد قبَّلت من هم أقل منك، فماذا يبرهن لك ذلك ؟ هل تعتقد أننى سأسقط عند قدميك وأصيح : خذنى إليك ! ولكنك لم تعرف إذن سوى فتيات، هل تعتقد أننى سأفقد صوابى لمجرد قُبلة ! ... ».

ثم هدأت وهى تتحدث مظهرة برودها.

وألحت قائلة ، وهى تميل عليه : «قل، يا صغيرى، هل تعتقد أن وجود فم حسن شىء نادر فى ذكرياتى ؟ ».

وابتسمت له وهى متعالية وواثقة من نفسها، ولكنها لم تعرف أن شيئًا ما ظل على وجهها؛ فقد كان قلبها ينبض نبضًا خفيفًا، كما أن ابتسامتها كانت تشبه تلك التى تحدث لها عندما تذرف الدموع.

ثم أكملت حديثها قائلة : «إننى هادئة تمامًا، ومع ذلك فقد أقوم بإعادة تقبيلك، ومع هذا فإننا ...».

توقفت وقد أظهرت حركة ازدراء.

فقال "شيرى" : «إننى لا أراكِ بالقطع فى مثل هذا الوضع».

- ثم أضاف قائلاً دون تسرع: «إنكِ لم تعودى ترينا نحن الاثنين فى الوضع الذى كنا عليه منذ قليل. ومع ذلك، فقد احتفظت بهذا الوضع لبعض الوقت، وأنتِ هل تفكرين فى هذا الوضع، وفى الوضع الآخر ؟ أما أنا، فلم أقل لكِ شيئًا بشأنهما».

وكان كل منهما يدقق فى كلام آخر كأنهما عدوان. خشيت "ليا" من أن تظهر رغبة لم يكن لديها الوقت لإظهارها أو إخفائها، كما كانت متأثرة من هذا الطفل، وشعرت بالبرود فى لحظة، وربما شعرت بالسخرية.

وقالت بخفة : «لديك حق، فلنطرح هذا الموضوع جانبًا، وأنا أعرض عليك - كما كنا نقول - مجالاً واسعًا لتظهر فيه على طبيعتك الغضة، كما أعرض عليك مائدة ... إنها مائدتى، وهذا كل ما عندى».

وأجاب "شيرى" بقوله : «يمكن أن ننظر فى ذلك؛ فهل أقوم باصطحاب السيارة "رينوار" Renouhard المكشوفة ؟».

- بالطبع، لم تتركها إلى "شارلوت" Charlotte .

- قال "شيرى" : «سأقوم بدفع ثمن البنزين، وعليكِ أنتِ تغذية السائق».

وانفجرت "ليا" من الضحك، وقالت :

«سأقوم بتغذية السائق ! آه ! آه ! اذهب، يا ابن "مدام بلوكس" ! ولا تنسَ شيئًا ... وأنا لست فضولية، ولكن أود أن أسمع ما يمكن أن يكون بينك وبين امرأة، إنه حديث عن الحب !».

جلست وهى تلوح بمروحة، وانتابها بعض الغموض، كما كان بعض الناموس ذى الأرجل الطويلة يدور حول المصابيح، كما أن رائحة الحديقة - عندما حلَّ الليل - صارت كأنها رائحة الريف. ودخلت نسمة من رائحة شجرة السنط، وكانت شديدة التميز، وشديدة التأثير، لدرجة أن الاثنين استدارا كما لو كانا يريدان أن يشاهداها وهى تسير.

قالت "ليا" بصوت منخفض : «إنها رائحة شجرة السنط التى بللها الندى».

– قال "شيرى" : «نعم، إنها شجرة السنط التى تأثرت هذا المساء بثمرة شجرة البرتقال ! ».

وتأملته "ليا"، وأُعجبت بغموض؛ لأنه اكتشف ذلك. كان "شيرى" يستنشق الرائحة كما لو كان ضحية سعيدة، أما هى فاستدارت وخشيت فجأة ألا ينادى عليها، ولكنه مع ذلك ناداها، فجاءت.

جاءت إليه لتقبله، ولكن بشحنة من الحقد والأنانية وأفكار العقاب. وقالت: «انتظر، اذهب... جميل حقًا أن يكوّن لك فم حسن، فى هذه المرة، سآخذ منه مايسعدنى؛ لأننى أرغب فيه، ثم أتركك دون أسف، ولكنى أمزح ساخرة، فسآتى ...».

وقبلته بشدة لدرجة إحساسهما بالسُّكر، وكانا صامتين ومضطربين، كما لو كانا قد فرغا من عراك بينهما... ووقفت أمامه لأنه لم يتحرك، وكان يجلس دائمًا وسط الكرسى الوثير، وتحدثه قائلة بصوت خفيض : «هيه ؟ ... هيه؟ ...» وانتظرت أن يسبها، ولكنه مد إليها ذراعاه، وفتح يديه الجميلتين المهزوزتين، وأدار رأسه المُهانة، وأظهر رموشه اللامعة التى سقطت منها دمعتان، بينما كان يتمتم بكلمات واضحة، كأنها أنشودة حيوان وأنشودة عاشق، فأين كانت "ليا" تجد

اسمها، بين كل المحبوبات ...، وبين من يأتين ... ومن يغادرن.... كانت أنشودة تستمع إليها وهى تميل وينتابها القلق، كما لو كانت قد أساءت إليه كثيراً دون قصد.

* * *

الفصل الثالث

عندما كانت "ليا" تتذكر أول صيف فى "نورماندى" Normandie، لاحظت ذلك عن حق – وهى تقول لنفسها : «لقد كان عندى أطفال أشقياء، أكثر هزلاً من "شيرى" وأكثر ودًا أيضًا، وأكثر ذكاءً، ومع ذلك فلم يكن عندى مثله».

وفى نهاية صيف ١٩٠٦م، قالت لـ "بيترلى لودشيه" :

«إن هذا أمر غريب، إننى أعتقد فى بعض اللحظات أننى أعاشر زنجيًا أو صينيًا».

– هل كان لديك صينى أو زنجى؟

– مطلقًا.

– وبعدئذٍ ؟

– لا أعلم. لا يمكن أن أشرح لك. إنه انطباع.

كان هذا الانطباع قد جاء إليها ببطء فى الوقت نفسه الذى لا تعرف فيه دائمًا أن تخفى أى اندهاش، ولم تتمثل ذكرياتهم الأولى عن

حبهم إلا فى صور الأكلات الراقية والفواكه المُختارة، وفى الاهتمامات التى كانت تبديها بوصفها مزارعة تتصرف على سجيتها. كانت ترى "شيرى" مرة أخرى - وهو مُتعب - أكثر شحوبًا فى ضوء الشمس الساطع، وهو يترنح تحت الخمائل النورماندية، وينام على حافة أحواض المياه الحارة. وكانت "ليا" تُوقظه لتطعمه الفراولة بالكريمة، واللبن الدسم، والدجاج المُغذَّى بالحبوب. وكان "شيرى" يتابع كالمصروع - بعين واسعة فارغة عند العشاء - ارتفاع البخار حول سلة الورود، وكان ينظر إلى معصمه ليعرف ساعة ذهابه للنوم، هذا فى الوقت الذى كانت تفكر فيه "ليا" التى أصابها الإحباط - دون حقد - من الوعود التى لم تحفظها القُبلة المُتبادلة فى "نوى" ، وكانت تتمسك بالصبر الجميل قائلة :

«إننى سأرقبه حتى نهاية أغسطس إذا كانت هناك رغبة فى ذلك، ثم بعد ذلك فى باريس، أُف ! وأعيده إلى دراساته العزيزة عليه ... ».

كانت "ليا" تنام مبكرًا وهى تثير الشفقة حتى ينام "شيرى" الذى يلجأ إلى حضنها، ويدفع بجبهته وبأنفه، بحيث يُوجد لنفسه - بكل أنانية - المكان الملائم لنومه، وفى بعض الأحيان - والنور غير مُضاء - كانت تتبع ضوء القمر المنعكس على الأرضية الخشبية. كانت تستمع إلى التنهدات التى كانت ترفع صدر "شيرى" التى تشبه أنفاس كلاب الصيد، وتختلط هذه التنهدات بهزات شجر الحور وصرير الصراصير.

وكانت "ليا" تسأل نفسها بغموض : «لماذا لا أنام ؟ إن السبب لا يرجع إلى وجود رأس هذا الصغير على كتفى؛ فلقد تحملت أثقالاً أكبر منه ... يا لجمال الجو! ... لقد أوصيت له صباح غدٍ بوعاء لبن طيب؛ ذلك لأننا لا نحس كثيراً بضلوعه. لماذا إذن لا أنام ؟ آه ! نعم، لقد تذكرت، سأرسل فى طلب "بترو" Patron المُلاكم كى يُدرب هذا الصغير. ولدينا الوقت أنا و"بترو" ، لكى نذهل "مدام بلوكس"... ».

كانت "ليا" تنام وهى ممدة على ظهرها، وكانت الرأس السوداء لهذا الطفل الشقى تنام على نهدها الأيسر. كانت تنام أحياناً وهى مستيقظة – ولكن ليس كثيراً ! – حتى شروق الشمس بناءً على طلب "شيرى".

وفى الشهر الثانى من عزلتها جاء إليها بترو بحقيبته الكبيرة، ورافعته الصغيرة الحديدية التى تزن كيلو ونصف، وكذلك سراويله السوداء، وقفازاته التى تزن أربع أوقيات، وحذائه المربوط حول أصابعه، وكان "بترو" ذا صوت يشبه صوت البنات، وكانت رموشه طويلة، وكان مُغطى – مثل حقيبته – بجلد جميل لامع، ولم يكن يبدو عليه أنه عريان حينما كان يخلع قميصه. أما "شيرى" الذى كان يشبه قطًا أحيانًا، وضعيفًا أحيانًا أخرى، أو غيوراً من القوة الصافية لـ "بترو"، فقد بدأ يلعب رياضة عنيفة ومقيدة تتمثل فى حركات بطيئة يمد فيها أجزاء جسمه.

«واحـــد... س س س ... اثنان ... س س س ... لا أســـمـــعك تتنفس...ثلاثة... س س س ... إننى أراها، أرى رقبتك التى تتعثر... س س س ...».

وكان الظل الظليل لأشجار الزيزفون[1] يخفف من حرارة شمس أغسطس. كان بمثابة بساط أحمر سميك مُلقى على الحصى، تصدر منه انعكاسات بنفسجية اللون تسقط على الجسدين العاريين للمدرب والتلميذ.

وكانت "ليا" تتابع الدرس بعينيها وهى منتبهة جداً. وخلال خمس عشرة دقيقة التى استغرقتها الملاكمة، سُرَّ "شيرى" من قواه الجديدة، وأخذ يجازف بتوجيه ضربات غير موفقة، وكان وجهه يحمر من الغضب. وتلقى "بترو" اللاكمات كالجدار، وأنزل على "شيرى" - وهو فى قمة مجده الأولمبى - ضربات معجزة أكثر ثقلاً من قبضته الشهيرة.

هأ ! إن عينك اليسرى شديدة التطلع، ولم يكن بوسعى أن أمنعها. لقد رأت مناعة قفازى الأيسر.

- وقال "شيرى" فى رد فعل : «لقد انزلقت».

- وأردف "بترو" قائلاً : «إن ذلك لا يأتى من التوازن، وإنما يأتى من الحالة المعنوية، وأنت لن تكون ملاكماً أبداً».

(١) زيزفون : جنس شجر طبى للتزين Tilleul.

– إن أمى تعترض على ذلك، ياله من حزن !

– وحتى لو لم تعترض أمك على ذلك، فلن تكون ملاكمًا؛ لأنك شرس، والشراسة لا تتفق مع الملاكمة، أليس كذلك يامدام "ليا" ؟.

وابتسمت "ليا"، وتذوقت لذة أن يكون المرء دافئًا، وألا يتحرك، وأن يشهد لعبًا بين رجلين شابين عاريين، وراحت تعقد مقارنة بينهما فى صمت :

هل "بترو" جميل! إنه جميل مثل قطعة الأثاث. أما الصغير فإنه يظهر بمظهر جميل، وركبتاه تماثلان ركبتى الآخر؛ لأنهما لا يتجولان فى الشوارع، وأنا أعرف ركبتى "شيرى". أما الكليتان فهما أيضًا...لا، فستكونان رائعتين ...، يا للبؤس! من أين جاءت به الأم بلوكس... وشدة الرقبة ! فإنها تمثال حقيقى، وماذا به من سوء ! إنه يضحك، وقد ننظر إليه على أنه كلب مسعور من كلاب الصيد....

كانت تشعر بأنها سعيدة وتحس بإحساس الأمومة، وتنتابها فضيلة هادئة، وكانت تقول لنفسها بعد الظهر تحت أشجار الزيزفون وأمام "شيرى" العارى : «إننى سأغيره إلى شخص آخر ».

ورأت "شيرى" عاريًا فى الصباح وهو يتغطى بجلد حيوان، وفى المساء على حافة حوض مياه فاترة. وكانت "ليا" تظهر لـ "بترو" عدم اهتمامها قائلة : «نعم، رغم أنه جميل، فإننى سأغيره كثيراً إذا لم يكن لديه مسألة الضمير».

واعترض "بترو" قائلاً : «مع ذلك، فإنه نموذج طيب. ها أنتِ ترين أن عضلاتـه من نموذج غير موجود هنا، خاصةً ما يتعلق باللون، ولا يوجد ما هو أكثر بياضاً. إن عضلاته صغيرة، وربما تكون مؤثرة، ولكنك لا ترين فيها أبداً نتوءات مثل نتوءات الكنتالوب».

– أرجو ذلك جيداً، يا "بترو" ! ولكننى لم أُلزمه بممارسة الملاكمة !

– وقال "بترو" وهو يخفض جفنيه موافقًا على ذلك بالطبع: « لابد أن يتوافق ذلك مع العاطفة».

وكان "بترو" يتحمل ذلك بضيق، وكذلك يتحمل تلك الإشارات الشهوانية غير الخفية إلى جانب ابتسامة "ليا" فى هذه اللحظة؛ حيث كانت تنظر إليه.وهى تبتسم بعيونها، خاصةً وهى تتحدث عن الحب.

واستأنف "بترو" كلامه قائلاً : «بالطبع ذلك واضح، خاصةً إذا لم ينل رضاءك بالكامل ...».

وضحكت "ليا" قائلة :

«كل الرضا، لا ... ولكننى أحصل على مكافأتى من أحسن مصادر الرضا مثلك تماماً يا "بترو"».

– آه ! أنا ...

كان يشعر بالخوف، وينتظر السؤال التالى : «هل يحدث الشىء نفسه دائمًا؟ يا "بترو"، هل تُصر على ذلك ؟».

– إننى أصر، يا مدام "ليا"، لقد تلقيت رسالة "ليان" Liane فى بريد الظهر؛ حيث تقول إنها وحيدة، وإننى ليست لدى أسباب للعناد، كما أن صديقيها بعيدان.

– وماذا بعد ؟

– عندئذٍ ، أعتقد أن ذلك ليس حقيقيًا ... إننى أعاند لأنها عنيدة. إنها تخجل من رجل له مهنة تقتضيه أن يستيقظ فى الصباح الباكر، وأن يمارس التدريب الخاص به كل يوم، وأن يعطى دروسًا فى الملاكمة والرياضة غير العنيفة، وأنت لم تجتمع فى وقت قريب أو قبل أن يكون المجال مهيأ لذلك. وقد نعتقد حقيقةً أنها تصيح قائلة: «إننى غير قادرة على أن أُغذى الرجل الذى أحبه!»، وقال بترو : «إننى لا أعترض على ذلك، وعلى هذا الشعور الجميل، ولكن ذلك ليس فى فكرى؛ فلكل منا أفكاره الغريبة. وكما تقولين أنت يا مدام "ليا" ، إن ذلك شىء يرجع إلى الضمير».

كانا يتحدثان تحت الأشجار بصوت منخفض، كان عاريًا فى تحفظ، أما هى فكانت مرتدية ثوبًا أبيض، وكان خدها بلون الورد شديد الاحمرار، وكانا يتذوقان طعم الصداقة المتبادلة التى نشأت من الميل نحو البساطة، والصحة، ونوع من الود فى عالم البسطاء. ومع ذلك،

لم تُصدم "ليا" حينما تَلقَّى "بترو" من "ليان" الجميلة هدايا ثمينة، وهى تعطى، وتعطى، كانت "ليا" تحاول أن تفسد بالحجج – التى ترجع إلى أوجه العدل القديم – غرابة "بترو". كانت أحاديثهما بطيئة، ولكنها كانت توقظ إلى حد ما لديهما فى كل مرة الحب والمال، وعندما كانت تنحرف عن المال والحب كانت تعود للكلام عن "شيرى"، وعن تعليمه السيئ، وعن جماله الذى لا يتجه إلى الآخرين فى الحقيقة وعن سلوكه، كما كانت "ليا" تضيف قائلة: «الذى لا يقتصر على سلوك واحد». وكانت هذه الأحاديث تلبى حاجتهما للثقة وكرههما للكلمات أو للأفكار الجديدة، إلا أن هذه الأحاديث قد اضطربت بسبب الظهور غير المرغوب فيه لـ "شيرى"، وكانا يظنان أنه قد نام أو سار فى طريق حار، وظهر "شيرى" نصف عارٍ، وكان معه دفتر الحسابات وقلمه خلف أذنه.

وقال بترو بإعجاب : «انظرى كيف يمسك الدفتر؟! إنه يملك كل صفات موظف الخزينة».

– وصاح "شيرى" من بعيد قائلاً :» ما هذا الذى أراه ؟ ثلاثمائة وعشرون فرنكًا للبنزين ؟ أشربونه! ! لقد خرجنا أربع مرات منذ خمسة عشر يومًا ! فكيف تم استهلاك زيت بمبلغ سبعة وسبعين فرنكًا !».

– وأجابت "ليا" : « إن السيارة تذهب إلى السوق كل يوم. وبهذه المناسبة، فإن السائق الخاص بك قد تناول – خلال الغداء – لحم فخذ الخروف

ثلاث مرات فيما يبدو ألا ترى أن ذلك يتجاوز ما اعتدنا عليه ؟ ... إنك لا تهضم الحساب، فأنت تشبه أمك».

وكرد فعل، ظل متحيراً للحظة، ومتأرجحاً على أقدامه الرفيعة، وحائراً من هذا الكرم كأنه طائر مركير[1] صغير يُضحك "مدام بلوكس" ويثير انتباهها: «ربما وأنا فى الثامنة عشرة ! كانت لى أقدام بأجنحة، أقدام بأجنحة! » كان شيرى يبحث عن أية سفاهة، وكان وجهه كله يرتعد، وفمه نصف مفتوح، وجبهته إلى الأمام، فى وضع متوتر يبين – بوضوح وبغرابة معًا – الانحناء الشيطانى لحواجبه التى ارتفعت أعلى جبهته.

وكانت "ليا" تقول بطيبة : «لا تبحث، اذهب. نعم، إنك تكرهنى. هيا عانقنى، أيها الشيطان الجميل، والملاك الملعون، أيها الساذج ...».

وجاء متغيراً صوته ومهانًا بالكلمات. أما بترو ، الواقف أمام الاثنين، فقد ترك الحقيقة تخرج من شفتيه الصغيرتين الصافيتين :

«وبالنسبة للتكوين الجسمانى المميز، فإن لك تكويناً جسمانياً مميزاً، ولكننى عندما أنظر إليك، يا سيد شيرى، يبدو لى أننى لو كنت امرأة لقلت لنفسى: «سأمر مرة أخرى خلال عشر سنوات».

---

(١) المقصود بها السيارة Mercure .

وقال "شيرى" بخبث – وهو يُبعد عنه رأس عشيقته المائلة : «أتسمعين يا "ليا"، إنه يقول خلال عشر سنوات؛ فما رأيك فى ذلك ؟ ».

ولكنها لم تتفضل بسماعه، وربتت بيديها على جسده اليافع الذى استمد منها قوته الصاعدة، ووضعت يدها فى أى مكان منه: على الخد، على الساق، على الردف، بسرور وبلا حياء، كأنها مربيته.

عندئذ سأل "بترو" "شيرى" قائلاً : «ما السرور الذى يعطيه لك كونك شرسًا ؟ »

وبنظرة بربرية لا يمكن اختراقها، كان "شيرى" يحيط هذا الملاكم القوى ببطء قبل أن يجيب قائلاً :

«إنك لا تستطيع أن تفهم ذلك؛ فهذا يواسينى».

وفى الحقيقة، لم تكن "ليا" قد فهمت شيئًا من "شيرى" بعد ثلاثة أشهر من العلاقة الحميمة. وإذا كانت لا تزال تتحدث إلى بترو الذى لم يعد يأتى إلى "بيرتيليمى لوديسيشيه" Berthelle-my-le-Desséché إلا يوم الأحد ؛ حيث كان يغادر بعد ساعتين، وكان الهدف هو إعادة "شيرى" إلى دراساته العزيز؛ فقد كان ذلك بحكم العادة، كما لو كانت تعتذر لإبقائه معها وقتًا طويلاً. كانت "ليا" تحدد لنفسها مهلة، يتم تجاوزها فى كل مرة، ولكنها كانت تنتظر.

كان الجو جميلاً جداً...، كما أن هروبه إلى باريس أتعبه في الأسبوع الماضي...، ثم إنه من الأفضل أن أستريح منه فترة ... .

كانت تنتظر - دون جدوى ولأول مرة في حياتها - الشخص الذى لم يخلف معها - فيما بعد - موعداً أبداً. كانت هناك ثقة وتفاهم واعترافات وإخلاص، وتفتح لعاشق شاب خلسةً . كانت كل ساعات الليل التى يعبر فيها "شيرى" عن عرفانه بطريقة شبه بنوية بوصفه مراهقًا يزرف الدموع - بلا توقف - وهو يتبادل النجوى، كما يعبر أيضًا عن ضغائنه على هذا الصدر الدافئ لصديقة ناضجة وأمينة.

كانت تفكر بعناد قائلة : «لقد امتلكت الجميع، وعرفت ماذا يساوون؟ وفيم يفكرون ؟ وماذا يريدون ؟ أما هذا الطفل، هذا الطفل .... فقد يكون الأمر بالنسبة إليه أشد قليلاً».

وفى الوقت الراهن، هو قوى وفخور بسنواته التسع عشرة، كما أنه مرح عند تناول مائدة الطعام، وينفد صبره فى السرير، ولا يقدم شيئًا منه إلا نفسه، وكان يظل غامضًا مثل العشيقة. هل هو حنون ؟ نعم، إذا كان الحنان يمكن أن يكون فى الصراخ غير الإرادى، أو فى حركة الذراعين المضمومين، ولكن "الشراسة" كانت تعود إليه مع الكلمة، والمهارة فى التوارى. كم من مرةٍ - حوالى الفجر - عانقت "ليا" عشيقها

المسرور ، والمتعقل، وعينها شبه مغمضة، وقد عادت الحياة إلى فمها كما لو كان كل صباح، وكل عناق يبعث فيها الجمال أكثر من اليوم السابق! كم من مرةٍ استولت عليها فى تلك الساعة الرغبة فى احتواء حبيبها واللذة فى أن تعترف! فقامت "ليا" بوضع جبهتها مقابل جبهة "شيرى" :

« قل ... تكلم ... قل لى ...».

ولكن لم يكن هناك أى اعتراف يخرج من فمها المستدير، كما لم تصدر منه كلمات أخرى سوى بعض المناجاة التى تعبر عن عدم الرضا أو عن النشوة، بسماع اسم "نونو" الذى أعطاه لها عندما كان صغيراً، والذى يظهره لها اليوم من أعماق سعادته وهو يناديها كى تحضر إليه.

وكانت تعترف لـ "أنتيم دى بيرتيليمى" **Anthime de Berthellemy** قائلة :

«نعم، أؤكد لك، إنه صينى أو زنجى، لا أستطيع أن أشرح لك»، كانت تقول ذلك وهى غير مبالية أو حريصة على أن تعرف الانطباع الذى شعرت به وهى مضطربة أو وهى قوية. إنها هى و"شيرى" لا يتحدثان نفس اللغة.

كان شهر سبتمبر قد قارب على الانتهاء عندما عادا إلى باريس. أما "شيرى"، فقد عاد إلى "نيوى" **Neuilly** ليفاجئ "مدام بلوكس" منذ المساء الأول.

وكان يحرك الكراسى، ويكسر الجوذات بضربة من يده، وكان يقفز على طاولة البلياردو يلعب مثل "الكاوبوى" Cow-boy فى الحديقة، ويعبث بأغطية كلاب الحراسة المذعورة.

وكانت "ليا" تتنهد قائلة وهى عائدة وحدها إلى منزلها فى شارع "بيوجو" Bugeaud : «أف، حسنًا، إنه سرير فارغ !»

ولكن فى مساء اليوم التالى، وفى أثناء تناولها قهوة الساعة العاشرة، محاولة ألا تشعر بطول المساء، وفى قاعة الطعام الواسعة ظهر "شيرى" فجأة، وهو واقف عند حلق الباب. لقد جاء ماشيًا بقدميه السريعتين اللتين لا تحدثان صوتًا، وأحدث ذلك عند "ليا" صيحة عصبية، واندفع إليها دون أن يكون لطيفًا أو مهزارًا، وقالت له : «ألست مجنونًا ؟ »

وهز كتفيه، وترفع عن أن يجعلها تفهم، وجرى إليها، ولم يكن يوجه إليها سؤالاً حين قال لها : «أتُحبيننى ؟ هل تنسيننى بالفعل ؟ »، ثم هرع إليها.

وبعد لحظة، جلسا فى وسط سرير "ليا" الكبير المُطعم بالصلب والنحاس. وكان "شيرى" يتظاهر بالنعاس والتعب؛ حيث يمكنه أن يضغط على أسنانه، ويغلق عينيه اللتين كانتا فريسة لثورة صامتة، ولكنها كانت تسمعه مع ذلك – وهى نائمة فى مواجهته – وتنصت

باستمتاع إلى الذبذبات الخفيفة، وإلى الضوضاء البعيدة كأنها أسيرة يرن جسدها، وتنكر قلقها وعرفانها وحبها.

* * * *

الفصل الرابع

– لماذا لم تخبرنى أمك بهذا أثناء العشاء مساء أمس ؟

– لقد وجدت أنه من الأفضل أن أخبرك أنا.

– حقًا قالت ذلك.

– وأنت ؟

– وأنا، ماذا ؟

– أتجد ذلك أيضًا مناسبًا ؟»

ورمق "شيرى" "ليا" بنظرة حائرة.

نعم !

وبدا أنه يفكر، ثم كرر كلامه قائلاً :

«أجل، هذا أفضل، لننظر فى ذلك».

ولكى لا تضايقه، حولت "ليا" عينيها نحو النافذة. كان المطر الساخن يجعل الجو سيئًا فى هذا الصباح من شهر أغسطس، وكان

يسقط متعامداً على أشجار الصنار[1] الثلاثة المُصفرة فى الفناء المزروع، وقالت "ليا" : « ربما نظن أنه الخريف »، ثم تنهدت.

وسألها "شيرى" : « ماذا بك ؟ »

ونظرت إليه، مندهشة، وقالت : «ليس بى شىء، إننى لا أحب هذا المطر».

– آه ! حسنًا، كنت أعتقد ...

– تعتقد ماذا ؟

– كنت أعتقد أنك متعبة.

ولم تستطع "ليا" أن تمنع نفسها من الضحك صراحةً: «أمتعبة أنا من أنك ستتزوج ؟ لا، اسمعْ ... إنك ... إنك مُضحك ... ».

كانت "ليا" نادراً ما تقهقه، كما أن شعورها بالفرح أزعج "شيرى". وهز "شيرى" كتفيه، وأشعل سيجارة باستيائه الطبيعى، وذقنه الممدود إلى حد كبير، وشفته السفلى البارزة إلى الأمام.

وقالت "ليا" : «إنك مُخطئ ؛ لأنك تدخن قبل الغداء».

---

(١) صنار : جنس شجر للتزيين (Platanes).

ورد عليها "شيرى" ببعض العبارات الواضحة التى لم تسمعها؛ لأنها انشغلت فجأة بسماع صوتها وصدى نصيحتها اليومية الاعتيادية، التى رددتها حتى أعماقها منذ خمس سنوات ... وقالت : «إن ذلك يؤثر فىَّ مثلشما تنعكس المناظر على الزجاج» ، ثم عادتِ بقليل من الجهد - إلى الواقع وإلى حالتها النفسية المعتدلة، وقالت لـ "شيرى" : « ربما تتاح لى الفرصة لأن أمنحك آخر نصيحة خاصة بالتدخين دون طعام !».

- فرد "شيرى" قائلاً : «إن هذه النصيحة ليست فى موضوعنا. إننى سأتزوجها، أليس كذلك ؟ وعليها أن تُقبِّل آثار أقدامى المُقدسة، وتبارك نصيبها، وستسير الأمور على هذا المنوال».

وبالغ "شيرى" فى إبراز ذقنه، وأطبق أسنانه على مبسم السيجارة، وباعد ما بين شفتيه، ولم ينجح فى أن يجمع أطراف منامته من الحرير المطرز التى تشبه منامة أمير آسيوى شحب لونه فى ظُلمات لا يمكن اختراقها داخل القصور.

أما "ليا" التى نهضت متراخية من فراشها الوردى، والتى كانت تسميه "اللون الوردى الإجبارى"، فقد حركت الأفكار التى تداعبها، والتى قررت تنحيتها جانبًا - الفكرة وراء الأخرى - فى مقابل ما كان يتظاهر به "شيرى" من هدوء، ثم قالت:

«أخيراً، لماذا تتزوج هذه الصغيرة ؟» ، وارتكز "شيرى" على مرفقيه الموضـوعين على المائدة، وقلد دون أن يدرى الوجـه المقطب لـ "مـدام بلوكس" قائلاً «: نادِنى هل تفهمين، يا عزيزتى؟....».

– نادِنى باسم "السيدة"، أو "ليا"؛ فإننى لست وصيفتك، ولا رفيقة لك فى مثل سنك .

كانت تتحدث بجفاء، وهى تعتدل فى كرسيها الوثير، دون أن ترفع صوتها. وأراد هو أن يرد، ويتحدى هذا الوجه الجميل الذى أثرت فيه البـودرة، وكذلك العينين اللتين كـانتـا ترمـقـاه بشـعـاع شديد الزرقة والوضوح، ثم لان وتراجع بطريقة غير مُعتاد عليها، وقال لها :

« "نونو" ، إنكِ تطلبين منى أن أشـــرح لك ... ألا يجب أن نضع نهاية؟ وبعدها هناك مصالح كبرى تتعلق بذلك ».

– ما هى ؟

– فقال دون أن يبتسم : «مصالحى؛ فالصغيرة لديها ثروة شخصية».

– ثروة أبيها ؟

قفز ورجلاه فى الهواء.

آه ! لا أعرف أن لديك أسئلة بهذا الخصوص على ما أعتقد! أليست الجميلة "مارى لور" Marie-Laure تحتكم فى خزينتها الخاصة على خمسة عشر ألف ورقة بنكنوت، ها ؟ خمسة عشر ألف ورقة بنكنوت، وجواهر ثمينة.

– وأنتَ ؟

وقال بكبرياء : «أنا لدى أكثر».

– وإذن، فلست فى حاجة إلى النقود.

وهز رأسه الملساء ؛ حيث كان النهار يمر فى موجات أشعة زرقاء.

– الحاجة، الحاجة ... أنتَ تعلم جيداً. إننا لا نفهم مسألة النقود بنفس الطريقة، وذلك شىء لا نتفق عليه.

– إننى أشكركِ لأنكِ جنبتينى هذا النوع من الحديث خلال خمس سنوات.

وانحنت، ووضعت إحدى يديها على ركبة "شيرى"، وقالت له :

«قل لى، يا صغيرى، ماذا وفرت من إيراداتك منذ خمس سنوات ؟ »

وهرج، ثم ضحك، واندفع نحو أقدام "ليا"، ولكنها أزاحته بقدميها.

– قل لى بصراحة ... هل هى خمسون أم ستون ألفا فى السنة ؟

قُل، إذن، هل ستقول إنها ستون ؟ أم سبعون ألفًا ؟

وجلس على البساط، وقلب رأسه على ركبتى "ليا"، ثم قال : « هل أنا إذن لا أريدها ؟ »

وتمدد فى وضح النهار، وأدار قفاه، وفتح عينيه الواسعتين اللتين كانتا تبدوان سوداوين، ولكن "ليا" كانت تعرف لونهما البنى والعسلى. ولمست بسبابتها – كما كانت تشير وتختار ما هو نادر فى كثير من نواحى الجمال – الحواجب والجفون وجوانب الفم. ومن لحظة إلى أخرى، كان شكل هذا العاشق، الذى كانت تزدريه إلى حد ما، يوحى إليها بنوعٍ من الاحترام، وكانت تعتقد أن الجمال فى هذه النقطة يُعتبر نبلاً.

– قُل لى، أيها الصغير.... ما شأن هذه الفتاة فى كل ذلك ؟ وكيف تتصرف معك ؟.

– إنها تحبنى، وتُعجب بى، ولا تقول شيئًا.

– وأنتَ، كيف تتصرف معها ؟

– فأجاب : أنا لست بسيطًا.

– فقالت "ليا" وهى تحلم :«يا له من دويتو حب جميل!»

ونهض "شيرى" نصف نهضة، وجلس مرتديًا سترته، وقال :

«إنكِ مشغولة بها كثيراً، ألا تفكرين فى نفسك وسط هذه المشكلة ؟ »

ونظرت إلى "شيرى" بدهشة جعلتها أكثر شباباً، وكانت حواجبها عالية، وفمها شبه مفتوح.

وقال لها "شيرى" : « نعم، أنتِ، يا "ليا". أنتِ الضحية. أنت الشخصية اللطيفة فى الأمر كله؛ لأننى سأتركك فجأة».

وشحب وجه "شيرى" بعض الشىء، وكان يبدو وهو يُعنِّف "ليا" أنه يجرح نفسه، وابتسمت "ليا"، ثم قالت :

«ولكن، يا عزيزى، ليس لدى النية فى أن أغير شيئًا من حياتى؛ فعلى مدى ثمانية أيام، كنت أجد من وقت إلى آخر فى أدراجى زوجاً من الأحذية ورباط عنق ومنديلاً ... وعندما أقول ثمانية ... إن أدراجى مُرتبة كما تعلم، آه ! ثم إننى سأجدد حمَّامى، تحضرنى فكرة لدائن الزجاج ...».

واتخذت مظهراً نهمًا وهى ترسم بأصابعها فى الهواء خطة غامضة. أما "شيرى" فلم يقلل من نظرته الانتقامية .

وقالت "ليا" : «ألست سعيداً ؟ ماذا تريد ؟ هل أعود إلى "نورماندى" Normandie أخفى آلامى ؟ هل أقلل وزنى ؟ هل لا أصفف شعرى؟ هل تريد أن تهرع "مدام بلوكس" إلىّ ؟»

ثم قلَّدت "ليا" الجلبة التى تحدثها "مدام بلوكس" وهى تضرب ساعديها :

«إنه خيالها ! إنه خيالها ! لقد هرمت التعسة مائة سنة ! مائة سنة! أهذا ما تريدينه ؟»

واستمع إليها "شيرى" بابتسامة مفاجئة مع غمغمة تخرج من أنفه التى ربما حدثت من الانفعال.

وصاح قائلاً : « نعم».

ووضعت "ليا" ذراعيها اللامعتين العاريتين الثقيلتين على كتفى شيرى، وقالت له : « يا طفلى الصغير ! كان يتعين علىَّ أن أموت أربع أو خمس مرات بهذا الحساب؛ لأن فقدان عاشق صغير، وتغيير طبيعة شرير صغير...».

ثم أضافت بصوت خفيض : « تعودت على ذلك».

وقال "شيرى" بحِدة : «نعلم ذلك، ولا أهتم بذلك أبدًا ! حقًا، نعم، لا أهتم بأن أكون أول عشيق لكِ ! وما كنت أريده، أو ما كان ينبغى أن يحدث ... مناسبًا ... خاصًا ... أن أكون العاشق الأخير ».

وأزاح – بحركة من كتفيه – الذراعين الرائعتين، ثم قال : «وفى الحقيقة، إن ما أقوله هو من أجلك ، حقًا !».

فأجابت "ليا" : «إننى أفهم جيدًا أنك مشغول بى، أما أنا فأنشغل بخطيبتك، كل ذلك طيب جدًا وطبيعى جدًا، ونرى أن ذلك يحدث بين القلوب الكبيرة ».

ونهضت "ليا"، وانتظرت من "شيرى" أن يرد بنذالة، ولكنه صمت، وسمحت هى لنفسها أن ترى لأول مرة نوعًا من الإحباط على وجه "شيرى".

وانحنت، ووضعت يديها تحت إبطى "شيرى"، وقالت :

«هيا، تعال، والبس ملابسك؛ فإننى لن ألبس سوى الروب الخاص بى ، ملابسى الداخلية جاهزة ؛ فماذا تريد أن أفعل فى مثل هذه اللحظة سوى أن أذهب إلى "شواب" Schawbe لأختار لك دُرة ثمينة؟ إذ لابد من أن أقدم لك هدية العرس».

وقفز "شيرى"، وتهلل وجهه قائلاً :

«آه ! إنك لطيفة، وما تفعلينه يُعَدُّ تصرفًا راقيًا، هل ستحضرين حلية ثمينة للقميص ! وردية اللون إلى حد ما، إننى أعلم ما هى !».

فقالت "ليا" : « أبدًا، إنها بيضاء اللون، شىء يليق برجل، لنرَ ذلك ! أنا أيضًا أعلم ما هى. إن ذلك سيجعلنى أنفق الكثير أيضا، ولكن سأدبر النفقات بدونك ! ».

ورد "شيرى" قائلاً بشكل متحفظ : «إن ذلك يعتمد على من سيجيء بعدى».

واستدارت "ليا" نحو ردهة الصالون، وأظهرت ابتسامتها البهيجة، وظهرت أسنانها القوية التى تنبئ عن شراهتها، وتجلَّت الزُّرقة المُنعشة لعينيها الداكنتين، ثم قالت :

«من يجيء بعدك ؟ أربعون فلسًا وعلبة تبغ أو زجاجة كشمشة[1] يوم الأحد، هذا كل ما سيساويه من يجيء بعدك ! وسأقوم بتزويد صبيانك ! ».

* * *

(١) كشمشه : جنبه مثمرة من فصيلة الكشمشيات : Cassis.

الفصل الخامس

صار الاثنان سعيدين جداً لعدة أسابيع، ولم تفصلهما سوى خطبة "شيرى" الرسمية لعدة ساعات كل يوم، وربما لليلة أو ليلتين. وكان "شيرى" يؤكد قائلاً : «يجب أن تكون هناك ثقة.» أما "ليا"، التى أبعدتها "مدام بلوكس" عن "نيوى" قد سلمت بهذا الفضول، وسألت "شيرى"، الذى اتخذ مظهراً مهمًا مليئًا بالأسرار التى كان ينشرها عند باب البيت، أسئلة كثيرة ، كان يتهرب من الرد عليها فى كل مرة يجد فيها "ليا" :

وصاح قائلاً ذات يوم وهو يغطى بقبعته التمثال النصفى لليا : «أصدقائى ! أصدقائى! ماذا نرى فى "بلوكس بالاس" Peloux Palace منذ أمس؟!».

– وقالت "ليا" : «انزع قبعتك من هذا المكان، أولاً، ثم لا تنادى أصدقائك الأوباش هنا، ماذا هناك أيضًا ؟ ».

كانت "ليا" توجه هذا اللوم، وهى تضحك مقدمًا؛ فقال "شيرى" : «إنها النار، يا "نونو" ! النار بين هاتين السيدتين

– "مارى لور" و"مدام بلوكس" – اللتين تتصارعان من أجل العقد الخاص بى !».

– فقالت "ليا" : «أهذا صحيح ؟».

– فقال "شيرى" : «حقًا ! إنه منظر رائع»، ثم وجه كلامه إلى "مارى لور" قائلاً : «احتفظى بالمشهيات حتى أجعلك تتأبطين ذراع "مدام بلوكس"....»، ثم وجهت "مدام بلوكس" حديثها إلى "مارى لور" قائلة : «يا له من نظام للمهور ! يا له من نظام للمهور ! لماذا لا يكون هناك المجلس القضائى ؟ إنها إهانة شخصية ! وماذا عن وضع ثروة ابنى ... ! اعلمى، يا مدام....».

– فقالت "ليا" : «هل هى تُسميها مدام ؟».

– وقالت "مدام بلوكس" : «إن الثروة كبيرة مثل المظلة. اعلمى يا سيدتى، إن ابنى ليس عليه فلس واحد من الديون منذ بلغ سن الرشد، كما أن قائمة الأسهم التى اشتراها منذ عام ألف وتسعمائة وعشرة تمثل ... ، تمثل هذا، أو ذاك، تمثل أنفى، تمثل مؤخرتى.... وأخيرًا، فإن "كاترين دى مدسيس" Catherine de Médicis هى دبلوماسية أكثر من ذلك، أليس كذلك؟! ».

ولمعت عينا "ليا" الزرقاوان من دموع الضحك، وقالت : «آه ! يا "شيرى"! إنك لم تكن أبدًا غريبًا بهذا الشكل منذ أن عرفتك، وماذا عن الجميلة "مارى لور" هى الأخرى ؟».

– هى، آه ! إنها بشعة يا "نونو" . إن هذه المرأة لابد أن تحمل خلفها خمسًا وعشرين جثة. إنها ترتدى ملابس خضراء، وشعرها أشقر، وجلدها... وأخيرًا، ثمانية عشر عامًا، ثم الابتسامة، كما أن الجلبة التى أحدثتها أمى المُبجلة لم تحرك لها ساكنًا. لقد انتظرت نهاية الشحنة حتى ترد قائلة: «ربما يكون من الأفضل، يا سيدتى العزيزة، ألا تذكر الاقتصاديات التى حققها ابنك فى عام ألف وتسعمائة وعشرة ومابعدها فى أعلى العقد؟!....».

– حصوة فى عينك ! ... فيم يخصك؟ أين كنتِ طوال هذا الوقت ؟

– أنا ؟ فى الكنيسة الكبرى.

– هل كنتِ هناك ؟

وتوقفت عن الضحك وعن الأكل.

– هل كنتِ هناك ؟ وماذا فعلتى ؟

– ألقيت كلمة لطيفة ... بالطبع.

كانت "مدام بلوكس" تمسك بشىء سمين كى تنتقم لشرفى، ولكنى أوقفتها دون أن أنهض، وقلت لها : «بهدوءٍ، يا أمى العزيزة. قلدينى، قلدى حماتى الفاتنة، إنها مثل العسل... والسكر» . إنها تجمع الأشياء كلها فى قنينات.

– أنا لا أفهم ماذا يعنى بذلك.

– إن الأمر يتعلق بزراعات السكر التى تركها الأمير المسكين "سيست" Ceste فى وصية لـ "مارى لور" ...

– نعم ...

– إنها الوصية الخاطئة التى أثارت جداً عائلة "سيست"! ويمكن أن يكون هناك قضية ! أتفهمين ؟

وشعر هو بالبهجة.

وردت "مدام بلوكس" قائلة : «إننى أفهم ما تقول، ولكن كيف عرفت هذه القصة ؟ »

– آه ! هاهى؛ فقد تشاجرت العجوز "ليلى" بكل ثقالها مع الابن الأصغر "سيست"، الذى يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً ومشاعره نقية...

– أهى العجوز "ليلى" ؟ يا للبشاعة !

– .... والصغير "سييست"

– والصغير "سيست" همس لها بهذه الكلمات الرقيقة، بين القبلات...

– "شيرى" ، إن معدتى تؤلنى !

– ... وإن العجوز

– وإن العجوز "ليلى" قد أخبرتنى بذلك فى يوم عيد الأم الأحد الماضى. إن العجوز " ليلى" تعبدنى ! وهى تكنُّ لى احتراماً كثيراً؛ لأننى لا أرغب أبداً فى مجامعتها !

– وتنهدت "ليا" قائلة : «أرجو ذلك جداً . إن ذلك يساوى...».

كانت تُفكر ووجد "شيرى" أن الحماس ينقصها.

– يا هذا، قولى، هل أنا مندهش ؟ قولى !.

وكان يميل فوق المنضدة، وعلى المفرش الأبيض، وعلى الأطباق، وكانت الشمس تضىء المائدة كما لو كانت نوراً.

– نعم ...

كانت تُفكر قائلة : «هذا لا يهم ؛ لأن "مارى لور" التى تقطر سماً عاملته بالضبط كما لو كان قواداً ...».

– هل يوجد يا "نونو" جبن كامل الدسم ؟

– نعم ...

... ولم يعد يقفز فى الهواء إلا إذا ألقت إليه بزهرة ...

– "نونو" ، هل ستعطيننى العنوان ؟ عنوان القلوب التى تُطهى بالقشدة، ذلك من أجل الطباخ الجديد الذى تعاقدت معه خلال شهر أكتوبر.

– أتعتقد ذلك ؟! إننا نطبخها هنا. إن الطباخ يطبخ حساء أصداف البحر بسرعة!

– ... حقيقةً أننا منذ خمس سنوات نقوم بتربية هذا الطفل ... ومع ذلك فهو يملك إيراداً يبلغ ثلاثمائة ألف فرنك. هل يُعتبر المرء قواداً إذا كان عنده إيراد ثلاثمائة ألف فرنك ؟ ذلك لا يعتمد على الرقم، ولكن على العقلية... إذ توجد نماذج من الناس يمكن أن تعطيها نصف مليون، ولا يصبحون من أجل ذلك قوادين...

– ولكن ماذا عن "شيرى" ؟ وعلى الرغم من ذلك فلم أعطه أبداً نقوداً ... على الرغم من ذلك ...».

وصاحت قائلة : « على الرغم من ذلك، عاملتك كديوث !».

– من هى ؟

– "مارى لور"!

وتهلل وجهه، وبدا كأنه طفل، ثم قال :

« أليس كذلك ؟ أليس كذلك، يا "نونو" ؟! أليس ذلك ما أردتِ أن تقوليه ؟».

– يبدو لى هذا !

ورفع "شيرى" كأسه المملوء بخمر "شاتو شالون" **Château-Chalon** التى تماثل لونها لون العرقى قائلاً:

«تحيا "مارى لور"! يا له من ثناء، هأ ! أرجو أن يُقال لى ذلك عندما أكون فى مثل عمرك، ولا أطلب أكثر من ذلك !».

– إذا كان ذلك يكفى لسعادتك ...

واستمعت إليه بشرود حتى نهاية تناول الغداء. ونظرًا لتعوده على شبه الصمت من جانب صديقته الحكيمة، فاقتصر على مخاطبتها بكلمات تشبه كلمات الأمومة وكلمات يومية. وقال :

«خذى الخبز الأكثر نضجًا .... ولا تأكلى اللبابة الطازجة ... إنكِ لن تعرفى مطلقًا كيف تختارين فاكهة ... » ، وبينما كانت تبدو مقطبةَ فى السر، فإنها كانت توبخ نفسها فى السر قائلة :

«أيجب مع ذلك أن أعرف ما أريده ؟! فماذا كنت أريد ؟»، واعتدل قائلاً :

«يا سيدتى، إنكِ تسبيننى ! ياسيدتى أنا لست الشخص الذى تظنينه !».

وفى الواقع، فأنا مسئولة. ربيته منذ الصغر، وأطعمته من كل شىء؛ فمن أين تأتى إلىّ فكرة أنه ربما يكون لديه يومًا ما الرغبة فى أن يسير ربَّ أسرة ؟ لم تأتِ إلىّ الفكرة ! ولو افترضنا أنها جاءت، كما قال بترو : «فالأصل هو الأصل !» حتى لو كان قَبِلَ مقترحات "جلاديس" Gladys، فإن ذلك لا يمكن أن يكون سوى ملعوب؛ ذلك لأن أصل "بترو" ، لو تحدثنا عن مده وجذره ، لكان ذلك قريبًا جدًا من أذنيه، ولكن "شيرى" نفسه نو أصل؛ فلديه ....

وقاطعت نفسها قائلة :

«ماذا كنت تقول، أيها الصغير ؟ لم أسمعك».

– كنت أقول: «إنك لا تسمعيننى أبداً، وليس هناك شىء يجعلنى أمزح تماماً مثلما هو الحال فى قصتى مع "مارى لور"!».

وأنهت "ليا" حديثها مع نفسها قائلة : «هكذا الأمر الذى يجعله يمزح».

ونهضت بحركة مُتعبة، ووضع "شيرى" ذراعه تحت قامتها، ولكنها أزاحته قائلة : « ما هو اليوم الذى ستتزوج فيه ؟».

– الاثنين ، فى الثامنة.

كان يبدو من شدة البراءة، ومن شدة ترفعه، أنها خشيت منه، وقالت :

– هذا مدهش !.

– لماذا يكون مدهشاً، يا "نونو"؟

– إنك لا تبدى حقيقة، وكأنك تفكر فى الأمر !

– فقال بصوت هادىء: «إنى لا أفكر فيه؛ فقد تم إعداد كل شىء. الحفل فى الساعة الثانية، وبهذا فإنهم لن يتسارعوا على طعام الغداء الوفير.

وفى الساعة الخامسة سنكون عند "شارلوت بلوكس"، ثم يأتى موعد النوم، وسنزور إيطاليا والبحيرات... ».

– هل ستؤجل الذهاب للبحيرات إذن ؟

– نعم سيؤجل؛ لأن الأمر يحتاج إلى ڤيلات وفنادق وسيارات ومطاعم... "ومونت كارلو"، وماذا أيضًا ؟!

– ولكن هى ! هى موجودة ...

– بالتأكيد، هى موجودة، ولكن الأمر ليس عويصًا، ومع ذلك فهى موجودة .

– لم أعد موجودًا.

ولم ينتظر "شيرى" الجملة الصغيرة، وتركته ليتدبر أمره، وتغيرت حدقات عينيه، وبهت لون فمه فجأة، ولكنه التقط أنفاسه بحذر حتى لا تسمعه وهو يتنفس، واستجمع نفسه مرة أخرى، وقال :

« "نونو" ، أنتِ دائمًا موجودة ».

– إنكِ تفحمينني.

– "نونو"، يوجد دائمًا أنتِ ... ثم ضحك برعونة، وقال:

– ستجدينني طالما سأكون فى حاجة إلى خدمة منك ».

ولم ترد بشيء، وقامت لتلتقط توكة من الصدف قد سقطت ، ثم وضعتها فى شعرها وهى تدندن. واستمرت فى ترديد أغنية أمام المرآة بكل إعجاب، فخورة بأنها استطاعت أن تتمالك نفسها بمثل هذه السهولة، وأن تختلس الدقيقة الوحيدة المؤثرة فى فراقهما، وافتخرت بأنها حفظت الكلمات التى لا ينبغى قولها، وهى : «تحدثى، توسلى، اطلبى، أوقفى نفسك ... لقد جعلتنى سعيدة منذ برهة ...».

* * * *

الفصل السادس

قبل دخول "ليا" تعيَّن على "مدام بلوكس" أن تتحدث كثيراً وطويلاً، وقد أضافت حمرة خدها، وبريق عينيها اللتين لا تعبران ولكن تترقبان، يقظة خفية لا يمكن لأحد أن يعرفها. كانت تلبس فى ذلك الأحد ثوبًا لما بعد الظهر لونه أسود وتنورة ضيقة جداً، ولا يمكن لأحد أن يجهل أن قدميها كانتا صغيرتين جداً، وأن بطنها تبدو فوق معدتها. وتوقفت عن الكلام، ثم شربت جرعة من كأس صغير كان يفتر فى راحتها، وأمالت رأسها نحو "ليا" بصعوبة بها تعب لسعيد.

وقالت : «هل تعتقدين أن الجو اليوم جميل ؟ هذا الطقس ! هذا الطقس! هل يمكن أن يقول أحد إننا فى شهر أكتوبر ؟».

ورد عليها صوتان خاضعان قائلين : «آه ! لا ؟ ...من المؤكد أنه لا !».

وكان هناك صف متدفق من أعشاب القويسات Sauges[1] يحيط برخاوة على طول الممشى بين جانبين من زهور النجمة Asters[2] التى

---

(١) قويسة وقويصة : هى جنس نباتات برية طبية .

(٢) زهر النجمة : جنس زهر من المركبات الأسطرية.

يميل لونها البنفسجى إلى الرمادى تقريبًا. وكانت الفراشات الشغالة تطير كما لو كنا فى الصيف، ولكن رائحة زهر الأقحوان التى تدفئها الشمس كانت تدخل إلى القاعة المفتوحة. وكان شجر السندر الأصفر يتمايل مع الريح، فوق مزرعة الورد البنغالية التى كانت تعوق النحلات الأخيرة.

وفجأة قالت "مدام بلوكس" برقة :

«ما هذا؟ ما هذا الطقس بالنسبة للمناخ الذى يوجد عندهم فى إيطاليا؟!».

– وأجابها الصوتان المستكينان قائلين : « إن الأمر هو ... أتعتقدين ذلك؟!....».

وأدارت "ليا" رأسها نحو الصوتين وهى تقطب حاجبيها، وتمتمت قائلة : «ماذا لو لم يتحدثا على الأقل».

وجلست "البارونة دى برش" La baronne de la Berche و"مدام ألدونزا" Mme Aldonza إلى مائدة اللعب ليلعبا الورق. وكانت "مدام ألدونزا"، وهى راقصة عجوز جدًا، تربط ساقيها؛ لأنها تعانى من الروماتزم الذى يشوههما، كما كانت تلبس شعرًا مستعارًا لونه أسود لامع. وفى مواجهتها وعلى مسافة منها، كانت تجلس "البارونة دى برش"، وكان كتفاها منفصلين كما لو كانا كتفى كاهن ريفى، وكان

وجـهـها الكـبـير - الذى جعله كبر السن يميل إلى الذكـورة - يثير الفزع للآخرين، ولم يكن فى أذنيها سوى شعر غزير فى الأنف وعلى الشفة، وكانت عندها مجموعة غضاريف ...

وصاحت "مدام ألدونزا" بصوت يشبه صوت الماعز قائلة: « يا بارونة ، إنك لم تبلغى بعد سن التسعين مثلى».

- يا صديقتى العزيزة، لاحظى ذلك، لاحظى ذلك. إن كل ما أريده أن يكون الجميع فى سعادة .

كانت توزع البركات باستمرار، وتخفى قسوة وحشية. وتأملتها "ليا"، باشمئزاز، كما لو كانت تراها للمرة الأولى، ثم وجهت نظرها إلى "مدام بلوكس".

وقالت : «إن "شارلوت" ، على الأقل، لها مظهر إنسانى؛ فهى ...».

وسألت "مدام بلوكس" "ليا" برقة ، قائلة : «ماذا بكِ، يا عزيزتى "ليا" ؟ إنكِ لستِ فى حالتك الطبيعية ».

وأحنت "ليا" قامتها الجميلة، وأجابت قائلة : «ولكن بلى، يا عزيزتى "لوليت" .... إن الجو عندك لطيف جداً بحيث أترك نفسى للحياة...» ، ثم فكرت، وقالت : «انتبهى... فإن الشراسة موجودة هنا أيضاً...» ،

ثم رسمت على وجهها - أيضًا - انطباعًا بالانتعاش مُجاملة لها، واستغرقت فى أحد أحلام اليقظة الشديدة، إلى حد أنها قالت وهى تتنهد : «لقد أفرطت فى الطعام... إننى أريد إنقاص وزنى ! وسأبدأ الحمية الغذائية غداً».

وضربت "مدام بلوكس" الهواء بيديها، وقالت بدلال: «ألا يكفيكِ الحزن إذن ؟.

- وانفجرت "مدام ألدونزا" و"البارونة دى برش" فى الضحك : « هأ ! هأ ! هأ ! هأ ! هأ ! هأ ! »

ونهضت "ليا"، وبدت طويلة فى ثوبها الخريفى الأخضر اللون، كما بدت جميلة فى قبعتها المصنوعة من الستان المشغول بخيوط رقيقة، كما بدت فتية بين هؤلاء العجائز، وأسرعت قائلة بنظرة رقيقة :

«آه ! لا ، لا، يا أطفالى ... أعطونى دستة من هذه الأحزان، حتى ينقص وزنى كيلو !».

- وقالت البارونة، وهى تنفث دخان سجائرها: « إنكِ مُدهشة يا"ليا"».

- ثم قالت العجوز "ألدونزا" لـ "ليا" متوسلة : « يا سيدتى "ليا"، هل ستعطينى هذه القبعة عندما تستغنى عنها ؟ هل تتذكرين،

يا "مدام شارلوت" لون الكحل الأزرق الخاص بكِ ؟ لقد مضت سنتان منذ أن كحلت به عين مدام "ليا"، هل ستعطينى أوراق اللعب ؟».

– ها هى، يا عزيزتى، وأرجو أن يكون حظك فيه سعيدًا !.

ووقفت "ليا" لحظة على عتبة الردهة، ثم نزلت إلى الحديقة، وقطفت زهرة البنجال Bengale بأوراقها، واستمعت إلى صوت الريح وهو يهز شجرة السندر[1]، وكذلك إلى صوت الترام فى الشارع، وإلى صفير قطار الضاحية. وكان المقعد الذى جلست عليه دافئًا بعض الشىء، وأغلقت عينيها، وتركت الشمس لتدفئ كتفيها. وعندما أعادت فتح عينيها، وأدارت رأسها بسرعة نحو المنزل، متأكدة أنها ربما ترى "شيرى" واقفًا على عتبة الردهة عند الباب الذى يسند إليه كتفه...

وسألت "ليا" نفسها قائلة : « ماذا بى ؟ »

وجعلتها الضحكات الصاخبة الحادة، والضوضاء التى انبعثت من استقبال بعض الأشخاص فى الردهة، تقف بطولها وهى مرتجفة بعض الشىء.

وقالت لنفسها : «هل سأصبح عصبية ؟»

(١) شجرة السندر Le bouleau : تُصنع منها القِسىُّ والسهام والنبل .

ثم قالت "مدام بلوكس" بصخب : «آه ! هاهم، هاهم».

ثم دوى بعد ذلك صوت قوى للبارونة التى كانت تقول : «الأسرة الصغيرة ! الأسرة الصغيرة !».

واقشعرت "ليا"، وجرت إلى عتبة البيت، وتوقفت لترى أمامها العجوز "لِيلى" وعشيقها المراهق، الأمير "سيست"، وكانا قد وصلا للتو.

ربما كادت تبلغ من العمر سبعين عامًا، وكانت ترتدى كورسيه لتخفى سمنتها، وكأنها عبد مخصىّ، وكان معتادًا أن يُقال للعجوز "لِيلى" إنها «كانت تتجاوز الحدود» دون أن يذكر الناس ما هذه الحدود. كانت تعلو وجهها المستدير الوردى – الموضوع عليه مساحيق التجميل – سعادة تشبه سعادة الطفل، كما كانت عيناها الواسعتان وفمها الصغير جدًا الرقيق والداخل إلى الخلف ينبئ عن دلال لا حياء فيه. وكانت العجوز "لِيلى" تتبع الموضة بشكل فاضح. وكانت التنورة المخططة الشديدة الزرقة والبياض تحيط بأسفل جسمها، كما كانت هناك سترة صغيرة زرقاء أيضًا تبدى صدرًا عاريًا ذا جلدٍ به نمش مماثل لديك رومى عندما ينفش ريشه، كما كان هناك فرو ثعلب أبيض لا يخفى رقبتها العارية التى تشبه إناء الزهور، وكانت رقبتها العريضة مثل البطن، أما ذقنها فكان منتفخًا ...

وقالت "ليا" فى نفسها : «هذا بشع» ، ولم تكن تستطيع أن تحول نظرها عن بعض التفصيلات المؤلمة، مثل "البرتون" Le breton[1] المصنوع من اللبَّاد الأبيض، على سبيل المثال، والذى وضعته بصبيانية خلف شعرها القصير الكستنائى المائل إلى اللون الوردى على الشعر المُستعار الذى وضعته فوقه، أو عن ذلك العقد المصنوع من اللؤلؤ الذى كان يُرى تارة ويختفى كأنه مدفون تارة أخرى، وكان اسم هذا العقد فى الماضى «عقد ڤينوس[2] Vénus ... » .

وصاحت العجوز "ليلى" وهى تهرول نحو "ليا" قائلة : « "ليا"، "ليا"، يا صديقتى الصغيرة ! » ، وكانت تمشى بصعوبة على قدميها المستديرتين والمتثاقلتين والبطيئتين والمحشورتين فى حذائها، كما كانت ترتدى غطاءً للرأس به خصلات من الأحجار الكريمة، وكانت هى أول من تقول لنفسها متباهيةً :

«إننى أمشى مثل البطة الصغيرة ! وذلك يناسبنى !» ثم قالت لـ"چيدو"[3] Guido :« يا حبيبى، هل تعرف "مدام دى لونڤل" Mme de Lonval؟ أتعرفها جيداً؟ أو أقدمها لك ... ».

---

(١) المقصود هنا قبعة حريمى.

(٢) إلهة الحب والجمال عند الرومان .

(٣) المقصود بـ "چيدو" : الأمير سيست حبيب ليلى .

وأسرع طفل نحيف ذو وجه إيطالى السمات، وعينين واسعتين فارغتين، وذقن ضعيف غير بارز، ليُقبِّل بسرعة يد مدام "ليا" ، ثم يعود إلى الظل دون أن ينطق بكلمة، وراقبته "لِيلى" وهو يمر، ووضعت رأسه على صدرها ذى النمش كأنها تُشهد الحاضرين على ذلك.

ثم قالت : «هل تعلمون من يكون؟ هل تعلمى يا سيدتى ما الأمر ؟ إنه حبى الكبير، أيتها السيدات !»، ولكن "مدام دى برش" نصحتها بصوت خشن قائلة : « أمسكى نفسك يا "لِيلى"»، ولكن "شارلوت بلوكس" قالت مُعقِبة : «لماذا إذن ؟ لماذا إذن ؟».

– وقالت البارونة : « ذلك من باب اللياقة ».

– ولكنها ردت قائلة : «إنكِ لست لطيفة، يا بارونة ! إنهما لطيفان، وهما الاثنان يُذكرانى بأطفالى!».

– وقالت "ليلى" بضحكة بهيجة : « كنت أفكر فى ذلك. إنه شهر عسلنا أيضًا، نحن الاثنين، يا "چيدو"! وقد جاء الناس لكى يعرفوا أخبار الأسرة الفنية ! لقد جاءوا ليقصوا كل شىء ».

واشتدت لهجة "مدام بلوكس"، وقالت :

«لا تعتمدى علىّ يا "لِيلى" لأقص عليكِ تفهات، أليس كذلك ؟».

– وصاحت "ليلى" قائلة وهى تضرب بيديها : «أجل، أجل، أجل. وحاولت أن تقفز، ولكن استطاعت فقط أن ترفع كتفيها وردفيها. فهكذا، فهكذا يمكن أن أتهيأ لممارسة الجنس ! أما فيما يتعلق بأذنى ! فلا يمكن تقويمها؛ فهؤلاء الناس يعرفون عنها بعض الشىء !».

ولم يفتح هذا المراهق الصامت – الذى كان يجرى الحديث بشأنه – شفتيه بالكلام. وكانت حدقتاه السوداوان يروحان ويجيئان فى بياض عينيه كما لو كانتا حشرتين خائفتين، وكانت "ليا" المتسمِّرة فى مكانها تنظر .

وقالت "مدام ألدونزا" بصوت مرتعش : «لقد قصت علينا "مدام شارلوت" أخبار الحفلة. لقد كانت "مدام بلوكس" الشابة حُلمًا تحت زهرة شجرة البرتقال».

– وعقبت "مدام شارلوت بلوكس" – بكل أنفاسها وحميتها – قائلة : «إنها كالسيدة العذراء ! إنها كالسيدة العذراء ! ولم يحدث أبدًا، أبدًا، أن رأينا منظرًا مماثلاً ! كان ابنى يسير فوق السحب ! فوق السحب !... يا لهما من زوجين ! يا لهما من زوجين !».

– وتمتمت "ليلى" لعشيقها قائلة : «أتسمع، يا حبيبى، تحت زهرة شجرة البرتقال...؟ قولى إذن، يا "شارلوت" ويا حماتنا ، ماذا عن "مارى لور"؟».

ولمعت عينا "مدام بلوكس" القاسيتين، وقالت :

«آه ! إنها ستغير مكانها، إنها ستغير مكانها مطلقًا... كان كل شيء يلتصق بالسواد، مثل ثعبان البحر الذى يخرج من الماء؛ بحيث نرى منه الأثداء والبطن ... وكل شيء ! وكل شيء !.

– وتذمرت "البارونة دى برش" قائلة بغضب كغضب العسكر : « يا لكِ من قطة غليظة ».

– فهذا التظاهر بالسخرية من الجميع، وهذا التظاهر بامتلاك سم السيانور[1]. طول الوقت فى الجيب ونصف سيته[2] من الكلوروفورم فى حقيبة اليد ! وفى النهاية، كل هذا يساوى كلمة، إنها ستترك مكانها ! لقد أعطت الانطباع بأنه ليس لديها سوى خمس دقائق فقط ، وجففت فمها قائلة : «إلى اللقاء، يا "إدميه" **Edmée**، إلى اللقاء، يا "فرِّد" **Fred** ، ثم رحلت !» .

والتقطت العجوز "ليلى" أنفاسها، وهى تجلس على حافة كرسى وثير، وقالت بفمها الصغير ذى الجوانب المقطّبة، ونصف المفتوح: « وماذا عن النصائح ؟».

– أية نصائح ؟

(١) السيانور Cyanure : سائل سام عديم اللون .

(٢) سيته Setier : كيل قديم لأربعة ليترات ونصف .

- النصائح، يا حبيبى، خذ بيدى !

- هل هى نصائح لشابة مُتزوجة ؟ ومن منحها إياها ؟

وحاذتها "شارلوت بلوكس" بشكل مُهين.

وقـالت : « كـان ذلك يحـدث فى أيامك، ولكن هذا العُـرف قـد انقضى».

وبكل قوة، وضعت العجوز يديها على ردفيها، وقالت :

«انقـضى ؟ سـواء انقـضى أم لم ينقض، مـاذا يفـيـد ذلك، يا "شارلوت" المسكينة ؟ إن الزواج قليل، فى عائلتك !».

- آه ! آه ! آه ! ، وقهقهت الاثنتان[٢] معًا دون حذر ....

ولكن نظرة واحدة من "مدام بلوكس" أزعجتهما، وقالت لهما :

« هدوءًا، هدوءًا، أيها الملكان الصغيران ! فإن لكل منكما جنته على الأرض؛ فماذا تريدان أكثر من ذلك ؟ ».

ومـدت "مـدام دى برش" يدها القـوية لتـهـدئ من حـمـيـة هاتين السيدتين، ولكن "شارلوت بلوكس" كانت تشم رائحة حدوث معركة تمامًا مثل الحصان الأصيل، وقالت :

(١) الاثنتان هما : العجوز "ليلى" Lili و "إدميه" Edmée .

«هل تبحثين عنى، يا "لِيلى" ، لن يكون لديكِ عناء فى أن تجدينى! إننى أدين لكى بالاحترام ولسبب وبدونه ... ».

واضطربت "لِيلى" من الضحك من أول ذقنها إلى فخديها، وقالت :

«بدون ماذا، إنكِ قد لا تتزوجين إلا لتبيِّنى لى الفشل ؟ ليس أمر الزواج صعبًا، اذهبى ! أما أنا، فسأتزوج "چيدو" لو كان رشيدًا !.

ونسيت "شارلوت" غضبها، وقالت : «أهذا صحيح ؟»

– ولكن يا عزيزتى، يا أميرة "سيست" ... ! إنها خمر "البيكولو" la piccolo المُعتقة ! البيكولو المُعتقة ! فهكذا يناديني أميرى الصغير !

وشدت تنورتها، واستدارت، وكشفت عن سلسلة من الذهب فى مكان عرقوبها.

واستطردت قائلة بغموض : «إلا أن أباه ....».

كانت تلهث، ونادت الطفل الصامت بحركة ما، وتحدث بسرعة وبصوت خفيض كما لو كان يقرأ، ثم قال :

«إن أبى – وهو "دوق باريز" Le duc de Parese – يريد أن يدخلنى الدير إذا تزوجت "لِيلى" ...».

وصاحت "شارلوت بلوكس" قائلة : «إلى الدير! إلى الدير! ياله من رجل !».

– وصرخت "مدام دى برش" قائلة : « رجل فى الدير ! يا إلهى، إنه أمر مثير !».

– وأبدت "ألدونزا" أسفها قائلة وهى تضم يديها كيفما اتفق : « ذلك فعل الهمجيين ».

وقامت "ليا" فجأة ، وأسقطت كوبًا مملوءًا على الأرض عند قيامها.

وقالت "مدام بلوكس" بارتياح : «إنه زجاج أبيض. إنكِ ستجلبين السعادة للزوجين الشابين. إلى أين تهرولين ؟ هل النار عندكِ مُشتعلة؟ ».

وكان لدى "ليا" بعض القوة التى رسمت بها ضحكة مكتومة، ثم قالت: «النار، ربما ... سكوت ! لا أسئلة ! إنه شىء غامض ... أهذا صحيح ؟ هل من جديد ؟ هذا ليس ممكنًا ! »

واشطاطت "شارلوت بلوكس" من الطمع، وقالت : «أيضًا، أجد مظهرك غريبًا ....».

– وصاحت العجائز الثلاثة : « نعم، نعم ! قولى كل شىء !».

وعندما رأت "شارلوت بلوكس" راحتى "لِيلى" المستديرتين، والأعضاء المشوهة للأم "ألدونزا"، أمسكت "شارلوت بلوكس" بأصابع يديها وأكمامها وحقيبة يديها ذات الخيوط الذهبية، وتخلصت من كل شيء، ونجحت فى أن تضحك مرة أخرى ، ثم قالت :

«لا، إن الوقت مازال مبكراً، وسيفسد ذلك كل شيء ! وهذا هو السر الخاص بى ! ...».

واندفعت نحو الردهة، ولكن الباب انفتح أمامها، وأخذها عجوز نحيف جداً، هى عبارة عن مومياء هزيلة بين ذراعيه، قائلاً :

«"ليا" ، يا جميلتى، قبِّلى صغيرك "بيرتلمى" Berthellemy، وإلا فلن أسمح لكى بالمرور !».

وصاحت من الخوف ، وقد نفد صبرها، ثم صفعت العظام التى تلبس القُفاز، واختفت.

ولم تعط لنفسها فسحة تفكر فيها، لا فى شوارع "نيوى" ولا فى ممرات الغابة التى بدت زرقاء عند غروب الشمس، كانت ترتعد قليلاً ، ثم أزالت الجليد من السيارة، وجعلها منظر بيتها النظيف، وغرفتها الوردية ، والصالون الصغير المليء بالأثاث والزهور، تشعر بالراحة، ونادت قائلة :

«بسرعة، يا "روز" Rose، أحضرى لى جذوة من النار إلى غرفتى!».

– وقالت لها "روز" : « فى الشتاء، حزمة الحطب تساوى سبعين ، وقد أخطأت سيدتى فى عدم الاحتياط ؛ فالأمسيات غادرة ».

– أحضرى لى مائدة الطعام الصغيرة إلى السرير فوراً، كى أتناول عشائى : أحضرى لى فنجانًا من الشيكولاتة الخفيفة، وصفار البيض مضروب فيها ومشويات، وعنبًا .... بسرعة، يا صغيرتى؛ لأننى أتجمد. وقد أصابنى البرد فى سوق "نيوى" ...

أطبقت أسنانها كى تمنعها من أن تصطك ببعضها. وقد ساعد دفء السرير على ارتخاء عضلاتها المشدودة، ولكنها لم تترك نفسها للاسترخاء، وشغلها دفتر حسابات السائق "فلبير" Philibert حتى عن الشيكولاتة بالزبد التى شربتها وهى ساخنة .

واختارت حبات الشاسلا[1] وهى تحرك عنقوده، وكان يبدو أمام الضوء كعنقود عنب أخضر طويل ...

ثم أطفأت لمبة السرير، وتمددت على ظهرها، حيث طريقتها المُفضلة ، وتركت نفسها على هذا الوضع، وقالت :

« ماذا بى ؟ »

(١) شاسلا Chasselas : عنب أبيض يُعرف باسم منطقة فى فرنسا.

وأصابها القلق مرة أخرى، وارتجفت من البرد، وسيطرت عليها صورة باب مفتوح . كان باب الصالة الموضوع داخل قائمين من خشب زوارق الصيد الحمراء.

وقالت لنفسها : «هذه ظاهرة مرضية؛ لأن المرء لا يضع نفسه فى هذه الحالة بسبب باب».

ورأت أيضًا مرة أخرى العجائز الثلاث، رقبة "ليلى"، والغطاء البيج الذى كانت تسير به مدام "ألدونزا" فى كل مكان معها منذ عشرين عامًا.

وتساءلت أيضًا : «يا تُرى من منهن سأشبهها بعد عشر سنوات ؟»

ولكن هذا التنبؤ لم يزعجها. ومع ذلك، فقد ازداد قلقها، ومرت بخيالها من صورة إلى صورة، ومن ذكرى إلى ذكرى، وهى تعمل على أن تبتعد عن الباب الذى يحيط به برواز من أخشاب زوارق الصيد الحمراء. كانت تشعر بالضيق فى سريرها، وترتعش بخفة، ثم شعرت فجأة بتعب، اشتد عليها حتى اعتقدت أنه تعبٌ جسمانى، وجعلها هذا التعب تنهض، ووصل إلى فمها، وانتزع منها تنهيدة ضخمة، ثم نحيبًا ، ونادت باسم : « شيرى».

ثم تتابعت الدموع، ولم تستطع أن تسيطر عليها فى الحال. وعندما استعادت السيطرة على نفسها، جلست ومسحت وجهها، وأعادت إضاءة المصباح.

وقالت لنفسها : «آه ! حسنًا، إنى أتأمل ».

وأخذت ترمومترًا كان موضوعًا على منضدة بجوار السرير، ووضعته تحت إبطها:

«سبعة وثلاثون درجة. ليس الأمر إذن جسمانيًا، كما أرى، ولكننى أتألم، ويجب أن أتصرف».

وشربت، ثم نهضت، وغسلت عينيها الملتهبتين، ووضعت بعض البودرة، ثم حركت فحمة تدفئة، وعادت إلى النوم مرة أخرى. كانت تشعر أنها يقظة، مليئة بالحذر ضد عدو لا تعرفه؛ ألا وهو : الألم. لقد كانت ثلاثون عامًا من الحياة السهلة الجميلة التى غالبًا ما سادها الحب، وأحيانًا الاشتهاء، توشك أن تخلع منها وتتركها، وهى تقترب من الخمسين، وكأنها شابة عارية. وسخرت من نفسها، ولم تعد تلحظ سوى آلامها، وابتسمت قائلة :

«أعتقد أننى كنت مجنونة، الآن لم يعد لى شىء».

ولكن حركة غير إرادية من ذراعها الأيسر ردت إليها آلامها، وجعلتها تطوق رأسها النائمة، وجلست على السرير بقفزة واحدة.

وقالت بصوت عالٍ وحاد : « إن الأمور ستبدو أجمل».

ونظرت إلى الساعة، ورأت أنها كانت حوالى الحادية عشرة. وسمعت أعلى منها وقع أقدام العجوز "روز" وهى تسير ، وتصل إلى

سُلَّم الطابق المؤدى إلى السطح، ثم خفتت هذه الخطوة. قاومت "ليا" الرغبة فى أن تنادى هذه العجوز – الآنسة – المجاملة.

«آه ! ألست راغبة فى سماع حكايات فى غرفة الخدمة؟ أليس كذلك ؟! »

ونهضت مرة أخرى، ولبست بسرعة ثوبًا من الحرير المُبطن، ثم أدفأت قدميها، وفتحت إحدى النوافذ نصف فتحة، ثم مدت أذنها كى تسمع أى شىء. وكانت الريح رُخاء رطبة قد جلبت السحب، وكانت الغابة القريبة جدًا، مازالت مُورقة، تُحدث صوتًا من حين إلى آخر. وأعادت "ليا" غلق النافذة، وتناولت صحيفة، وقرأت تاريخها :

« ستة وعشرون أكتوبر، مر شهر كامل منذ أن تزوج "شيرى"».

لم تقل أبدًا : « إن "إدميه" التى تزوجت ».

كانت تقلد "شيرى" ، ولم تُدخل فى حساب الأحياء هذا الشبح للمرأة الشابة. كانت ترى فقط عيون "شيرى" الكستنائية، والشعر الرمادى الجميل جدًا، المُجعد قليلاً، وكان الباقى يذوب فى الذكرى كما تذوب أبعاد وجه يراه المرء فى منامه.

«إنهما يمارسان الحب فى إيطاليا فى هذه الساعة بلا شك، وهذا الأمر لا يهمنى ... ».

لم تكن تُبالغ؛ لأن الصورة التى رسمتها للزوجين، والأوضاع المعتادة التى أثارتها، بل ووجه "شيرى" المُغمى عليه لمدة دقيقة، والخط

الأبيض من النور بين جفنيه بلا شدة، كل ذلك لم يحرك فيها شيئًا ؛ لا الفضول ولا الغيرة.

وفى المُقابل، انتابتها رعشة حيوانية جعلتها تميل أمام منضدة من الخشب الرمادى المُتلألئ اللامع، وتصورت ثمة علامة على خشونة "شيرى" ... وقالت :

«إن هذه اليد التى تركت آثارها هنا قد تحولت عنكِ إلى الأبد ...

إن ما أقوله جيد ! وسترى أن الحزن سيجعلنى شاعرية ! »

وتجولت، وجلست، ونامت مرة أخرى، وانتظرت الصباح، ووجدتها "روز" فى الساعة الثامنة جالسة على مكتبها تكتب، وقد أقلق هذا المنظر الخادمة العجوز؛ فقالت :

«هل سيدتى مريضة ؟ ».

– إلى حد ما، يا "روز"، بحكم السن، كما تعلمين ... يريد "ڤيدال" **Vidal** أن أغير الهواء. هل تأتين معى ؟ فإن الشتاء هنا يبشر بالسوء، سنذهب لتناول الطعام المخلوط بالزيت فى ضوء الشمس.

– أين هذا إذن ؟

– إنكِ شديدة الفضول، أخرجى فقط الحقائب، واحملى بعناية أغطيتى المصنوعة من الفراء ...

– مدام، هل أُحضر السيارة ؟

– أظن ذلك، بل إننى متأكدة، أريد كل أنواع الراحة، يا "روز" ، واعلمى إذن، أننى سأرحل وحدى : إنها نزهة للترويح .

وعلى مدى خمسة أيام، تجولت "ليا" فى باريس، وكتبت، وبعثت برقيات، وتلقت برقيات وخطابات من الجنوب، وغادرت باريس، وتركت لـ "مدام بلوكس" رسالة قصيرة بدأتها ثلاث مرات بـ :

«عزيزتى "شارلوت" ، لا تأخذى على خاطرك منى إذ رحلت دون أن أودعك، واحتفظى بسرٍ صغير لى؛ فلست إلا مجنونة كبيرة ! ... عجبًا ! كم هى قصيرة الحياة، لعلها تكون طيبة على الأقل!.

أقبلك بحرارة. بلغى تحياتى إلى الصغير عندما يعود.»

المتمردة "ليا"

« تنويه : لا تزعجى نفسك بالمجىء للاستفسار من المتردوتيل أو الحارس، فلا أحد عندى يعرف شيئًا ».

* * *

الفصل السابع

قالت "مدام بلوكس" : «هل تعلم، يا حبيبى الغالى، أننى لا أراك فى حالة طيبة ؟ ».

– فأجاب "شيرى" باختصار : «إنه السفر ليلاً بالسكة الحديد».

ولم تجروء مدام بلوكس على أن تذكر كل فكرها. لقد وجدت ابنها متغيراً.

وقالت : «إنه ... نعم، إنه قدر» ، وأنهت كلامها بكبرياء وحماس قائلة: «إنها إيطاليا !».

– وعقَّب "شيرى" قائلاً : «نعم إذا شئتِ».

وكانت الأم والابن قد فرغا منذ قليل من تناول طعام الغداء، وتنازل "شيرى" ليثنى ببضع كلمات مُنمقة على القهوة باللبن التى أعدها حارس المنزل لقد كانت قهوة دسمة باللبن، ومُحلاة إلى حد أنهم وضعوها على نار هادئة، بعدها قاموا بتقطيع الشطائر المُحمصة والمحشوة بالزُّبد، والتى تتحمر أيضًا، وكانت إحدى الشطائر المحشوة تخفى وراءها القهوة.

وكان "شيرى" يشعر بالبرد رغم ارتدائه منامة من الصوف الأبيض، وكان يضع ركبتيه بين ذراعيه. أما "شارلوت بلوكس" المتأنقة فكانت تلبس قميص نوم ، وتضع على رأسها بونيه للصباح، وكان صُدغاها المشدودان يرسمان على وجهها المكشوف سمة كئيبة.

وبما أن ابنها كان ينظر إليها، فقد قالت بصوتٍ به دلال :

«أنت ترى، إننى أطبق طريقة أجدادى ! سأضع البودرة حالاً، هل تحب هذا البونيه ؟ أليس هذا من تراث القرن الثامن عشر ؟ أمن طراز "دوبارى" Dubarry أو "بمبادور" Pompadour؟ كيف أبدو ؟

– وقال لها "شيرى" : «إنكِ تبدين كأنك فى صورة مجرم محكوم عليه بالأشغال الشاقة، ليس ذلك مما يمكن فعله، أو هو مما يمكن تخمينه».

وارتعدت، ثم قهقهت قائلة : «آه ! آه ! إنك تتميز بالغلظة !».

ولكنه لم يضحك، وكان ينظر داخل الحديقة إلى الجليد الذى سقط أثناء الليل على العشب. وكان الانتفاخ الشديد غير المحسوس لعضلات فكه يكشف عن عصبيته. أما "مدام بلوكس" التى انزعجت من ذلك ؛ فقد آثرت الصمت مثله، وسُمع صوت مكتوم لأحد الأجراس الصغيرة .

«إنها "إدميه" التى تدق الجرس كى تتناول الفطور».

ولم يجبْ "شيرى" بشىء، بل اقتصر على أن يقول بعد بُرهة :

« ماذا حدث، إذن، لجهاز التدفئة ؟ إن الجو بارد هنا».

وكررت "مدام بلوكس" ذلك ، وقالت برقة : «إنها إيطاليا. إنك تعود إلى هنا والشمس تملأ عينيك، وتملأ قلبك ! إنك تغرق فى الدفء ! إن أشجار الدهلية[1] لم تُزهر لمدة ثمانية أيام ! ولكن اهدأ، يا محبوبى العزيز، فإن عشك يحقق تقدمًا. وإذا لم يُصَب المهندس المعمارى بحمى التيفود، لكان قد انتهى من إعداد المسكن، وكنت قد تنبأت بذلك، وقلت عشرين مرة : يا سيد "سڤارون" Savaron ... ».

والتفت "شيرى" فجأة بعد أن كان قد ذهب إلى النافذة، وقال :

« ما تاريخ هذه الرسالة ؟ »

وفتحت "مدام بلوكس" عينيها الكبيرتين الطفولتين، وقالت:

«أية رسالة ؟

قال "شيرى" : رسالة "ليا" التى أريتينى إياها منذ بُرهة.

---

(١) دهلية Les Dahlias : جنس زهر من المركبات الأنبوبية .

وقالت : « ليس لها تاريخ، يا عزيزى، ولكنى تلقيتها عشية الأحد الأخير من أكتوبر ».

– حسنًا، ألا تعلمين من صاحبها ؟ ...

– من صاحبها، يا عزيزى ؟

– نعم، أخيرًا، هل هو الشخص الذى رحلت معه ؟

وارتسم المكر على وجه "مدام بلوكس"، وقالت :

«لا، تتصوَّر ! إن أحدًا لا يعرفه ! ذلك لأن العجوز "لِيلى" توجد فى صقلية، ولا يعرف أىٌّ من هؤلاء السيدات عن الأمر شيئًا ! إنه سر، سر مقلق ! ومع ذلك، فأنت تعرفنى؛ فقد التقطت من هنا وهناك بعض المعلومات الصغيرة ...».

وتركزت حدقة عين "شيرى" السوداء على بياض عين "مدام بلوكس" ، وقال :

« ما هذه المعلومات ؟».

– وهمهمت "مدام بلوكس" قائلة : «إن الأمر يتعلق بشاب... شاب. غير معروف كثيرًا، أتسمع ؟! هو شاب واثق من نفسه على سبيل المثال ! »

كانت تكذب، وتصطاد فى الماء العكر، وهز "شيرى" كتفيه قائلاً :

«آه ! لا، لا ... هل هو واثق من نفسه جيداً ! يا "ليا" المسكينة، إننى أتصور الأمر هنا، إنه شاب قوى البنية على شاكلة "بترو"، على يديه شعر أسود، ويداه باردتان ... بعد إذنك، سأنام مرة أخرى، لأنكِ تبعثين إلىّ بالنعاس».

وجر خفيه، وذهب إلى حجرته، وتوقف عند الممرات الطويلة ، وعلى البسطات الكبيرة للمنزل الذى كان يبدو له أنه يكتشفه، وتعثَّر فى دولاب غليظ ، ثم قال مندهشاً :

« يا للشيطان! كيف لم أتذكر أنه يوجد هنا دولاب ... آه ! أجل، إننى أتذكر بغموض ... وهذا الشخص، من يمكن أن يكون ؟ ».

كان ينظر متسائلاً إلى صورة فوتوغرافية حزينة فى إطار من الخشب الأسود، تحيط به أيضًا زخارف من الصينى، ومع ذلك لم يتعرف عليها.

وبالنسبة "لمدام بلوكس" فإنها لم تنقل أثاثها منذ خمسة وعشرين عامًا، وكل الأخطاء المُتعاقبة فى ذوقها الشاذ المُحب للاكتناز مازالت كما هى، وكانت العجوز "ليلى" – الشديدة الحب للوحات الزيتية وللرسامين المُحدثين – تعاتبها قائلة : «إن منزلك، منزل نملة، قد تصبحين كلبًا أستراليًا متوحشًا من نوع الدنجو». وكانت "مدام بلوكس" ترد قائلة :

« لماذا نُغير ما هو جيد ؟ »

أما "ليا" فكانت تقول : « هل يمكن أن يتقشر ممر أخضر من الماء، أو ممر أخضر فى مستشفى ؟ وأمرت "شارلوت بلوكس" بإعادة الطلاء باللون الأخضر، وعملت بكل غيرة، كى تغير كسوة كرسى التمدد المصنوع من القطيفة الرومانية بكسوة مماثلة من القطيفة الرومانية أيضًا ....».

وتوقف "شيرى" عند مدخل الحمام المفتوح. وكان الرخام الأحمر المُخصص للأحواض يحيط بأحواض صغيرة بيضاء كُتبت عليها حروف أولية، كما كان هناك مصباحى جدار تحتهما زهور زنبق مصنوعة من الدُّر، ورفع "شيرى" كتفيه حتى أذنيه كما لو كان يعانى من تيار هواء، ثم قال :

« يا إلهى، إن هذا السوق قبيح !».

ورحل مرة أخرى بخطى كبيرة، وفى نهاية الممر الذى كان يسير فيه، كانت النافذة محاطة بإطارٍ من الزجاج الأحمر والأصفر الصغير.

وقال متذمرًا : « لم ينقصنى إلا هذا».

واستدار يسارًا ، وفتح بابًا بعنف دون أن يطرقه – وكان باب حجرته القديمة – وتعالت صرخة صغيرة من السرير؛ حيث كانت

"إدميه" تنتهى من تناول غدائها. وأعاد "شيرى" إغلاق الباب، وتأمل زوجته الشابة دون أن يقترب من السرير، وقالت له وهى تبتسم :

« صباح الخير، كم تبدو مندهشاً من رؤيتى ! »

كان انعكاس الجليد يعكس على وجهه ضوءاً أزرق متساوياً فى الانعكاس، كان شعر "إدميه" مجعداً غير ممشط، ولونه كستنائى مائل إلى الرمادى، ولم يكن شعرها يغطى كتفيها المنخفضتين والرشيقتين.

كانت "إدميه" بوجنتيها البيضاوين المشوبتين بالحمرة مثل لباس نومها، وبفمها الذى أذبل التعب لونه الوردى تكون لوحة مُنعشة لم تنتهِ بعد، وإن كانت بعيدة بعض الشىء.

وقالت بإلحاح : « ألا تقول لى صباح الخير، يا "فِرِّد" ؟ »

جلس بالقرب من امرأته، وأخذها بين ذراعيه، وتقلبت برقة وهى تجر "شيرى". وارتكز "شيرى" على مرفقه لينظر تحته من قريب إلى هذه المخلوقة البراقة جداً التى لم يؤثر فيها الإعياء. وكان يبدو أن الجفن السفلى – المُحدب الشكل والممتلئ وغير المخدوش – يُثير إعجابها، كما يُثير أيضاً حلاوة الخد المُفضضة.

وسأل "شيرى" فجأة "إدميه" قائلاً : « كم عمرك ؟ »

وفتحت "إدميه" عينيها بعد أن كانت قد أغلقتهما، ورأى "شيرى" لون حدقتيها اللتين تشبهان لون الجوز، ورأى كذلك أسنانها الصغيرة المربعة التى كشفت عنها الضحكة.

وقالت "إدميه":

« أوه ! لنرَ ذلك ... سيكون عندى تسع عشرة سنة فى الخامس من يناير، حاول أن تفكر فى ذلك ! ...».

وجذبت ذراعها فجأة ، وانزلقت فى قلب السرير كما لو كانت مثل الوشاح المفكوك.

وقال "شيرى" : « تسع عشرة سنة، هذا عجيب ! أتعلمين أن عمرى أكثر من خمس وعشرين سنة ؟.

– نعم بالتأكيد، أعلم، يا "فِرِّد" ... ».

وتناول "شيرى" من على منضدة بجوار السرير مرآة من الصدف الأصفر، ونظر إلى نفسه فيها، وقال :

«خمسة وعشرون عامًا ! »

عمره خمسة وعشرون عامًا، ووجهه من المرمر الأبيض، ويبدو شديد المراس، خمسة وعشرون عامًا، ولكن هناك فى جانب خارجى من العين، وتحت العين يوجد خطَّان يماثلان تمامًا رسم العين عند القدماء،

ولا يمكن رؤيتهما إلا فى الضوء الشديد، إنهما شرطتان صنعتهما يد قوية شديدة الخفة ...

ووضع المرآة ، ثم قال لـ "إدميه":

«إنك أكثر شباباً منى، وهذا يصدمنى.

– فقالت "إدميه" : «ليس أنا ».

كانت قد ردت بصوت لاذع له معانٍ خفية، ولكن "شيرى" لم يستوقفه ذلك، وسألها بجدية قائلاً : «هل تعلمين أننى أملك عينين جميلتين ؟

– قالت "إدميه": لا؛ فهل ذلك يرجع إلى أننى أحبهما ؟.

– فقال "شيرى" وهو يهز كتفيه : « هذا شعِر، ربما لأن عينى مخلوقة مثل عين سمك موسى ».

– مثل ماذا؟ ....

– مثل سمك موسى .

وجلس "شيرى" بالقرب منها ليبرهن على ذلك، وقال لها : «انظرى، هنا، إلى هذا الجانب القريب من الأنف، إنه يشبه رأس سمك موسى، ثم انظرى إلى أعلى، ستجدين ما يشبه ظهر سمك موسى، بينما

فى الأسفل يستمر الشبه ؛ لأن البطن تشبه سمك موسى، انظرى إلى هذا الجانب من العين الممتد حتى الصدغ، إنه ذيل سمك موسى.

– آه ؟

– نعم، لو كانت عينى على هيئة سمكة الليمندة[1] – بمعنى أنها مفتوحة من أسفل كما هى مفتوحة من أعلى – لكان منظرى حقيرًا. هكذا الأمر، – وأنتِ يا من حصلتى على شهادة البكالوريا، هل كنتِ تعلمين ذلك ؟

– لا، أعترف بذلك ...

وصمتت وظلت فى ذهول؛ لأنه تحدَّث بثقة، وقوة تفوق الحد، كما يتحدث بعض الحمقى.

كانت تقول : «هناك لحظات يشبه "شيرى" فيها شخصًا همجيًا؛ فهل هو إنسان غابة ؟ ولكنه لا يعرف النباتات ولا الحيوانات، بل إنه يبدو أحيانًا أنه لا يعرف الإنسانية ...».

أما "شيرى"، الجالس فى مواجهتها، فقد كان يمسكها من كتفها بذراعه ، ويلعب بيده الطليقة فى اللآلئ الصغيرة الجميلة الشديدة الاستدارة المتساوية التى تكوِّن عقد "إدميه" .

---

(١) الليمندة Limande : سمكة بحرية من جنس سمك موسى .

كانت "إدميه" تشم العطر الذى يسرف "شيرى" فى استخدامه، وتتمايل فى نشوة، مثل الوردة فى غرفة دافئة.

وقالت لشيرى : « "فِرّد" تعالَ لتنام، فإننا متعبان ... ».

ويبدو أنه لم يسمع كلامها؛ فقد كان يركز نظره على لآلئ العقد بإصرار وقلق.

ولكن "إدميه" قالت له :

« "فِرّد"... ».

كان يرتجف، ثم نهض وخلع منامته بغضب، وألقى بنفسه عارياً على السرير، باحثًا عن مكانٍ لرأسه على هذا الكتف اليافع، حيث كان نحر "إدميه" لا يزال بارزًا. أما "إدميه" فكانت مطيعة بكل جسدها، وكانت تدس خاصرتها وتفتح ذراعيها. وأغلق "شيرى" عينيه ولم يتحرك. كانت "إدميه" تحرص بحذر على أن تظل يقظة لاهثة بعض الشىء تحت ثقله، وكانت تظنه نائمًا، ولكن بعد برهة التفت فى قفزة واحدة مُقلداً الشعور بالتذمر الذى يحس به النائم أو الغائب عن الوعى، ولفَّ نفسه فى الملاءة على الطرف الآخر من السرير.

وقالت "إدميه":

« إنها عادته».

كان ينبغى عليها أن تظل مستيقظة فى هذه الغرفة المربعة ذات النوافذ الأربع خلال الشتاء كله.

لقد كان سوء الطقس يؤخر انتهاء المبنى الجديد الذى يقع فى شارع "هنرى مارتين" Henri Martin، ويؤجل كذلك تنفيذ رغبات "شيرى" الذى يريد حمامًا أسود، وصالونًا على الطراز الصينى، أما فى باطن الأرض، فكان يريد إقامة حمام سباحة وقاعة چمنازيوم. وكان يرد على اعتراضات المهندس المعمارى قائلاً: «لا يهمنى أى شىء؛ فأنا أدفع، وأريد خدمة، ولا يهمنى الثمن».

ولكنه كان أحيانًا يتفحص التصميم بشدة، مؤكدًا أن أحدًا لا يمكنه أن يخدع ابن "بلوكس". وفى الواقع، كان "شيرى" يتناقش فى أسعار السلاسل الحديدية ومادة الفيبروسمنت[1] ومعجون الرخام الملون، وكان يفعل ذلك بسهولة غير متوقعة، كما أن لديه ذاكرة دقيقة للأرقام كانت تحظى باحترام المقاولين.

وكان "شيرى" لا يستشير امرأته الشابة كثيرًا، رغم أنه كان يستعرض نفسه أمامها، ويستعرض سلطته، وكان يهتم بإخفاء قلقه عند اللزوم عن طريق إعطاء أوامر مُختصرة، واكتشفت أنه لو كان يعرف

(١) الفيبروسمنت Fibro-Ciment : مادة للبناء مصنوعة من الأسمنت والأميانت .

بالغريزة كيف يلعب بالألوان لكان قد احتقر الأشكال الجميلة والأساليب المميزة.

وقال "شيرى" لـ "إدميه" :

«إنكِ تشغلين نفسك بمجموعة من الأقاصيص، وهو شيء ... هأ...هل هناك قرار يُتخذ بالنسبة لغرفة شيٍّ اللحوم والأسماك ؟ انظرى، توجد هناك واحدة : جدرانها زرقاء، وهى زُرقة واضحة، وهناك أيضًا بُساط بنفسجى، يتحدى الجدران الزرقاء، ولم أحدثك عما فى الداخل؛ فهناك الأسود والذهبى بالنسبة للأثاث والتحف».

– وقالت "إدميه" : « نعم، إنك على حق، يا "فِرِّد" لكن الأمر سيكون قاسيًا بالنسبة لهذه الألوان الجميلة؛ لأنه سينقص منها بعض الجمال، وبعض البهاء، والفازة البيضاء أو الزهرية أو التمثال ....».

– وقاطعها "شيرى" قائلاً ببرود : «لا؛ فبالنسبة للفازة البيضاء، فسأكون وأنا عريان محلها تمامًا، ولا تنسى الوسادة، أو شيئًا من الأشياء الخفية ، إذا كانت حمراء مُضلعة؛ لأننى سأتنزه بغرفة شيٍّ اللحوم والأسماك عاريًا».

وكانت "إدميه" الفاتنة والثائرة حقيقةً تجمع فى خيالها مثل هذه الصور التى تحول مسكن المستقبل إلى قصر به غموض، أو إلى معبد على شرف "شيرى"، ولكنها لم تُجهد نفسها، وألحَّت برقة على أن يوجد

"ركن صغير"، يوضع فيه أثاث بسيط وثمين، على أرضية بيضاء، يُقدم كهدية لـ "مارى لور" .

وقد أدت بها هذه الرقة التى كانت تخفى إرادة فتية ومتمرسة إلى أن تمكث لمدة أربعة أشهر عند حماتها، وأن تكتشف خلال هذه الفترة ما يُكاد لها بصفة مستمرة، وما يُدبر لها يوميًا لما تتحلى به من صفاء، ومرحها الذى لا يزال شديد التأثر، ودبلوماسيتها ، وزاد من حماس "شارلوت بلوكس" أنها قريبة من هذه الضحية شديدة الرقة، وأحيانًا كانت تفقد صوابها إلى حد ما ، وتكثر من السهام الموجهة إلى "إدميه" ، وتعض على أسنانها بمناسبة وغير مناسبة ...

وتساءلت "إدميه" فى نفسها قائلة : « إن "مدام بلوكس" ، تلقى بـ "شيرى" من وقت إلى آخر، بكل برود. من ستلتهميه فى الشتاء القادم إذا لم أوقفك عند حدك ؟»

ورمقت "إدميه" زوجها بعينيها اللتين كان يتأرجح فيهما الخوف والاعتراف بالجميل معًا، وكانت تحاول ألا تفكر كثيرًا، وألا تنظر كثيرًا إلى "مدام بلوكس" . وذات مساء، نطقت شارلوت ثلاث مرات اسم "ليا" بدلاً من اسم "إدميه"، كما لو كانت طائشة، وبصفة خاصة نطقته عند أزهار الأقحوان. وخفض "شيرى" حاجبيه الشيطانيين، وقال :

« يا سيدة "بلوكس" ، أعتقد أن ذاكرتك مضطربة؛ فهل يلزمك دواء للعُزلة ؟ »

وصـــمـتت "شـارلوت بلوكـس" لمدة أسـبـوع، ولكن "إدمـيـه" لم تجـرؤ أبداً على أن تسأل زوجها هذا السؤال : «هل غضبت من أجلى ؟ هل كنت تدافع عـنى ؟ ألم تكـن تلك هى المرأة الأخـرى التى كـانت قبلى ؟».

كانت طفولتها ومراهقتها قد علمتاها الصبر والأمل والصمت، وسهولة استخدام أسلحة المحبوسين وفضائلهم. ولم تقم "مارى لور الجميلة" بتوبيخ ابنتها أبداً، ولكن كانت تقتصر على معاقبتها، ولم توجه إليها أبداً كلمة قاسية، ولا كلمة حانية. كانت "إدميه" تعانى من الوحدة مـرة أخـرى ، ثم من المدرسـة الداخليـة، ثم من الوحـدة خـلال بعض الإجازات، ثم من الانعزال المتكرر فى غرفة جميلة، وأخيراً كانت تعانى من التـهـديد بالزواج، أى زواج، فـور أن تلاحـظ عين الأم بزوغ جـمـال آخر، جمـال لا ينبئ عن نفسه، كما لو كـان مضطهداً، بقـدر ما يكون مؤثراً ... وأمام هذه الأم العاجية والذهبية التى لا مشاعر عندها، كانت شراسة "شارلوت بلوكس" الدورية تبدو لها وكأنها ورود ...

وذات مساء، سألها "شيرى" قائلاً : «هل تخافين من أمى المُبجلة ؟»

ابتسمت "إدميه"، ومطّت شفتيها مُشمئزة، وقالت :

« خوف ! لا، إن المرء ينتفض بسبب باب يوصد بقوة، ولكنه لا يخاف. إن المرء يخاف من الثعبان الذى يمر من تحت...».

– وقالت "مدام بلوكس" : « إنه الثعبان الشهير، يا "مارى لور" ، أليس كذلك ؟».

– الشهير!»

وانتظر "شيرى" الإفضاء بسرٍ لم يحدث، وضم بذراعيه كتفى زوجته النحيفين، وكأنها زميلة له، وقال :

«ربما نكون نحن أشبه بالأيتام، أليس كذلك ؟

– وقالت "إدميه" : « نعم، نحن أشبه بالأيتام ! ولكننا ظرفاء جداً ! ».

واحتضنته "إدميه"؛ حيث كانا وحدهما فى الردهة. وبينما كان يقول "شيرى" ذلك كانت "مدام بلوكس" تُجهز مشروبات الغد الكحولية. وكان الليل البارد ينشر ظلامه من خلف النوافذ الزجاجية على الأثاث والمصابيح كما لو كان مستنقعًا. كانت "إدميه" تحس بفتور، وهى تسلم نفسها لذراعى هذا المجهول. ورفعت رأسها، وصاحت من رعشة البرد، وأدارت وجهها الرائع اليائس نحو الثريَّا، وهى تغلق عينيها على دمعتين محجوزتين ومتلألئتين بين جفونها ...

وقالت : « "شيرى"، "شيرى" ! ماذا بك ؟ »

وعلى الرغم من أنها كانت قد منحته هذا الاسم اللطيف جداً الذى لم تكن ترغب أبداً فى نطقه، فقد لبَّى "شيرى" النداء بشرود، وحوَّل نظره إليها، لكنها قالت :

« "شيرى » ! يا إلهى، إننى خائفة ... ماذا بك ؟».

وأبعدها قليلاً، ثم أمسكها بذراعيه فى مواجهته، وقال : «آه ! آه ! أيتها الصغيرة ... أيتها الصغيرة ... ماذا يُخيفُكِ إذن ؟ »

وسلَّم لها "شيرى" عينيه اللتين تشبهان القطيفة، واللتين زاد جمالهما بسقوط دمعة، وأصبحتا وديعتين متفتحتين بشدة، ولا يمكن حل لغزهما، وكانت "إدميه" على وشك أن ترجوه ليصمت عندما يتحدث قائلاً:

« إننا بُلهاء ! ... لأن فكرة أننا أيتام ... فكرة حمقاء، وهذا صحيح جداً ... ».

واستعاد "شيرى" مظهره ذا الأهمية المُضحكة، وتنفست "إدميه" الصعداء، وتأكدت أنه ربما لا يتحدث أكثر من ذلك. وعندما بدأ شيرى فى إطفاء الشمعدان بعناية، اتجه نحو "إدميه" بغرور ساذج جداً، وماكر جداً، قائلاً :

« انظرى، لماذا لا يكون لى قلب أنا أيضاً ؟! »

* * * *

الفصل الثامن

« ماذا تفعلين هناك ؟

على الرغم من أنه سألها بصوت شبه منخفض، فإن نبرة صوت "شيرى" وصلت إلى "إدميه" حتى إنها انحنت إلى الأمام كما لو كان قد دفعها. ووضعت يديها على بعض الأوراق المتناثرة، وهى واقفة بالقرب من مكتب مفتوح تمامًا. وقالت بصوت ناعم : «إننى أرتب ...».

ورفعت إحدى يديها التى توقفت فى الهواء كما لو كانت مُخدَّرة، ثم تظاهرت بأنها متنبهة، وتوقفت عن الكذب، ثم قالت :

«هكذا، يا "فِردّ" ... سبق أن قلت لى – بالنسبة للنقل إلى منزل المستقبل – إنك تخشى أن تنشغل بما تريد أن تحمله هذه الغرفة وهذا الأثاث ... ولقد أردت بحسن نية أن أرتب، وأن أختار ... ثم جاء السُّم والإغواء والأفكار السيئة ... أرجوك سامحنى؛ فقد لمست أشياء لا تخصنى».

كانت ترتجف بشجاعة ، وهى تترقب ... كانت تقف وجبهتها منحنية، ويداها مضمومتان فى وضع مهدد، لكن "شيرى" لم يبدُ عليه أنه يرى امرأته؛ إذ كانت نظرته محدودة إلى درجة أن امرأته – منذ هذه الساعة – احتفظت بذكرى حديث مع رجل كانت عيناه شاحبتين ...

وقال "شيرى" أخيراً : «آه ! نعم. لقد كنتِ تبحثين... لقد كنت تبحثين عن رسائل غرامية».

ولم تنكر "إدميه"، وقال لها مرة أخرى : «فقد كنتِ تبحثين عن رسائلى الغرامية !».

وضحك ضحكته الحمقاء المكتومة، واحمر وجه "إدميه"، وشعرت بأنها أُهينت، وقالت :

«إنك تجدنى ساذجة بالطبع، وأنتَ لست بالرجل الذى يحافظ على هذه الرسائل أو يحرقها، ثم – أخيراً – هذا الأمر لا يعنينى، وليس عندى سوى ما أستحقه؛ فهل تخفى فى نفسك حقداً بالنسبة لى، يا "فرد" ؟ ».

كانت توجه رجاءها ببعض الجهد، وتتعمد أن تكون لطيفة، وأن تكون شفتاها بارزتين، وأن تخفى أعلى وجهها فى الظلام شعراً متموجًا ، ولكن "شيرى" لم يغير موقفه، ولاحظ – للمرة الأولى – لون بشرته الطبيعى يشف مثل وردة بيضاء فى الشتاء، وأن استدارة خدَّيه قد قلَّت.

وكرر كلامه قائلاً : «خطابات غرامية ... هذا مُضحك» . وقام بخطوة ، وأخذ بقبضة يده أوراقًا وتصفحها، كانت عبارة عن بطاقات بريدية، وفواتير مطاعم، ورسائل من الموردين، وبرقيات من الصديقات الصغيرات اللاتى قابلهن فى إحدى الليالى، أو خطابات عاجلة – لأصدقاء شاركوه الطعام – من ثلاثة أو خمسة أسطر إلى جانب بعض الصفحات الصغيرة التى توجد فيها الكتابة المتقطعة لـ "مدام بلوكس" ...

والتفت "شيرى" إلى زوجته، وقال : « ليس عندى خطابات غرامية».

– فقالت محتجة : «آه ! ، لماذا تريد أن ....».

– وقاطعها قائلاً : «ليس عندى رسائل غرامية، ألا تفهمين؟! إننى لم ألاحظ شيئًا يتعلق بذلك؛ لأنه لا يمكن أن تكون لدى رسائل غرامية، بما أن ... ».

وتوقف، ثم قال :

« آه ! انتظرى، انتظرى. إننى أتذكر، ذات مرة لم أكن أريد أن أذهب إلى "بوربول" la Bour-boule، وعندئذ ...انتظرى، انتظرى...».

وفتح "شيرى" الأدراج، وألقى الأوراق بعصبية على السجاد، لكن "إدميه" قالت له :

« ألقها بقوة أكبر ! ماذا فعلت أنا بها ؟ أقسم أننى كنت أبحث فى أقصى اليسار ... لا ... ».

وأعاد "شيرى" غلق الأدراج الخالية بعنف، وركز نظره بشدة على "إدميه"، وقال :

«ألم تجدى شيئًا ؟ ربما لم تعثرى على رسالة تبدأ بما يلى : « لكن لا، إننى لا أتضايق. كان ينبغى دائمًا أن نفترق عن بعضنا ثمانية أيام فى الشهر، ثم يستمر ذلك، لكننى لا أعرف ماذا سيحدث بالنسبة لزهرة العسل التى تتسلق النافذة ... ».

ولم يصمت "شيرى" إلا لأن ذاكرته خانته، وقام بحركة عصبية. أما "إدميه" النحيفة الصلبة فلم تضعف أمامه.

وقالت باستفزاز : «لا، لا، لم آخذ شيئًا؛ فمنذ متى عندى القدرة لآخذ ؟ ربما تكون الرسالة التى تهتم بها كثيراً قد سقطت منك، وأن رسالة كهذه لا تجعلنى أحتاج إلى أن أسأل عما إذا كانت من "ليا" أم لا ! »

وعلى عكس ما كانت تنتظر "إدميه"، كان «شيرى» يرتجف بضعف، وارتسمت نصف ابتسامة على وجهه المقطب، ومالت رأسه إلى جانب، واتسعت عيناه، وانبسطت دائرة فمه الجميلة؛ لأنه ربما استمع إلى صدى اسم... وانفجرت كل قوى الحب التى لم تسيطر عليها "إدميه" فى صراخة وفى الدموع وفى حركات الأيدى الملتوية أو المتفتحة كى تخدش شخصًا ما، وقالت :

«اغرب عن وجهى ! فأنا أكرهك؛ لأنك لم تحبنى أبداً، ولا تهتم بى إلا إذا كنت غير موجودة ! إنك تجرحنى وتحتقرنى، إنك فظ، إنك ... إنك ... إنك لم تفكر إلا فى هذه المرأة العجوز ! إن أذواقك مريضة ومنحطة، و... ، و ... إنك لم تحبنى ! لماذا؟ وأنا أسأل نفسى، لماذا تزوجتنى ؟ ... إنك ... إنك ... »

وهزت رأسها كما لو كانت حيواناً يُسحب من رقبته، وأدارت مؤخرة رأسها لتستنشق الهواء وهى مختنقة، وكانت اللآلئ المتساوية اللامعة بنية اللون تتلألأ فى عقدها. وكان "شيرى" يتأمل بدهشة الحركات غير المنتظمة لهذه الرقبة الفاتنة المتموجة، كان ينصت إلى نداء اليدين اللتين تتشابكان إحداهما مع الأخرى، ويرى بصفة خاصة هذه الدموع، هذه الدموع ... ولم يسبق له أن رأى من قبل دموعاً بهذه الغزارة... فمن ذا الذى بكى أمامه من أجله ؟ لا أحد ... هل هى "مدام بلوكس" ،لكنه فكر برهة، ثم قال : «لكن دموع "مدام بلوكس" ليس لها اعتبار ... » . هل هى "ليا" ؟ ... لا.

ورجع إلى أعماق ذكرياته، ولم تكن هناك سوى عينين لونهما أزرق صافٍ، لم تلمعا إلا من السعادة والمكر والحنان الساخر إلى حد ما... إن هذه الشابة، التى تصارع نفسها أمامه، ذرفت كثيراً من الدموع ! فماذا تفعل لكل هذه الدموع الغزيرة ؟ كان لا يعرف شيئًا، وعلى الرغم من ذلك فقد مدّ ذراعه إليها، وكانت "إدميه" تتراجع ربما خوفًا من عنفه،

لكنه وضع يديه الجميلة الرقيقة التى تقطر عطراً على رأسها، وأخذ يداعب هذه الرأس المضطربة، محاولاً أن يقلد صوتًا وكلمات يعرف قوتها، وقال :

«عجبًا! ... عجبًا! ... ما هذا ... ما هذا إذن ... عجبًا! ... ».

وانهارت "إدميه" فجأة ، وسقطت على مقعد لتستجمع نفسها، وأخذت فى النحيب بشدة، وجنون يشبه الضحكة الهستيرية والاهتزاز من الفرح. كان جسدها الجميل المنحنى ينتفض بسبب الحزن وغيرة الحب والغضب، والمذلة التى لا تعرف نفسها. ومع ذلك كانت تشعر كأنها شديدة البلل فى مجال جديد، ومرير تمامًا، مثل المقاتل فى أوار المعركة، أو كمن يسبح فى قلب الموجة.

وبكت طويلاً، وحاولت أن تعود إلى نفسها ببطء، وعلى فترات هادئة تتخللها هزات كبيرة، وعوائق تثير الاضطراب. أما "شيرى" فكان جالسًا بالقرب منها، واستمر فى مداعبة شعرها، وكان قد تجاوز اللحظة، وتغلب على انفعاله الخاص، وكان يشعر بالضيق، ويجول بنظره إلى "إدميه" الجالسة على الأريكة الخشنة، وذلك لأنه لم يحب أن يكون هذا الجسد الممدود بالثوب الطويل والوشاح المنبسط سببًا فى زيادة الفوضى فى الغرفة.

ورغم أن "شيرى" كان يتنفس من الضيق بصوت منخفض، فإن "إدميه" قد سمعته، واعتدلت قائلة :

«نعم، لقد أتعبتك ... آه ! كان من الأفضل ...».

لكن "شيرى" قاطعها خشية سماع سيل من الكلمات، قائلاً :

« ليس الأمر كذلك، لكنى لا أعرف ماذا تريدين ».

وردت قائلة : «كيف ذلك، إن ما أريد ... كيف؟ إننى ... »

كانت تُظهر وجهها الذى أذكمته الدموع عندما قال لها "شيرى" :

«اتبعينى جيداً».

وأخذ بيديها، لكنها كانت تريد أن تتملص منه، وقالت له :

«لا، لا، إننى أعرف هذا الصوت ! وستجادلنى من العالم الآخر ! وعندما تتخذ هذا الصوت وهذا الشكل، فإننى أعرف أنك ستبرهن لى أن لك عيناً مثل عين سمك الطرستوج[1] ، وأن لك فماً على هيئة رقم ثلاثة مقلوب ! لا، لا، لا أريد !»

وكانت "إدميه" تعترض بشكل طفولى، وكان "شيرى" يرخى أعصابه عندما يشعر أنهما هما الاثنان شابان ، وهز يديه الدافئتين اللتين كان يحتجزهما، ثم قال :

(١) سمك طرستوج صخرى: سُلطات إبراهيم صخرى Surmulet

« لكن اسمعينى إذن ! يا إلهى، أريد أن أعرف ما الذى تعاتبيننى عليه ! هل أنا أخرج فى المساء بدونكِ ؟ لا ! هل أتركك معظم اليوم ؟ هل لى مراسلات سرية ؟».

– قالت "إدميه" : « لا أعرف .... لا أظن ... ».

وكان شيرى يُقبلها من وقت إلى آخر، مثل الدمية، وقال لها :

«هل لى غرفة مستقلة ؟ هل أنا لا أجامعكِ جيداً ؟ »

وترددت "إدميه"، وابتسمت برقة تثير الشك، ثم قالت :

«هل تسمى هذا جماعًا، يا "فرد"؟ ....».

– وقال "شيرى" : «توجد كلمات أخرى، ولكنكِ لا تُقدِّرينها».

– فردت قائلة :« إن ما تسميه جماعًا .... ألا يمكن أن يكون، بالضبط سوى ... نوع من ... ؟ حجه؟»

وأضافت بسرعة قائلة :

«إننى أعمم، يا "فرد" ، أتفهم ؟... إننى أقول، ربما، فى بعض الحالات ... »

وترك «شيرى» يد "إدميه"، وقال ببرود : «هكذا، إنها حماقة».

– وسألت "إدميه" بصوت منخفض : لماذا ؟ ».

صفَّر "شيرى"، وذقنه مرتفعة فى الهواء، مبتعداً بضع خطوات، ثم عاد إلى امرأته، وقاس طولها كما لو كانت غريبة عنه، وقال : «إن الحيوان المفزع ليس فى حاجة إلى القفز ليثير الرعب»، ورأت "إدميه" أن منخاريه قد انتفخا، وأن طرف أنفه قد ابيض.

وقال "شيرى" وهو ينظر إلى امرأته : «تبًا ! ... ». وهز كتفيه نصف دورة، ثم عاد إلى آخر الغرفة، وقال : «لماذا ؟».

وكرر قائلاً : «تبًا ! ... إن هذا يتكلم».

– وقالت "إدميه" : «كيف ؟».

– فقال : «إنه يتكلم ويقول ماذا ؟ إنه يسمح لنفسه، وكلمتى ... »

ونهضت "إدميه" بغضب، وصاحت قائلة :

« "فرد" ، لا تكرر هذه النغمة فى الكلام مرة أخرى ! فمن تظننى أكون ؟».

– فرد عليها قائلاً : «حمقاء، ألم أنل شرف قول ذلك لكِ ؟ »

ولمس كتفيها بخشونة، وتألمت من ضغطة قوية.

فقال لها "شيرى" : «إنكِ وأنتِ الحاصلة على البكالوريا، ألا يوجد هنا أحد... أو حكمة تقول أخيرًا ، لا تلمس حدَّ السكين أو السيف، أو أية آلة أخرى ؟» .

– وقالت "إدميه" بتلقائية : «لا تلمس الفأس ».

– فرد عليها قائلاً : «إنه كذلك. حسنًا، يا صغيرتى، لا ينبغى أن نلمس الفأس؛ أى لا ينبغى أن يُجرح الرجل... فيما هو عزيز عليه، إذا كنت أجرؤ على التعبير هكذا. لقد جرحتينى فى الهِبات التى أقدمها لكِ ... لقد جرحتينى فيما هو عزيز علىَّ».

وتلعثمت "إدميه" ، وقالت : «أنتَ ... إنك تتحدث كالعاهرة !»

واحمرَّ وجهها، وفقدت قوتها وهدوءها. كانت تكرهه ، وهو باهت اللون، يحتفظ بتفوقه الذى يكمن سره فى رأسه الثقيل، وانتصاب ساقيه، ورشاقة كتفيه وذراعيه ...

وتوغلت السبابة الخشنة من جديد فى كتف "إدميه" ، وقال "شيرى" :

«عفواً، عفواً، إننى سأذهلك عندما أؤكد لكِ أنكِ أنتِ على العكس التى تفكرين مثل العاهرة. وعند التقدير، لا يخطئ المرء ابن "بلوكس" Peloux ، فإننى أعرفه "كالعاهرة"، كما تقولين. لكننى أعرفه قليلاً..."فالعاهرة" هى سيدة ترتب أمورها بشكل عام لكى تأخذ أكثر مما تعطى، أتفهمين ؟ »

وبصفة خاصة، فهمت "إدميه" أن "شيرى" لم يعد يناديها بكلمة أنتِ؛ حيث قال :

«إن عمرك تسعة عشرعامًا ، وبشرتك بيضاء، وشعرك له رائحة الفانيليا، ثم تغلقين عينيك ، وتميلين ذراعيكِ فى السرير، وكل هذا جميل جدًا، لكن أليس ذلك نادرًا جدًا ؟ هل تعتقدين أنه نادر جدًا؟»

كانت ترتجف عند كل كلمة، وكانت كل أزمة نفسية تزيد الشجار بينهما.

وقالت بصوت حازم : « من الممكن أن يكون نادرًا، لكن كيف يمكنك أن تعرف ذلك ؟ »

لم يرد ، لكنها أسرعت لتحقق لنفسها ميزة، وقالت : «لقد رأيت فى إيطاليا رجالا أجمل منك. إنهم موجودون فى الشوارع. إن أعوامى التسعة عشر تساوى من هى بجانبك، ولكن الغلام الجميل يساوى غلامًا جميلاً آخر، اذهب، اذهب، وكل شىء يمكن إصلاحه... والزواج – فى الوقت الحالى – هو إجراء ليس له مقابل. وبدلاً من أن نتعب أنفسنا بمشاهد مضحكة ... ».

وأوقفها بإماءة من رأسه كأنه يسترحمها، وقال :

«آه ! يا طفلتى المسكينة ... إن الأمر ليس بهذه السهولة ... ».

– فأجابت قائلة : لماذا ؟ هناك أنواع من الطلَقات السريعة، إذا دُفع فيها الثمن » .

كانت تتحدث بشكل قاطع يثير التعب بوصفها مقيمة شاردة فى مدرسة داخلية. كان شعرها المرفوع أعلى جبهتها بشكل دائرى لطيفًا للغاية ، يحفه خدها الذى يجعل عينيها القلقتين أكثر سوادًا ودهاءً، كانت عيناها الذابلتان تشبهان عينىّ امرأة تعيسة، كما كانتا تبدوان كأنهما فى وجه حائر.

وقال "شيرى" : « ذلك لن يصلح شيئًا » .

– وردت "إدميه" قائلة : «لماذا ؟.

– ورد "شيرى" قائلاً : «لأن ...».

وأمال جبهته؛ حيث انقسم حاجباه إلى جانبين مدببين، وأغمض عينيه، ثم أعاد فتحهما كما لو كان قد ابتلع لتوه جرعةً مُرَّة، ثم قال :

«لأنكِ تحبيننى ...».

ولم تكترس بعودة ندائها بضمير المُخاطب المفرد "أنتِ"، ولا بنبرة الصوت الواضحة، وإن كانت مكتومة بعض الشىء، ولم تحفل بأصوات أفضل خلال الساعات الماضية، وقالت فى قرارة نفسها : «حقيقةً، أنا أحبه، ولا يوجد أى علاج فى هذه اللحظة ».

ودقَّ جرس العشاء فى الحديقة، وهو جرس صغير جدًا، يرجع تاريخه إلى ما قبل "مدام بلوكس" ، إنه جرس دار الأيتام فى الإقليم، وصوته حزين وواضح. واضطربت "إدميه" التى قالت :

« أوه ! إننى لا أحب هذا الجرس ....

وقال "شيرى" بشرود : نعم ؟!.

– فردت قائلة : «عندنا مَنْ يقومون بالإعلان عن العشاء بدلاً من قرع الأجراس ؛ إذ إننا لا نحتاج إلى مثل هذه الوسائل المُتبعة فى بنسيون العائلة، وسترى عندنا ... ».

كانت تتحدث وهى تسير – دون أن تلتفت – نحو الممر الأخضر الذى يُستخدم كمستشفى ، ولم ترَ خلفها ذلك الاهتمام البدائى الذى كان "شيرى" يعطيه لكلماتها الأخيرة، ولم ترَ كذلك ابتسامته الخافتة.

* * * *

الفصل التاسع

كان "شيرى" يسير بخفة، يزيد نشاطه ذلك الربيع الهادئ الذى كان الناس يحسون به سواء بسبب الهواء البارد المُتغير، أو الرائحة التى تفوح من الحدائق الصغيرة والمتنزهات. وذكَّره بعض الجليد – عند سقوطه من وقت إلى آخر – بأنه يحمل قبعة من اللباد المتلائم معها، وانحرفت على العين اليمنى قطعة من المعطف الخفيف، كما أنه كان يرتدى قفازين فاتحى اللون وسميكين ، ورباط عنق يشبه لون الصلصال. وكان ثناء النسوة الصامت يتبعه، كما أن أكثرهن صفاء كن يبدين له دهشتهن العابرة التى لا يستطعن التظاهر بها، أو إخفاءها، ولكن "شيرى" لا ينظر أبداً إلى النساء فى الشوارع. كان يغادر الفندق فى شارع "هنرى مارتان" Henri-Martin ، ويترك للمشرفين بضعة أوامر متناقضة يصدرها بلهجة السيد.

وفى نهاية الشارع، تنفس طويلاً ليشم رائحة النباتات التى كانت تأتى من الغابة، وتحملها رياح الغرب الشديدة المبللة بالماء، وأسرع "شيرى" الخطى نحو ميدان "بورت دوفين" La Port Dauphine . وخلال بضع دقائق وصل إلى أول شارع "بيچو" Bugeaud وتوقف تمامًا.

وللمرة الأولى منذ ستة شهور، كانت قدماه تطآن الطريق المعتاد، وفتح معطفه.

وقال لنفسه : «لقد مشيت طويلاً جداً»، ثم عاد أدراجه وتوقف أيضًا، ولكن فى هذه المرة تركزت نظرته على نقطة معينة ، على بُعد خمسين مترًا، لقد رأى رأسًا عاريًا، وحقيبة من جلد الشمواه، لقد كان الحارس "إرنست" Ernest، أى حارس "ليا" ، الذى كان ينظف الأوانى النحاسية بعد الشواء أمام فندق "ليا". وأخذ "شيرى" يُدندن وهو يمشى، ولكنه لاحظ من نبرة صوته أنه لا يستطيع الدندنة أبدًا، فصمت، قال للحارس : «حسنًا، يا "إرنست"، هل أنتَ دائمًا تعمل ؟».

وتهلل وجه الحارس بتحفظ، وقال :

« إننى سعيد برؤيتك، يا "سيد بلوكس" !Monsieur Peloux، إن سيدى لم يتغير».

– فأجابه "شيرى" : «وأنتَ أيضًا، يا "إرنست"، هل السيدة بخير ؟ ».

كان يتحدث وهو مائل بزاوية، ويوجه انتباهه إلى النوافذ المُغلقة فى الطابق الأول.

وقال الحارس : «إننى أظن، يا سيدى، أننا لم نتلقَ سوى بعض البطاقات البريدية».

– فسأله "شيرى" : «أعتقد أنها من "بياريز" Biarritz؟ هل هى من "بياريز" ؟».

– فأجاب الحارس قائلاً : «لا أعتقد، يا سيدى».

– وقال "شيرى" : «أين سيدتك ؟».

– فرد الحارس : «إننى فى حيرة من أن أقول لك إننا ننقل بريد السيدة إلى موثق عقودها – ثلاث مرات – ولم تتلقَ شيئًا حتى الآن».

وجذب "شيرى" حافظة أوراقه وهو ينظر إلى "إرنست" مداعبًا. ولكنه قال : «أوه، يا "سيد بلوكس" ، هل هناك نقود بيننا ؟ إنك لا ترضى ذلك؛ فإن ألف فرنك لا تستطيع أن تجعل رجلاً لا يعرف هذه الفرنكات أن يتكلم. هل يريد سيدى توجيه هذه النقود إلى موثق عقود السيدة ؟ ».

– فرد "شيرى" قائلاً دون كُلفة : « لا، شكرًا، متى ستعود السيدة ؟ ».

وفتح "إرنست" ذراعيه، ثم قال :

« هذا سؤال ليس من اختصاصى ! ربما غدًا، ربما خلال شهر... إننى أقوم بأعمال الصيانة، كما ترى. ومع سيدتى، يجب أن ألزم الحذر. وربما ستقول لى :«إنها هناك «تتجول فى ركن من الشارع، ولن أكون مندهشًا من ذلك».

واستدار "شيرى"، ونظر إلى ركن من الشارع، ولكن الحارس قال له :

«هل "السيد بلوكس" يريد شيئًا آخر ؟ هل مر بنا سيدى وهو يتنزه ؟ إنه ليوم جميل ....».

– وقال "شيرى" : «لا، شكرًا، يا "إرنست"، إلى اللقاء ».

– وأجاب "إرنست" : «إننى المخلص لك دائمًا يا "سيد بلوكس"».

وسار "شيرى" حتى ميدان "فيكتور هيجو" Victor-Hugo، وهو يلعب بعصاه، وتعثر مرتين ، وكاد يقع تمامًا مثل الناس الذين يعتقدون أنهم ينظرون خلفهم. وعندما وصل إلى المتراس الرخامى للمترو، وضع يده عليه، وجلس فى الظل الأسود والوردى للنفق، وشعر بأنه منهك من التعب. وعندما استجمع قواه، رأى أن البعض يقوم بإشعال مصابيح الغاز فى الميدان، وأن الليل جعل كل الأشياء زرقاء.

وقال لنفسه : « لا، هل ذلك ممكن ؟ ... إننى مريض ! »

كان قد وصل إلى نهاية حلم يقظة مُبهم ، وأخذ يسترد عافيته بصعوبة. لقد حضرته الكلمات اللازمة فى نهاية الأمر.

وقال لنفسه : «هيا بنا، هيا بنا، يا إلهى الطيب ... يابن بلوكس ، هل تبعد عنى صديقى الحميم ؟ ألا تشك أن الوقت قد حان للرجوع إليه ؟ ».

وذكَّرته هذه الكلمة الأخيرة بطيف خيال انمحى فى ساعة واحدة، ويتمثل فى : الغرفة المُربعة، وغرفة الطفل "شيرى" الكبيرة، وبالمرأة الشابة القلقة الواقفة أمام الواجهة الزجاجية، و"شارلوت بلوكس" التى تنعشها زجاجة شراب "مارتينى" Martini[1] فاتحة للشهية ...

وقال "شيرى" بصوت مرتفع : «آه ! لا، لا ... لقد انقضى ذلك».

وأوقفت حركة من عصاه المرتفعة سيارة أجرة، وقال للسائق :

«إلى المطعم ... ها ... إلى مطعم "دراجون بلو" Dragon Bleu».

واجتاز غرفة الشواء على أنغام الكمان، وكانت الإضاءة الكهربائية للغرفة تبدو له قوية جداً. وتعرف عليه المتردوتيل ، وصافحه "شيرى"، وكان هناك أمامه شاب نحيف طويل القامة ، نهض، "وتنهد شيرى برقة، ثم قال :

«آه ! "ديزمو" Desmond ! لقد كنت أرغب كثيراً فى رؤيتك ! فكيف حالك؟!»

---

(١) مارتينى Martini : نوع من البيرة فرنسى الصنع .

كانت المنضدة التى جلسا عليها مزدانة بزهور القرنفل الوردية، وكانت هناك يد صغيرة وبلشون[1] أبيض كبير يتحركان نحو "شيرى" من منضدة مجاورة .

وقال "الفيكونت ديزمو" : «إنها "لوبيوت" Loupiote»،

ولم يكن "شيرى" يتذكر "لوبيوت"، ولكنه ابتسم لطائر البلشون الأبيض، ولمس اليد الصغيرة دون أن ينهض بطرف مروحة للدعاية، ثم نظر بجدية - تشبه جدية المنتصر - إلى اثنين غير معروفين له؛ لأن المرأة كانت قد نسيت أن تأكل منذ أن جلس "شيرى" غير بعيد عنها.

وقال "ديزمو" : «هذا الشخص له رأس ديوس، أليس كذلك ؟ »

ولكى ينطق بهذه الكلمات، مال على أذن صديقه "شيرى"، ولمعت نظرته من الفرح كما لو كان هناك قميص من الدموع.

وسأل "ديزمو" "شيرى" قائلاً : « ماذا تشرب منذ أن تزوجت ؟ هل تشرب البابونج[2] ؟».

---

(١) بلشون Aigrette : طائر أبيض اللون .

(٢) البابونج La Camomille : نبات عشبى برى عديد المنافع ، ويساعد على الهضم، ويُذهب السعال الخفيف .

– وقال "شيرى" : «إننى أشرب شراب التفاح».

– وماذا تشرب قبل شراب التفاح ؟

– فرد "شيرى" قائلاً : «إننى أشربه قبل الأكل وبعده».

ثم استعاد فى ذاكرته – وهو يفتح منخاريه – صوت فرقعة زجاجة الشمبانيا المُعتقة ذات الرائحة الوردية التى يرجع تاريخها إلى عام ألف وثمانية وتسعة وثمانين ، والتى كانت "ليا" تحتفظ بها له وحده ...

وطلب "شيرى" عشاءً مثل الذى تطلبه صانعة القبعات المتحررة، وهو عبارة عن سمك بارد بخمر البورتو[١] ، وعصافير مشوية، وإناء ساخن يخفى بداخله جعة[٢]حامضية حمراء ...

وصاحت "لوبيوت" قائلة : «يا هذا، هأ »، وهى تحرك فى اتجاه "شيرى" زهرة البنفسج الوردية اللون.

– وأجابها "شيرى" قائلاً : « يا هذه، هأ» ، وهو يرفع كأسه.

ودقت ساعة الحائط الخاصة بإحدى الشركات الإنجليزية الساعة الثامنة.

---

(١) بورتو Le Porto : خمر مشهورة فى البرتغال.

(٢) جعة أو نفيخة Un Soufflé : طعام يُخبز منفوخًا لوضع البيض داخله .

«أوه ! إنها الساعة، قالها "شيرى" بتذمر، أجرِ لى مكالمة تليفونية، يا "ديزمو"».

وانتظرت عينا "ديزمو" الشاحبتان إيضاحات من "شيرى"؛ فقال له "شيرى" : «اطلب "فجرام" ١٧٠٨، واطلب والدتى، وقل لها إننا نتعشى معًا».

– فقال "ديزمو": «إذا كانت "مدام بلوكس" الصغيرة هى التى ترد على فى التليفون؛ فماذا أقول ؟».

– قل لها الشىء نفسه؛ فأنا الآن حر جدًا كما ترى، وأعلنت حريتى.

لقد شرب وأكل كثيرًا، وكان يهتم بأن يبدو جادًا وضجرًا، ولكن أقل قهقهةً، وأقل صوتًا لكسر كأس، وموسيقى الفالس الهادئة، كل ذلك كان يبعث سروره، وكان اللون الأزرق للجدران الخشبية اللامعة يعيده إلى ذكريات الريفيرا، وإلى الساعات التى يكون فيها البحر أسود من شدة الزرقة عند الظهيرة بسبب ضوء الشمس المتجانس، ونسى "شيرى" بروده المعتاد بوصفه رجلاً جميلاً جدًا، وشرع "شيرى" فى عدم الاهتمام بالسيدة القمحية اللون الموجودة فى مواجهته، والتى كانت تلقى إليه بنظرات مثل تلك التى تلقيها بنات الهوى، وذلك رغم أنها كانت تشعر بالاضطراب من جرائها.

وفجأة سأله "ديزمو" قائلاً : « ماذا عن "ليا" ؟ »

ولم يضطرب "شيرى"؛ فقد كان يفكر فى "ليا".

وقال "لديزمو" : "ليا" ؟ إنها فى الجنوب.

– ورد "ديزمو" قائلاً : هل انتهى الأمر معها ؟

ووضع "شيرى" إبهامه عند فتحة صدريته، ثم قال : «أوه ! بالطبع، وأنتَ تفهم ذلك. لقد تركنا بعضنا بطريقة مهذبة جداً، ونحن أصدقاء ممتازون، ولم يكن لعلاقتنا أن تستمر مدى الحياة. إنها امرأة فاتنة، وذكية، إنها ... وفضلاً عن ذلك، فإنك عرفتها ! واسعة الأفق ... لقد كانت مرموقة جداً، ولكنى أعترف لك، يا عزيزى، أنه لولا فارق السن،... أليس كذلك ....

– قاطعه "ديزمو" قائلاً : « بالطبع ».

وكان هذا الرجل ذو العينين الشاحبتين – الذى كان يعرف جيداً عمله كمتطفل – قد استجاب للفضول، وعنّف نفسه على ذلك، كما لو كان لم يلزم الحذر فى هذا الفضول. ولكن "شيرى"، الواعى المسرور، لم يتوقف عن الحديث عن "ليا". وقال أشياء منطقية، يشوبها الإحساس الطيب بالزوجية، وامتدح الزواج، ولكن مع الاعتراف بفضائل "ليا". وأشاد برقة خضوع زوجته الشابة؛ كى يجد الفرصة لينتقد الطبيعة الحازمة لليا : «آه ! يالها من شخصية، إننى أضمن لك أن تلك المرأة

كانت لديها أفكارها الخاصة !» ، وسار فى الاعترافات إلى أقصى حد، وذهب فى حديثه عن "ليا" إلى حد القسوة، بل إلى حد الوقاحة، وكان يتذوق – أثناء حديثه ، محتميًا خلف كلمات حمقاء أوصى بها إليه وضعه كعشيق مضطهد – السعادة الخاصة فى الحديث عنها دون خطر. وأكثر من ذلك، فقد كان يمكنه الإساءة إليها عندما أظهر ذكراها فى قلبه، ونطق اسمها الرقيق السهل الذى حرم نفسه منه منذ ستة أشهر، وعندما أبان صورة "ليا" التى تستحق الرحمة، وهى تميل عليه، وقد ظهرت فيها تجعيدتان خطيرتان أو ثلاث، لا يمكن إصلاحها، وبرز جمالها، وقد شرد ذهنها من أجله. ولكن، عجبًا ! إن صورتها حاضرة جدًا ...

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة نهضا للرحيل، وقد أصابهما البرود بسبب فراغ المطعم تقريبًا. ومع ذلك، وفى المنضدة المجاورة، كانت "لوبيوت" تنشغل بمراسلتها، وتطلب خمرًا رديئًا. ورفعت وجهها الوديع – الذى يشبه وجه الخروف الأشقر – نحو الصديقين عندما مرّا من أمامها، وقالت لهما : « حسنًا ألا تقولان لى مساء الخير؟».

– وردّ "شيرى" : «مساء الخير».

ولكى تُعبر "لوبيوت" عن إعجابها بـ «شيرى»، استعانت بشهادة صديقتها قائلة :

«هل تعتقدين، إذن ! وتظنين أن به كثيراً من الحلاوة ؟! إن هناك أشخاصاً لديهم كل شيء».

ولكن "شيرى" لم يقدم لها إلا علبة سجائره المفتوحة، ولكنها كانت تشبه القطة عندما قالت له :

«إن الأشخاص لديهم كل شيء، إلا الوسيلة التى يستخدمون بها هذه الأشياء ... ، وقالت له عُد إلى أمك، يا حبيبى.....».

– وقال "شيرى" لـ "ديزمو" : بالضبط، وذلك عندما وصلوا إلى الشارع. بالضبط، كنت أريد أن أطلب منك، يا "ديزمو"...، انتظر حتى نخرج من هذا الطريق الذى نسير فيه.....»

وكانت الأمسية الرقيقة والرطبة تؤخر من يتنزهون، ولكن الشارع الرئيسى الذى يعقب شارع "كومارتن" Caumartin كان سيعجُّ برواد المسارح، وتأبط "شيرى" ذراع صديقه، وقال : « هكذا، يا "ديزمو"، إننى أود أن تعود إلى التليفون ».

وتوقف "ديزمو" قائلاً : « مرة أخرى ؟».

– أطلب "ڤجرام" ...

– ١٧٠٨ .

– قال "شيرى" : «أنا أحبك كثيراً. قُل إننى مريض عندك ... أين تُقيم ؟ ».

– قال "ديزمو": فى فندق "موريس".

– جميل ... إننى سأعود صباح غد، وستعد لى شراب النعناع ... اذهب أيها العجوز، وخذ هذا، وأعطه لعامل التليفون الصغير، أو احتفظ به لنفسك ... عد سريعًا، وسأنتظر فى شرفة "ويبر" Weber .

ورحل الشاب الطويل الخدوم الطيب، وهو يتحسس أوراق النقد التى فى جيبه ، ودون أن يسمح لنفسه بأية ملاحظة، وجد "شيرى" مرة أخرى وهو منكفئ على عصير البرتقال الذى لم يمسّه، والذى كان يبدو أنه يقرأ مصيره فيه. وقال لـ "ديزمو" بعد أن رجع :

«"ديزمو" ! .... من رد عليك فى التليفون ؟».

– إنها سيدة، كما قال مبلغ الرسالة باختصار.

– من هى ؟

– لا أعلم.

– ماذا قالت ؟

– إن كل شىء على مايرام.

– بأية لهجة ؟

– إنها اللهجة التى أكررها لك.

– آه ! حسنًا ، شكرًا.

وظن "شيرى" أنها "إدميه"، وسارا نحو ميدان "الكونكورد"، وأعاد "شيرى" تأبط ذراع "ديزمو" ، ولم يجرؤ على أن يعترف له بأنه متعب.

وسأله "ديزمو" قائلاً : «أين تريد أن تذهب ؟».

– وتنهد "شيرى" قائلاً – بكل عرفان : «آه ! يا عزيزى، إلى فندق "موريس" Morris فورًا؛ فإننى مهموم ».

ونسى "ديزمو" برودة حسه، وقال :

« كيف؟ أهذا حقيقى ؟ هل ستذهب إلى فندق "موريس" ؟ ماذا تريد أن تصنع ؟ لا مداعبة فى ذلك، هأ ؟ أتريد ... »

– فأجاب "شيرى" قائلاً : «أريد النوم، ثم أغلق العينين كما لو كان على وشك السقوط، ثم أعاد فتحهما، وقال : أريد أن أنام، أنام، مفهوم ؟».

وأمسك ذراع صديقه بشدة.

فقال "ديزمو" : «هيا بنا».

وخلال عشر دقائق، كانا فى فندق "موريس" ، ودخل "شيرى" إلى غرفة النوم ذات اللون الأزرق السماوى والعاجى، وكان الصالون الصغير وهذه الغرفة يبتسمان له كما لو كانا صديقين قديمين ،

واغتسل "شيرى"، واستعار من "ديزمو" قميصًا ضيقًا جدًا من الحرير، ثم نام، واندس بين وسادتين ضخمتين ناعمتين، واستغرق - بدون أحلام - فى نوم عميق كان يحيـــط به من جميـــع الجهات ....

* * * *

الفصل العاشر

انقضت أيام مخزية، كان يعدها يومًا يومًا : «ستة عشر ... سبعة عشر.... وبعد ثلاثة أسابيع، هأنا أعود إلى "نيوى". لم يعد، ولكنه كان يحسب بوضوح الموقف الذى لم يكن لديه القوة لعلاجه. وأحيانًا، كان يمنى نفسه – ليلاً أو صباحًا – بأن ضعفه سوف ينتهى خلال بضع ساعات. «هل لم تعد لديه القوة ؟ عفوًا، عفوًا... لم توجد القوة بعد، ولكنها ستعود. وعند الظهر تمامًا، علامَ أراهن، بأننى سأكون فى قاعة الطعام فى شارع "إنكرمان" Inkermann؟ هل فى الواحدة، أم فى الثانية، أم...» نجده عند الظهر تمامًا فى الحمام، أو مستقلاً سيارته وبجواره "ديزمو" .

كانت ساعة تناول الوجبات تعطيه لحظة من التفاؤل الزوجى، كانت لحظة دقيقة كما لو كانت هجومًا محمومًا. وعندما جلس إلى المنضدة كأعزب فى مواجهة "ديزمو" ، كان يرى "إدميه" ماثلة أمامه، وكان يفكر – صامتًا – فى اهتمام زوجته العجيب :

«إن هذه الصغيرة ظريفة جدًا؛ فهل رأينا حب امرأة مثلها ؟ لا كلمة، لا شكوى ! سأطوق عنقها بواحد من هذه العقود، عندما

أعود... آه ! إنها التربية... حدثني عن "مارى لور" فى شأن تربية الفتاة ! ». ولكن ذات يوم، وفى غرفة الشواء فى فندق "موريس" ، كان ظهور ثوب أخضر ذى ياقة من فرو الشنشيلة[1] يشبه ثوب "إدميه" قد رسم على وجه "شيرى" كل علامات الفزع الشديد.

كان "ديزمو" يجد الحياة جميلة ومليئة بالنعم إلى حدٍ ما، ولم يكن يحتفظ بوقاحته إلا للساعات التى يأمل فيها "شيرى" بزيارة امرأة إنجليزية لطختها الرذائل، أو عندما يزور أميراً هندياً بقصره الذى يدخن فيه الأفيون، كان "ديزمو" يرفض بكلمات قاطعة أو يوافق بازدراء واضح. لم يعد "ديزمو" يفهم شيئًا عن "شيرى"، ولكن "شيرى" كان يدفع أفضل مما كان يدفع فى أيام المراهقة. وذات ليلة عثروا على الشقراء "لوبيوت" عند صديقتها التى كانا ينسيان دائمًا اسمها غير الواضح :

«هذا أمر ... أنت تعرفه جيداً ... إنها رفيقة "لوبيوت" ... ».

كانت الرفيقة تدخن ، وتمنح غيرها الدخان. أما الدور فوق الأرضى المتواضع فكان مليئًا بالزهور، بداية من المدخل، ومفتاح الغاز

(١) الشنشيلة Chinchilla : جنس من الحيوانات التى تُصطاد لفرائها .

غير محكم القفل، والشراب كان بارداً، وكانت تُحدث ببشاشتها المُبكية إثارة مستمرة نحو الشعور بالحزن، وكل ذلك غير مقصود. وقد عومل "ديزمو" عندها كما لو كان «غلاماً كبيراً فاقد الأمل». أما "شيرى" فكان يمثل «جمالاً شاملاً كان يجعله أكثر تعاسة» ، وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يدخن، ونظر إلى صندوق الكوكايين باحتقار مثل قط يراد تنظيفه، وظل طوال اليوم جالساً على الحصير، وظهره مسند إلى الحائط السفلى، بين "ديزمو" النائم والرفيقة التى لم تتوقف عن التدخين. وتمنى طول الليل – بالحكمة والحذر – أن يشم رائحة تطفئ الجوع والعطش، وبدا سعيداً تماماً، إلا عندما نظر – فى كثير من الأحيان وببعض التدقيق والتساؤل – إلى الرقبة الذابلة للرفيقة، وكانت رقبة حمراء، كثيرة الحبوب، يلمع فيها عقد من اللؤلؤ الصناعى.

للحظة، مدَّ "شيرى" يده، وداعب بطرف أصابعه الشعر المخضَّب بالحناء ، والمنسدل خلف رأس الرفيقة، ولمس الجواهر الضخمة والمفرغة والخفيفة، ثم سحب يده مع رعشة عصبية لأحد الأشخاص الذى أنشب أظافره فى حرير ممزق، وبعد بُرهة قام ورحل.

سأل "ديزمو" "شيرى" قائلاً : «ألم تخالط بما فيه الكفاية عُلب الليل التى يأكل فيها الناس ويشربون، دون أن يكون بها نساء، أو هذا الفندق الذى تغلق فيه الأبواب بعنف ؟ وماذا عن عُلب الليل التى تذهب إليها فى المساء، وتتجول بستين حصاناً من باريس إلى "روان" Rouen، ومن باريس إلى "كومبينى" Compiègne، ومن باريس إلى "ڤيل

دفـارى" Ville-d'Avray .... ألا تحـدثنى عن الريفيـرا؟! نحن لسنا فى ديسمبر أو فى يناير، إننا فى الفصل المعتدل، إنه مارس، إنه أبريل، إنه ... ».

– وقال "شيرى" : «"لا" ».

– ورد "ديزمو" قائلاً : «وماذا بعد ؟ ».

وترقق "شيرى" بتكلف ، واتخذ الشكل الذى كانت تسميه "ليا" فيما مضى «مظهر المحب المتنور».

ثم قال "ديزمو" : «يا عزيزى ، إنك لم تفهم جمال باريـس فى هذا الفصل ... إنه ... هذه الحيرة، وهذا الربيع الذى لا يمكن أن يـزدهر، وهـذا الضـوء الرقـيق ، بيـنما ابتذال الريفيرا ... لا، هـأنت ترى أننى سعيد هنا».

وأوشك صبر "ديزمو" أن ينفد مثل نفاد صبر الخادم، ولكنه قال :

«نعم، ربما يحدث طلاق من "بلوكس الابن" Peloux fils .... »

وابيض منخـارا "شيـرى" الحـساسين، وقـال : «لـو أن لك صلـة بأحـد المحامين، فلا تشجـعه على الفور؛ إذ لا يوجد طلاق من جـانب "بلوكس الابن" ...».

واحتج "ديزمو" الذى حاول أن يبدو كأنه مجروح، وقال : «يا عزيزى !.... إن لك طريقة فريدة فى الرد على صداقتنا منذ الطفولة، والتى تكون فى جميع المناسبات ... ».

ولم يكن "شيرى" يسمع، بل كان يوجه ذقنه النحيفة نحو "ديزمو" ، وفمه الذى أطبقه مثل فم البخيل؛ فللمرة الأولى يسمع أجنبيًا يتصرف فى شأنه.

كان "شيرى" يفكر، ويتساءل قائلاً : «ماذا عن طلاق "بلوكس الابن" ؟»، كان قد فكر فى هذا الأمر ساعات كثيرة من النهار والليل، ولكن هذه الكلمات تمثل عندئذ الحرية، واستعادة مرحلة الطفولة، وربما ما هو أفضل من ذلك... ولكن الصوت الذى اخنف عن قصد، والذى أصدره الڤيكونت "ديزمو" قد أثار صورة لابد منها : هى صورة "إدميه" التى تغادر بيت "نيوى" مصممة على شىء تحت قبعتها الصغيرة التى تركب بها السيارة وتحت حجابها الطويل، متجهة نحو منزل يعيش فيه رجل غير معروف. وقال "شيرى" البوهيمى : «بالطبع، إن هذا يحل كل شىء». ولكن، فى الوقت نفسه، كان هناك "شيرى" آخر يشعر بالفزع والتمرد؛ إذ يقول لنفسه : «ليست تلك أمور نفعلها !»

وتحددت الصورة، وظهر لونها وحركتها، وسمع "شيرى" صوت البوابة الخشن والرتيب، ورأى فيها، من ناحية أخرى، جوهرة رمادية، وقطعة من الماس الأبيض على يد عارية، وكأنها كانت تقول له : « الوداع ... ».

ونهض "شيرى" وهو يرفع مقعده، وقال : «هذا كله لى، المرأة والمنزل والخواتم، كل ذلك لى !» .

لم يتحدث "شيرى" بصوت عالٍ، ولكن وجهه كان يفصح عن عنف بربرى اعتقد معه "ديزمو" أن الساعة الأخيرة لرفاهيته قد دنت، ولكن "شيرى" ترفق دون طيبة قائلاً :

«يا ميمى المسكينة، هل أنتِ مصابة بالكبد ؟ آه ! أين أيام نبلاء الصيف القديمة ؟ أقبلى، وسأعطى لكى سراويل صغيرة مماثلة لقمصانى، وقمصاناً مماثلة لسراويلك. هل نحن فى يوم السابع عشر، يا "ديزمو" ؟».

– نعم، لماذا ؟

– قال "شيرى" : «إننا فى السابع عشر من مارس، وهذا يعنى الربيع، يا "ديزمو" ، ويعنى أيضًا أناقة الناس، ولكن أولئك الناس يتميزون بالأناقة – نساءً أو رجالاً – ألا يمكنهم الانتظار وقتًا أطول قبل أن يلبسوا ثياب الفصل القادم؟».

– قال "ديزمو" : «بصعوبة ...».

– ورد "شيرى" قائلاً : «من اليوم السابع عشر، يا "ديزمو" ! أقبل يا "ديزمو"، كل شىء على ما يرام. سأشترى أسورة ضخمة لامرأتى، ومبسم سيجارة ضخمًا "لمدام بلوكس" ، ودبوسًا صغيرًا جدًا لك ! ».

وشعر - مرتين أو ثلاث ، بإحساس مستقبلى كبير - أن "ليا" ستعود، بل إنها قد عادت بالفعل منذ فترة قصيرة، وإن نوافذ الطابق الأول قد فُتحت؛ حيث نرى منها الوردة المزدهرة أسفل النوافذ، وكذلك مجموعة الستائر الكبيرة، ولون المرايا الذهبى ... وانقضى يوم الخامس عشر من أبريل، ولم تعد "ليا"، ومرت أحداث أزعجت سير حياة "شيرى" الكئيب، وجاءت زيارة "مدام بلوكس"، التى اعتقدت أنها ستفقد الحياة أمام "شيرى" المتمدد مثل كلب الصيد ذى الفم المقطَّب والعين المتحركة. كانت توجد رسالة "إدميه"، وهى رسالة شديدة التركيب، مثيرة، كانت تقول فيها إنها ربما تُقيم فى "نيوى" حتى إشعار آخر، وإنها تبلغ "شيرى" «أفضل تحيات "مدام دى لابرش" ...

اعتقد "شيرى" أن الآخرين يسخرون منه، ولم يعرف كيف يرد، وانتهى به الأمر إلى إلقاء هذه الرسالة غير المفهومة، ولكنه لم يذهب إلى "نيوى". وبقدر ما كان شهر أبريل أخضر بارداً مزدهراً بزهور الباولونيا Pawlonias والخزامى[1] ، والياقوتية[2] فى مجموعات وعناقيد تعطر باريس، كان "شيرى" ينخرط وحيداً فى ظلام دامس.

---

(١) خزامى Tulipes : جنس زهر مُثمر بشكل الخزام من الفصيلة الزنبقية.

(٢) ياقوتية Jacinthes : زهرة جميلة من الفصيلة الزنبقية .

أما "ديزمو" الذى أُسيئت معاملته، وأُنهكت قواه، والذى شعر بالاستياء، وإن كان قد عُوض عن كل ذلك؛ فقد كانت مهمته تارة أن يدافع عن "شيرى" ضد النساء الشابات اللاتى تعود عليهن والفتيان غير المؤتمنين، وتارة أخرى كان على "ديزمو" أن يجلبهم كى يكوِّنوا مجموعة كانت تأكل وتشرب وتنتقل بين منطقة "مونمارتر" Monmartre، ومطاعم "الغابة" Bois ، وحانات الشاطئ الشمالى.

وذات ليلة، رأت فتاة الهوى - التى كانت تدخن وحدها وتتباكى فى ذلك المساء على عدم إخلاص صديقتها "لوبيوت" - هذا الشاب ذا الحواجب الشيطانية التى تنسال على خده عندما يدخل عليها ، كان يطلب ماءً باردًا جدًا؛ ليرطب به فمه الجاف الذى كانت تجففه حدته الخاصة. ولم يظهر أى اهتمام بما تعانيه فتاة الهوى حينما قصَّت عليه آلامها، وهى تدفع نحو "شيرى" صينية البرنيق الصينى والغليون، ولكن "شيرى" لم يقبل منها سوى جزء من ضفائرها فى مكان صامت وشبه مُعتم، واستمر هناك حتى الصباح دون أن يتحرك كثيرًا كما لو كان خائفًا، ولو تحرك فإنه بذلك يوقظ جرحًا معنويًا فيه. وعند شروق الشمس سأل فتاة الهوى : «لماذا لا تريدين عقد اللؤلؤ ؟ [1] أتعلمين قيمة هذا العقد الضخم ؟» ، ثم رحل بكل ود.

---

(١) عُقد اللؤلؤ صناعى .

وسار فى الليل، كعادته، دون رفيق، واقتادته خطوته السريعة الطويلة نحو هدف محدد وصعب. كان يهرب - بعد أن انتصف الليل - إلى "ديزمو"، ووجده - عند الفجر - فوق سرير داخل الفندق، نائمًا على بطنه، وواضعًا رأسه بين ذراعيه المنثنيتين مثل الطفل الغاضب.

وقال "ديزمو" لنفسه بارتياح : «آه ! حسنًا، إنه هنا. إننا لا نعرف أبدًا ...، ماذا يريد مثل هذا الشخص؟»

وذات ليلة ، بينما كان "شيرى" سائرًا على هذا النحو، وعيناه الكبيرتان مفتوحتان فى الظلام، وصل إلى شارع "بيجو"؛ لأنه بعد أن انقضى اليوم لم يستجب للرغبة التى تدفعه إلى ذلك الشارع ثمانٍ وأربعين ساعة كل ثمان وأربعين ساعة.

ومثل المهوسين الذين لا يمكنهم أن يناموا دون أن يضغطوا ثلاث مرات على ذلك الباب، كان يتحسس السور، ويضع إبهامه على ذر الجرس، وكان ينادى بصوت منخفض، وبلهجة هازلة، قائلاً : «هيه هأ ! ...» ، ثم يعود أدراجه.

وذات ليلة - أى فى تلك الليلة - وأمام السور، أحس بغصة كبيرة فى حلقه كانت تدق قلبه ، كانت الدائرة الكهربائية للفناء تلمع كقمر بنفسجى فوق المدخل، وكان باب الدخول المفتوح على مصراعيه ينير البلاط فى الدور الأول، ومغاليق النوافذ تسرب الضوء ، وترسم

مشطًا ذهبيًا من الضوء، واستدار "شيرى" إلى أقرب شجرة ، وخفض رأسه، وقال : «ليس ذلك حقيقيًا، سأرفع العينين ، وسيكون كل شيء أسود» .

وعلى رنة صوت "إرنست"، حارس العقار، اعتدل "شيرى"، وكان الحارس يصيح فى الردهة قائلاً :

«الساعة التاسعة من صباح الغد سأقوم، يا سيدتى، بحمل الحقيبة الكبيرة السوداء مع "مارسيل" Marcel !»

والتفت "شيرى" فجأة، وجرى حتى شارع "الغابة" حيث جلس.

وكانت الدائرة الكهربائية التى كان ينظر إليها تتراءى أمامه، شديدة الاحمرار، ومحاطة بالذهب، الذى يبدو فى سواد الكتل الضخمة الرفيعة. ووضع يده على قلبه، وتنفس بعمق. وعند الليل كان يتنفس عبق زهور الليلك[1] Les Lilas . وترك نفسه ليسند ظهره إلى مسند المقعد، ومد ساقيه، ونزلت يداه المنتفختان باسترخاء، وكأنما قد سقط عليه ثقل كبير ولذيذ.

---

(١) زهور الليلك : جنس نبات من الفصيلة الزيتونية، تُزرع للتزين، وتكون مُعطرة.

وقال بصوت منخفض : « آه، هل هى السعادة ؟ ... لم أكن أعرف ... »

كان لديه الوقت ليشفق ويزدرى، كل ما لم يتذوقه فى حياته التعسة كشاب غنى له قلب صغير، ثم توقف عن التفكير للحظة أو لساعة، واستطاع أن يعتقد بعد ذلك، أنه لم يعد يرغب فى شىء فى العالم، حتى ولو كان الذهاب إلى "ليا".

وعندما ارتعد من البرد ، وسمع صوت العصافير وهى تنبئ بالصباح نهض متعثرًا وخفيفًا، واستأنف سيره إلى فندق "موريس" دون أن يمر فى شارع "بيچو"، وفتح ذراعيه، وملأ رئتيه بالهواء ، وكأنه يغوص فى حلم كامل.

وتنهد وكأنه تخلص من أرواح شريرة قائلاً : «الآن، الآن ...آه ! الآن، سأكون لطيفًا مع الصغيرة ...».

واستيقظ "شيرى" فى الساعة الثامنة، كان عصبيًا ، ثم حلق ذقنه، ولبس نعله، وهز "ديزمو" الذى كان ينام شاحب الوجه، ومنظره بشع، وغاطًا فى النوم كالغريق، ثم قال له :

«هيا ! يا "ديزمو" ! "ديزمو" ! ... كفى نومًا ! إنك بشع حين تنام !»

وجلس النائم، ورشق صديقه بنظرة من عينيه التى يشبه لونهما لون الماء العكر، وتظاهر بالبلاهة كى يفحص "شيرى" بانتباه، وكان

"شيرى" يلبس ملابس زرقاء، ومنظره مثيراً للشفقة رغم كبريائه، وكان شاحباً وهو يرتدى القطيفة المغبرة التى نظفها بعناية ...

كان "ديزمو" يعانى منذ عدة ساعات من منظره القمىء بجانب جمال "شيرى"، وتثاءب خصيصاً لفترة طويلة، ثم تساءل وهو يتثاءب قائلاً : « ماذا هناك بعد ؟، إن هذا الأبله أكثر جمالاً من أمس، وبخاصة رموشه، تلك الرموش ... » . كان ينظر إلى رموش "شيرى" اللامعة الكثيفة، وإلى ما تُحدثه من ظل على إنسان عينه الأسود وعلى بياض عينه المائل للزرقة. ولاحظ "ديزمو" أن فم "شيرى" المحدب ينفتح - فى هذا الصباح الرطب - وهو يمتلئ بالحيوية، رغم أن "شيرى" يلهث بعض الشىء، كما لو كان قد استمتع لتوه بشهوة جنسية سريعة.

ثم أجَّل "ديزمو" غيرته إلى ما بعد مشاغله العاطفية، وسأل "شيرى" بلهجة متواضعة ومتعبة قائلاً :

«هل يمكن أن نعرف ما إذا كنت ستخرج فى هذه الساعة، أو ما إذا كنت ستعود ؟».

فقال "شيرى": « إننى سأخرج، لا تشغل بالك بى، وسأقوم ببعض الجولات، سأذهب عند بائع الزهور، وعند الجواهرجى، وعند أمى، وعند زوجتى، وعند ....».

– قال "ديزمو": «لا تنسَ سفير البابا».

– ورد "شيرى" قائلاً : «إننى أعرف كيف أعيش، وسأُحضر له زراير قميص كنوع من التقدير، وباقة من زهور الأوركيد ».

كان "شيرى" نادرًا ما يرد على دعابة، وكان يتقبلها دائمًا ببرود. وقد أفهمت دعابة "شيرى" الباهتة "ديزمو" أن صديقه يعانى من الوحدة ، ونظر "ديزمو" إلى صورة "شيرى" فى المرآة، ولاحظ بياض منخاريه الواسعين، وشرود نظرته. وجازف "ديزمو" بطرح أدق الأسئلة الخاصة، قائلاً :

«هل ستعود للغداء ، يا "شيرى" ؟ ... هيا، يا "شيرى"، إننى سأتحدث معك، وهل سنتغدى معًا ؟ »

قال "شيرى" على الفور : «لا» . كان شيرى يصدر صفيرًا وهو يتأمل انعكاس صورته فى المرآة، وكانت بالضبط مثل قامته ، كما كان يجد نفسه فى غرفة "ليا" وهو بين النافذتين. وحاليًا – وفى المرآة الأخرى – كان هناك إطار من الذهب الكثيف يحيط بها؛ حيث يضفى عليها لونًا ورديًا مشرقًا ، وكانت صورته العارية، أو وهو يرتدى حريرًا ناعمًا، وكذلك صورته غير المريحة، تُظهره محبوبًا سعيدًا مائعًا، وهو يلعب بحبات العقد وبخواتم عشيقته ... «هل كانت صورته تبدو من قبل فى مرآة "ليا" كصورة شاب ؟ ...» لقد مرت هذه الخاطرة بذهنه بقوة اعتقد معها أنه يسمع صوتها.

وسأله "ديزمو" قائلاً : « ماذا تقول ؟».

– فأجاب الصديق الوديع النهم قائلاً : «إننى لم أذكر شيئًا. إنهم يتحدثون فى الفناء ».

وغادر "شيرى" غرفة "ديزمو" ، ودفع الباب عائدًا إلى شقته. وكان شارع "ريڤولى" Rivoli – الذى لا تهدأ حركته دائمًا – يموج بحركة خفيفة مستمرة، وكان يمكن لـ "شيرى" أن يلمح من خلال النافذة المفتوحة أوراق الأشجار فى الربيع، وهى صلبة وشفافة مثل حجر كريم يلمع تحت أشعة الشمس، وأغلق "شيرى" النافذة، وجلس على مقعد صغير غير مستخدم، كان يحتل ركنًا كئيبًا بجوار الحائط بين السرير وباب الحمام.

وبدأ "شيرى" حديثه إلى نفسه بصوت منخفض، قائلاً : «كيف حدث ذلك ؟» ، ثم صمت، ولم يكن يفهم لماذا لم يفكر تقريبًا خلال ستة أشهر ونصف فى عشيق "ليا".

كانت رسالة "ليا" التى احتفظت بها "شارلوت بلوكس" تقول برقة :

«لست إلا مجنونة كبيرة» ، وهز "شيرى" رأسه قائلاً : «مجنونة كبيرة ! »

«إنه أمر مضحك، وأنا لا أراه كذلك؛ فماذا يمكنها أن تحب من الرجال؟ هل من نوع "بترو" ؟ وبالأحرى من نوع "ديزمو" ؟

بالطبع ... هل تحب أرچنتينيًا صغيرًا أنيقًا ؟ وأيضًا ... ولكن مع ذلك ... ».

وابتسم "شيرى" بسذاجة، وقال : «من يمكن أن يعجبها غيرى ؟ ».

مرت سحابة تحت شمس مارس أظلمت الغرفة، وأسند "شيرى" رأسه إلى الحائط، وقال : «يا "نونى"... يا "نونى" ... هل خدعتنى ؟ هل خدعتنى فقط ؟ ... هل صنعتَ بى ذلك ؟»

لقد كان يقاوم ألمه بكلمات وصور يألفها بصعوبة، مندهشًا دون أن يغضب. كان يحاول أن يستعيد ألعاب الصباح عند "ليا"، وبعض أوقات السعادة الطويلة بعد الظهر التى كان يسودها الصمت الكامل عندها ، وكذلك النعاس اللذيذ فى الشتاء.

فى السرير الدافئ والغرفة المنعشة عند "ليا"... ودائمًا لم يكن يرى وهو فى أحضان "ليا"، فى ضوء النهار المُلون بلون الكريز الذى كان يظهر خلف ستائر "ليا - بعد الظهر - إلا عاشقًا واحدًا، هو "شيرى"، ونهض كما لو كان قد بُعث من جديد، وبحركة روحانية تلقائية، ثم قال:

«الأمر بسيط جدًا ! فإذا لم أتوصل إلى أن يكون هناك عشيق آخر غيرى لها؛ فذلك يعنى عدم وجود عشيق أصلاً ! »

وأمسك بالهاتف، وكان على وشك أن يطلب رقمًا، ولكنه وضع السماعة برقة.

وقال : « لا داعى للمزاح ... ».

وخرج مباشرةً، وهو يمسح كتفيه، وأوصلته سيارته المكشوفة إلى الجواهرجى ؛ حيث جلس على مقعد صغير رقيق، وتأمل أحجار الياقوت ذات اللون الأزرق الفاقع داخل إطار لا يُرى من هذا الصلب الأزرق، واشتراها قائلاً لنفسه :

«إنها هدية لإدميه ».

واشترى زهوراً بهيجة من أنواع غير مشهورة، وعندما دقت الساعة الحادية عشرة بالكاد، استغرق حوالى نصف ساعة هنا وهناك فى شركة مصرفية حيث سحب نقوداً، وبالقرب من أحد الأكشاك أخذ يتصفح كتاباً مصوراً باللغة الإنجليزية وجده فى مخزن التبغ الشرقى عند بائع الروائح الذى يتعامل معه. وأخيراً ركب سيارته، وجلس بين باقة الورد وبين علبة معقودة بشرائط، وقال للسائق : «إلى المنزل».

والتفت السائق فى مقعده، وقال : « سيدى ، ماذا قلت يا سيدى؟ ... ».

– رد "شيرى" : «قلت إلى المنزل، فى شارع "انكرمان" ، هل يجب أن أُحضر لك خريطة لباريس ؟ »

واندفعت السيارة نحو "الشانزليزيه" Les Chanps-Elysées . وبذل السائق جهده، وظهره المليء بالأفكار على وشك الانحناء، وكان يشعر

بالقلق، من جراء الفجوة التى تفصل بين هذا الشاب المائع ، منذ شهر مضى، وهذا الشاب الذى يقول : «أعطنى كأسًا يا "أنطون" ».

إنه ابن السيد "بلوكس" الذى كان يتشدد كثيرًا مع من يعملون عنده ، ويهتم بشدة باستهلاك البنزين.

لقد كان «السيد بلوكس الابن» يجلس على مقعد من جلد الماعز، وكان يضع قبعته على ركبته، ويسابق الريح ، ويجتهد فى ألا يفكر. وأغلق عينيه بنعومة، فى المسافة بين شارع "مالاكوف" Malakoff وميدان "بورت دوفين" La Porte Dauphine، حتى لا يرى شارع "بيچو"، وهنأ نفسه على ذلك قائلاً : «إن عندى قدرًا من الشجاعة ! ».

وركن السائق السيارة فى "شارع انكرمان"، كى يفتح الباب الذى أحدث صوتًا بنغمة غليظة رتيبة، وأسرع حارس المنزل الذى كان يرتدى الكسكيت، وأخذت كلاب الحراسة تنبح لتحيى رائحة القادم التى تشمها. ودخل "شيرى" إلى المنزل بكل ارتياح ، وهو يستنشق العبير الأخضر للأعشاب المقصوصة، ودخل المنزل ، وصعد مزهوًا بنفسه إلى الزوجة الشابة التى كان قد هجرها منذ ثلاثة أشهر، مثل البحار الأوروبى الذى يترك زوجته الصغيرة البدائية فى الجانب الآخر من العالم.

الفصل الحادى عشر

ألقت "ليا" الصور التى كانت قد أخذتها من آخر الصندوق ووضعتها على المكتب المفتوح بعيداً عنها، ثم قالت :

« يا إلهى، يالشناعة الناس ! لقد تجرأوا على أن يعطونى ذلك؛ فهل يعتقدون أننى سأعلق هذه الصور فوق المدفأة، ربما فى إطار من النيكل، أو فى حافظة واقية ؟ إننى سأضعها فى سلة المهملات، نعم، وممزقة أربع قطع ! ... ».

كانت "ليا" على وشك أن تأخذ الصور، ولكن قبل أن تمزقها ألقت عليها نظرة قاسية لا تقدر عليها سوى عيناها الزرقاوان. كانت تبدو فى العمق الأسود فى إحدى الصور فى حجم الكارت بوستال **La Carte Postale** امرأة قوية تلبس مشداً مستقيماً، وكانت تخفى شعرها أسفل وجنتيها بغطاء يدوى الصنع تعبث به الرياح. وكُتب على ظهر الكارت بوستال : «إلى عزيزتى "ليا"، فى ذكرى الساعات الجميلة فى "جتارى" **Guéthary** و "أنيطا" **Anita** ». وفى وسط ورقة مقواة خشنة مثل الطوب اللبن نجد صورة أخرى تجمع العائلة الكئيبة كثيرة العدد،

والتى تعتبر مثل إصلاحية تحكمها جدة قصيرة القامة لها أرجل تضع لها مساحيق التجميل، وكانت ترفع إلى أعلى طبلة تدق عليها لحنًا راقصًا ، وتضع قدمًا على ركبتها الممدودة، وتبدو كأنها جزَّارة ماكرة فتية قوية .

وقالت "ليا" وهى تمزق هذه الصورة الخشنة : «إنها لا تستحق الاستمرار فى الاحتفاظ بها».

وقد ذكرتها إحدى الصور – بصحيفة آنستين – بقرويتين متقدمتين فى السن مضطرتين مصرتين مجادلتين كانتا تجلسان كل صباح على مقعد فى منتزه جنوبى، وكذلك كل مساء تشربان قدحًا من عصير الكشمشة[1] Cassis ، وترسمان بشغل الإبرة فى نول به خيوط حريرية قطًا أسود وضفدعًا وعنكبوتًا ، وكُتب على الصورة : «إلى ساحرتنا الجميلة ! والتوقيع : زميلتاها الصغيرتان فى ترياس "ميكيت" Miquette و "ريكيت" Riquette ».

ومزقت "ليا" صور ذكريات السفر ، ومررت يدها على جبهتها قائلة:

«هذا بشع. وبعد تلك الصور، وقبلها، فعلت الشىء نفسه مع مثيلاتها الأخريات، فلم يكن ثمة شىء يمكن صنعه غير ذلك، هكذا طبيعة الأمور، وربما يوجد فى كل مكان توجد فيه مثل "ليا"، ما

(١) الكشمشة : نوع من شجر العنب المثمر من فصيلة الكشمشيات – عصير الكشمشة.

يماثل "شارلوت بلوكس"، "ودى برش" ، و"ألدونزا"، وهن عجائز مقززات كُن من قبل شابات جميلات، وأصبحن أخيراً غير محتملات، غير محتملات، غير محتملات...».

وسمعت فى أحداث ذكرياتها أصواتا كانت تناديها من بعيد على مدخل الفندق، وتصيح بها، من بعيد، قائلة : « هَو، هُو[1] ! »، وكانت تسمع أيضًا أصواتا على شواطئ البحر شقراء اللون، وخفضت "ليا" جبهتها بحركة عدوانية تشبه حركة الثور.

وبعد ستة أشهر، صارت "ليا" نحيفة بعض الشىء، ورخوة، وأقل صفاءً. كان التذمر يخفض أحيانًا من ذقنها الذى يتدلى على ياقتها، كما أن صبغات شعرها عند الخروج قد أوقدت فى شعرها نارًا شديدة الاحمرار، ولكن سحنتها العنبرية اللون، والتى زادت من حدتها الشمس والبحر، كانت تنتفخ مثلما تزدهر المزرعة الجميلة بحيث قد يكون بوسعها الاستغناء عن مساحيق التجميل.

كما كان ينبغى أن تلبس بحذر، أو تخفى تمامًا رقبتها الذابلة، التى تحيط بها تجاعيد كبيرة لم يستطع لفح الشمس أن يدخل إليها.

كانت "ليا"، وهى جالسة، تتوقف عند ترتيبات دقيقة، وتبحث حولها،

(١) هَو هُو! How - hou : صوت يدل على الاستياء !

كما تبحث عن قطعة أثاث مفقودة عن نشاطها السابق، وسرعتها فى اختيار مزرعتها اللطيفة.

وقالت وهى تتنهد : «آه ! كيف قمت بهذه الرحلة ؟... إنها رحلة متعبة !»

وقطَّبت حاجبيها، وبدت متذمرة، عندما لاحظت كسر زجاج إحدى لوحات "شابلن" Chaplin الصغيرة، التى تمثل رأس فتاة ذات لون وردى ومفضض، وكانت ترى أن هذه اللوحة جميلة.

وقالت ليا أيضًا : « إن اللوحة مشقوقة شقًا عريضًا مثل طرفى الستارة ... إننى لم أر غير ذلك ... كيف جاءتنى فكرة أن أبقى بعيداً لهذا الوقت الطويل ؟ وعلى شرف من ؟ كما لو كان لا يمكننى أن أتخلص من أحزانى هنا فى هدوء تام».

ونهضت كى تذهب لتدق الجرس، ولمست غطاء التسريحة الشفاف، واتجهت إلى الخادمة قائلة بعنف :

«اذهبى ...، أيتها الخادمة العجوز».

ثم دخلت إليها وصيفتها، وهى محملة بالملابس الداخلية والجوارب الحريرية، وقالت لها "ليا" :

«إن الساعة الحادية عشرة، يا روز، ولم أنتهِ بعد من زينتى ! إننى متأخرة ....».

– فأجابتها الوصيفة قائلة : « ليس هناك مايجعل سيدتى متعجلة، ولا توجد فتيات "ميجريه" Mégret كى يصحبن سيدتى فى رحلة، ويحضرن فى الصباح ليقطفن كل ورود المنزل، وليس هناك السيد "رولان" Roland الذى يثير غضب سيدتى حينما يلقى إليها بالحصى الصغير فى غرفتها ».

– وقالت "ليا" : «يا "روز"، إن هناك ما يُشغلنا فى المنزل. إننى لا أعرف ما إذا كان تغير المنزل ثلاث مرات يُعتبر بمثابة حريق، ولكننى متأكدة أن ستة أشهر من الغياب تُعتبر طوفانًا. هل رأيت الستارة المصنوعة من الدانتيل؟».

– وقالت الوصيفة : «إنها ليست شيئًا ... إن سيدتى لم تر البياضات ... إن آثار بعر الفئران موجودة فى كل مكان، كما أن الباركيه قد تم قرضه. وإنه من الغريب أننى تركت لـ "إمرنسى" Emérancie ثمان وعشرين منشفة للزجاج، ولست أجد سوى اثنتين وعشرين».

– أذلك حق ؟

فردت الوصيفة قائلة : «فعلاً كما تقول سيدتى».

ونظرا إلى بعضهما بسُخط متعادل، وكلتاهما مرتبطتان بهذا المنزل المريح المملوء بالسجاد والحرير، وبما فيه من دواليب مملوءة ،

وكذلك بمخازنه المطلية تحت الأرض، وضربت "ليا" ركبتها بيدها القوية، وقالت :

«سيتغير ذلك، يا عزيزتى ! إذا لم يكن "إرنست" و"إمرنسى" لا يرغبان فى إجازة ثمانية أيام، فسيجدان هناك المنشفات الست للأكواب. أما بالنسبة لـ "مارسيل" هذا المعتوه الكبير؛ فهل سبق أن كتبت له ليعود ؟».

– قالت الوصيفة : «إنه هنا بالفعل، يا سيدتى ».

وأسرعت "ليا" فى ارتداء ملابسها، وفتحت النوافذ، وارتكزت على يدها لتتأمل باهتمام شارعها ذا الأشجار الصغيرة. لم تعد توجد فتيات عانسات متملقات، ولم يعد السيد "رولان" موجوداً، وكذلك هذا الشاب الرياضى الثقيل من كامبو ...

وتنهدت قائلة : «آه ! يا له من أبله !».

ولكنها كانت تسامح هذا الشخص العابر على بلاهته، ولم تكن تحقد عليه ؛ لأنه لا يعجبها. وفى ذاكرتها النسائية التى تنسى، رغم سلامة جسدها، ولم يعد السيد "رولان" إلا حيواناً مثيراً للسخرية إلى حد ما، وأثبتت أنه أخرق ... وربما كانت "ليا" تنكر – فى الوقت الحاضر– هذا الشلال الأعمى من الدموع، الذى انهمر ذات مساءٍ ممطر؛ حيث كان ماء المطر يسيل معطراً على نباتات لها رائحة الورد، وكان قد أخفى عنها حقيقة السيد "رولان"، ولحظة ما خلف صورة "شيرى" ...

ولم تترك تلك المقابلة السريعة فى نفس "ليا" إلا الأسف والضيق؛ لأن هذا "المعتوه" وأمه شبه المجنونة ربما وجدا عندها - فيما بعد ، كما كان الحال من قبل، فى الڤيلا التى استأجرتها فى كامبوا - الوجبات الجاهزة للأكل، والكراسى المتحركة فى الشرفة الخشبية، والرفاهية الجميلة التى كانت تعرف "ليا" كيف توفرها وتزهو بها. ولكن هذا الأبله، بعد جُرح خرج منها، تاركًا "ليا" ليعتنى بها أحد السكارى وضابط جميل أشيب كان يرغب فى الزواج من "مدام دى لونڤال" .

وكان الكولونيل الذى مازال نحيفًا يقول لـ "ليا" : «إن أعمارنا وثرواتنا وذوقنا فى الاستقلالية وحبنا للمجتمع الراقى؛ ألا يؤهل كل ذلك أحدنا للآخر ؟ »

كانت "ليا" تضحك وتُسر بصحبة هذا الجاف إلى حد ما، والذى كان يأكل جيداً، ويشرب دون أن يسكر. لقد كان يخدع نفسه، وقد قرأ فى العينين الجميلتين الزرقاوين، وفى الابتسامة الواثقة الطويلة لمضيفته، الموافقة التى كانت تتأخر فى إبدائها ... ولكن حركة معينة أبرزت نهاية صداقتها التى لم تكد تبدأ. أسفت "ليا" على ذلك ، واتهمت نفسها بكل أمانة ، وقالت :

«إنها غلطتى ! فلا يمكن أن نُعامل كولونيل من "أبوستيج" من عائلة عريقة من إقليم البسك مثل معاملة السيد "رولان" ، وعندما عنفته

مرة – أى زجرته – كان بوسعه أن يتصرف تصرفًا رقيقًا وعقلانيًا لو أنه قد عاد فى اليوم التالى فى عربته التى يجرها حصانان ليدخن سيجارًا عندى، ويزعج ماعندى من العوانس ... ».

ولم تتصور "ليا" أن رجلاً ناضجًا يقبل الطرد، ولا يقبل بضع نظرات متسعة تقارنه بوضوح بشخص آخر غير معروف، وغير مرئى....

وفجأة، شعرت "ليا" بالحيرة، ولم تستطع أن تمنع هذه النظرة النسائية الطويلة التى تعرف فى أى مكان يفرض العمر على الإنسان الذبول ، فتكون يداه جافتين رغم العناية بهما، تشقهما التجاعيد والعروق، واتجهت عينا "ليا" إلى هذا الذقن المرتخى، والجبهة التى تخطها التجاعيد، وكل ذلك أثّر بقسوة على الفم الذى أصبح بين قوسين صغيرين من التجاعيد ، وتمثل كل ما لاحظته "بارونة لونڤال" Baronne de Lonval فى هذه العبارة التعجبية : «آه ! لا ! لا ! ... » ، وهى عبارة شديدة الإهانة، وصريحة جداً، وسوقية جداً، لدرجة أن الكولونيل الجميل "أبوستيج" Ypoustègue اجتاز مدخل المنزل للمرة الأخيرة .

وكانت "ليا" تقول لنفسها وهى متكئة بيدها على الشرفة : «تلك آخر مغامراتى العاطفية» ، ولكن الجو الباريسى الجميل، ومنظر الفناء

النظيف والرنان ، ومنظر شجر الغار ذى الرءوس المستديرة فى كؤوسها الخضراء، والرائحة الفاترة والمعطرة التى كانت تخرج من الغرفة مداعبة مؤخرة رأسها، كل ذلك كان يملؤها – رويداً رويداً– بالدهاء وحسن المزاج، وكانت بعض النساء يسرن متجهات نحو الغابة، وأبدت "ليا" ملحوظة، وقالت : «هاهى التنورات تتغير، والقبعات تعلو». وعزمت على أن تقوم بزيارة إلى الخياط، وإلى "لويس" Lewis، وانتابتها رغبة فجائية فى أن تكون جميلة، وقالت لنفسها : «أأكون جميلة ؟ لمن؟ من أجلى، ثم لأُغيظ الأم "بلوكس" ».

ولم تكن "ليا" تجهل هروب "شيرى"، ولكنها لم تعلم شيئًا عن هروبه. وفى الوقت الذى كانت تنتقد فيه "مدام بلوكس" البوليسية، كانت "ليا" تقبل أن تقوم بوظيفة بائعة لأزياء الموضة، كانت تدللها بالتعبير عن عرفانها بواسطة وشوشات تبثها فى أذنها أثناء قياسها الأثواب، أو تزوى بها فى ركن تشكرها كثيراً على الشيكولاته الرائعة التى تلفها لها فى ورقة من المتجر. وتلقت "ليا" فى "كامبو" Cambo بطاقة بريدية من العجوز "ليلى" حيث كانت الجدة المجنونة تحكى حكاية حب غير مفهومة، وحكاية هروب زوجة شابة احتجزت فى "نويى" ...وقد تم ذلك بكتابة مضطربة ليس بها نقط ولا فواصل.

وتذكرت "ليا" قائلة لنفسها : «كان الجو مماثلاً ، للجوّ الحالى وذات صباح حينما كنت أقرأ البطاقة البريدية التى بعثت بها العجوز "ليلى" فى الحمام الخاص بى، فى "كامبو"... ».

كانت "ليا" ترى من جديد الحمام الأصفر، والشمس التى ترقص على الماء، والسقف. كانت تسمع صدى الڤيلا الصغيرة الرنانة وهى تضحك بصوت عالٍ، وبقسوة دون أن تفقد كثيراً من تلقائيتها.

كانت ضحكتها، ثم ما تلاها من نداءات : «"روز" ! .... "روز" ...».

كان كتفاها ونهداها وذراعاها – وهى خارج المياه المترقرقة والقوية – يشبه كل منها شكل نبع الماء؛ حيث كانت تحرك بأطراف أصابعها الورق المقوى المُبلل، وقالت :

« "روز" ، "روز" ! ... لقد انهمك "السيد بلوكس" فى المعسكر ، وترك امرأته ».

– وقالت "روز" : «إن سيدتى لا ترانى مندهشةً ؛ فإن الطلاق سيكون أكثر بهجة من الزواج؛ حيث سيدفنان الشيطان بأكمله فى الأرض ...».

وفى ذلك اليوم، انتابت "ليا" نوبة غير طبيعية من الضحك؛ فقالت :

«آه ! أيها الطفل الشقى ! آه ! أيها الطفل السيئ ! ألا ترين ذلك؟! ...».

وهزت رأسها وهى تضحك بصوت منخفض، كما تفعل الأم التى بات ابنها خارج المنزل لأول مرة ...

ومرت بسرعة مركبة لامعة من أمام السور، وصدر منها وميض ثم اختفت، دون أن تُحدث صوتًا بعجلاتها الكوتشوك وقوائمها الارتكازية الدقيقة، وقالت "ليا" لـ "روز" :

«انظرى، إنه "سبيلوف" Spéleïeff ، وهو رجل شهم. ويبدو هناك "ميرجيليه" Merguilier على حصانه الأبقع، وفى الساعة الحادية عشرة سيعقبه "برتولمى دى شيشيه" Berthellemy Desséché، وسيذهب ليفرد عظامه فى "زقاق لافرتى" Sentier de la Vertu... ومن الغريب أن الناس يمكن أن يصنعوا الشىء نفسه طول حياتهم.

وربما يكون من المعتقد أننى لم أكن لأغادر باريس لو بقى فيها "شيرى". يا "شيرى" المسكين، لقد انتهى الأمر حاليًا، وكذلك العُرس، والنساء والأكل فى أى ساعة، والإفراط فى الشراب ...

وهذا مؤسف؛ فهل يمكن أن يكون رجلاً شهمًا، لو كان لديه فم صغير وردى مثل بائع لحم الخنزير، وقدمان مفلطحان؟ ..».

وتركت "ليا" النافذة وهى تحكُّ مرفقيها الفاترين، وهزت كتفيها قائلة : «يمكن أن ننقذ "شيرى" مرة، ولكن ليس مرتين» . وألمعت "ليا"

أظافرها، ونفثت قائلة : « هأ »، وعلى الخاتم الباهت كان ينعكس عن قرب اللون الأحمر غير المتقن لشعرها بحيث بدت جذوره البيضاء، وأخذت "ليا" تدون بعض الخطوط على بطاقة.

كانت تتصرف بسرعة كبيرة وجهد أقل من المعتاد كى تدافع عن نفسها ضد إهانة خبيثة أصابتها بالقلق الذى كانت تعرفه جيداً، وأطلقت عليه المغص المعنوى - منكرة حتى ذكرى حزنها - ... وانتابتها رغبة - فى لحظات قليلة مضطربة - فى الحصول على مركبة مكشوفة جيدة الصنع، يجرها حصان من سلالة قديمة، ثم رغبة أخرى فى الحصول على سيارة فائقة السرعة، ثم فى الحصول على أثاث الصالون، بل إنها فكرت فى تعديل تسريحتها التى كانت ترفع فيها شعرها منذ عشرين عاماً، وتبرز مؤخرة رقبتها. وكانت تقول لنفسها : «هل يمكن استخدام رولو منخفض مثل "لافلير" Lavallière؟...إن ذلك سيسمح لها باستخدام الأثواب ذات الحزام الرفيع موضة هذا العام. وباختصار، فإنه مع الرچيم، ومع إجادة صبغة الحناء، يمكن أن يبدو مظهرى أقل بعشر سنوات. لا، فلنقل خمسة أعوام، من ... ».

وهكذا، فإن جهداً ما جعلها تنحو نحو الصواب بكبريائها الواضح.

وقالت "ليا" لنفسها : «هل يمكن ألا تكون لامرأة مثلى شجاعة إنهاء الأمر ؟ هيا، هيا، إن لدينا هذه الشجاعة، يا جميلتى، بالنسبة لمن هن فى مرتبتنا» ، وأخذت تقيس نفسها وهى واقفة، ويداها على عجزيها، وكانت تبتسم لنفسها.

وأضافت قائلة : «إن امرأةً مثلى لا يمكن أن ينتهى بها المطاف فى أحضان عجوز. إن امرأة مثلى أُتيحت لها الفرصة بألا تلوث يديها أو فمها أبداً بمخلوق هزيل !... نعم، هأنذا، مثل "الغول" الذى لا يريد سوى اللحم الطازج ... ».

واستعادت فى ذاكرتها من مروا عليها، وكذلك عشاق شبابها الذى احتفظت به بمنأى عن كبار السن، ووجدت نفسها خالصة مخلصة منذ ثلاثين عاماً لشباب مشرق أو لمراهقين صغار السن.

وقالت "ليا" لنفسها مرة أخرى : «يرجع الفضل لى فى الاحتفاظ بهذا الجسم المنتعش ! وألا يرجع الفضل إلىَّ فى الإبقاء على صحة هؤلاء الشبان وعلى جمالهم، وعلى نقاء أحزانهم، وعلى معالجتهم من الزكام بإعطائهم لبنًا ممزوجًا بصفار البيض، وعلى التعود على ممارسة الحب دون تراخٍ ودون رتابة ؟... وربما أذهب الآن لأحضر لنفسى رجلاً متقدماً فى السن حتى لا يفوتنى شىءٌ».

وبحثت وقررت ، بلا وعى كبير، قائلة : «هل هو عجوز فى الأربعين ؟»

ومسحت يديها الطويلتين الجميلتين، واستدارت بحركة دائرية مشمئزة، وقالت : «أف ! الوداع لذلك كله؛ فذلك أكثر نظافة لأذهب لشراء أوراق لعب، وخمر لذيذ، وعلامات بريدج، وإبر تريكو، والتحف اللازمة لإخفاء فتحة كبيرة، وكل ما يلزم لإخفاء هذا الوحش المُسمى بالمرأة العجوز ... ».

وفيما يتعلق بالتريكو، كانت تمتلك أثواباً، ومآزر حمام كثيرة ، وكانت تأتى إليها البديكيرة الصينية مرة كل أسبوع، وتضع طلاء الأظافر مرتين، وتقوم بالتدليك كل يوم. وقد شُوهدت "ليا" فى المسرح، وقبل المسرح فى المطاعم التى لم تكن تتردد عليها أيام "شيرى".

وقبلت أن تدعوها بعض الفتيات وأصدقائهن مثل "كوهين" Kühn، وهو ترزى سابق لها لم يعد يمارس المهنة، سواء فى المنازل أو المآدب.

ولكن الفتيات كن يُظهرن عدم اكتراث نحوها، ولكنها لم تعر ذلك أى اهتمام؛ حيث كان "كوهين" يسميها «صديقتى العزيزة»، وكانت ترد عليه عند أول دعوة لتناول الطعام :

« بالتأكيد، يا "كوهين"، إنه ليس من المناسب لك أن تكون عميلاً من عملاء المطعم».

واتصلت بـ "بترو" كمن تبحث عن ملاذ ، وهو حكم ومدير فى شركة ملاكمة، ولكن "بترو" تزوج من مديرة حانة، شابة رهيبة وشديدة الغيرة مثل الجُرَذ. وجازفت "ليا" بالذهاب إلى "بلاس ديتالى" Placesd'Italie لكى تجد البطل المرهف الحس مرتدياً ثوبها الياقوتى اللون، الموشى بالذهب، والفردوسيات، والجواهر الضخمة، وشعرها الأحمر الذى يشبه شجر الأبلاكاش الجديد. وتنفست "ليا" رائحة العرق

والخل والتربنتين[1] التى كانت تفوح من "الآمال" التى أحدثها "بترو" عندها ، ثم انصرفت وهى متأكدة أنها لن ترى مرة أخرى هذه الصالة الفسيحة المنخفضة التى كانت تفوح منها رائحة الغاز الأخضر.

وقد كلفتها هذه المحاولات - التى قامت بها لتعود إلى الحياة الصاخبة لمن لا عمل لهم - جهداً لم تكن تفهمه، وتساءلت قائلة : « ماذا بى إذن ؟ »

وفى المساء تحسست جنباتها التى انتفخت بعض الشىء ، وكانت تتأمل أسنانها القوية التى كانت جنورها شبه مهددة، تحسستها بقبضة يدها، كما لو كانت تفحص برميلاً، وكذلك فعلت مع رئتيها العريضتين، ومع معدتها المستريحة.

كان هناك شىء ما غامض فى نفسها، وكانت تشعر أن هذا الشىء يحرمها من سند غير موجود؛ حيث يؤثر فيها تماماً. وعندما قابلتها "بارونة برش" فى إحدى الحانات؛ حيث كانت ترتوى من الخمر الأبيض الذى يشرب منه الحوزيون، وكانت تأكل دستين من الأصداف التى أعلمتها بعودة الطفل المعجزة إلى حظيرة الأسرة، وبشروق نجم جديد من العسل فى شارع "انكرمان" . واستمعت "ليا" إلى هذه القصة

(١) تربنتين Térébenthine : صمغ البُطم .

المعنوية بعدم اكتراث، ولكن انتابها انفعال أتعبها، وفى اليوم التالى تعرفت على عربة ليموزين زرقاء أمام السور . وكانت "شارلوت بلوكس" تعبر الفناء، وقالت لها :

«أخيراً ! أخيراً ! وجدتك ! يا عزيزتى ليا ! يا عزيزتى ، إنك أكثر جمالاً ! وأكثر نحافة من العام الماضى ! ولكن انتبهى، يا عزيزتى ليا، لا تهزلى كثيراً فى مثل هذا العمر ! أنتِ رشيقة فى وضعكِ الحالى، ولكن لا تبالغى ! بل ... ولكن ياله من سرور عندما ألقاكِ مرة أخرى !»

ولم يحدث من قبل أن كان هذا الصوت الخشن يظهر رقيقًا جداً فى نظر "ليا" التى تركت "مدام بلوكس" تتحدث، وكانت سعيدة بهذا السيل اللاذع من الكلام الذى كان يمنحها بعض الوقت. وأجلست "شارلوت بلوكس" على كرسى وثير له أرجل منخفضة، وذلك فى الضوء الهادئ للصالون الصغير ذى الجدارين المطعمين بالحرير المُلون، كما كان الحال فى السابق. أما هى فقد أخذت تلقائيًا كرسيًا له مسند متيبس كان يضطرها إلى حك كتفيها ورفع ذقنها، كما كان الحال سابقًا.

وكانت بين الاثنتين منضدة عليها مفرش خشن مُطرز، يمثل صورة قديمة - كما كان الحال سابقًا - ودورق سميك مملوء بالعرقى المُعتق،

وأكواب لها كؤوس متحركة، مثل قطعة الميكا[1] Mica، والماء المثلج والبسكويت المُملح.

وبكت "شارلوت بلوكس" قائلة : «يا عزيزتى "ليا" ! يمكننا أن نرى بعضنا بهدوء، بهدوء؛ فأنت تعرفين شعارى، (انشر البهجة بين أصدقائك عندما تكون فى ضيق، ولا تشركهم إلا فى السعادة)، وطوال الوقت الذى كان فيه "شيرى" يهرب من المدرسة لم يخبرك بذلك، هل تسمعين ؟! والآن بعد أن أصبح كل شىء على مايرام، وأصبح أبنائى سعداء، أقول لكِ بصوت عالٍ إننى ألقى بنفسى بين ذراعيك، وسنبدأ حياتنا الطيبة مرة أخرى ... ».

وقطعت كلامها، وأشعلت سيجارة، وهى ماهرة فى هذا النوع من التوقف عن الكلام تمامًا كما لو كانت ممثلة . وقالت : «... بدون "شيرى"، بالطبع».

– وأمنت ليا على كلامها وهى تبتسم قائلة : «بالطبع».

كانت "ليا" تتأمل، وتستمع بابتهاج إلى عدوتها القديمة. كانت هاتان العينان اللتان تشبهان عينى القطة، وهذا الفم الثرثار، وهذا الجسم الضئيل البدين والمتحرك، وكل ذلك لم يوجد أمامها إلا لكى

(١) ميكا Mica : حجر لامع ذو صفائح .

يختبر حزمها، ولكى يهنيها كما كان الحال دائماً فى الماضى ... دائماً فى الماضى. كانت "ليا" تعرف كيف ترد، وكيف تزدرى، وكيف تبتسم، وكيف تعتدل.

وبدا بالفعل أن هذا الهم الثقيل الذى كان يثقل كاهلها بالأمس خلال الأيام السالفة قد انزاح، وملأ الضياء المعتاد حجرة الصالون، وأخذ ينعكس على الستائر.

وفكرت "ليا" بمرح قائلة : «هكذا ... إنهما امرأتان تقدمتا فى السن قليلاً عن العام الماضى، تتبادلان الخبث الطبيعى، والكلمات الروتينية، والحذر الساذج، وتأكلان معًا، وتقرآن الصحف المالية فى الصباح، وتثرثران بشكل واضح وقت الظهيرة . يجب أن تعيد بدء كل ذلك ؛ لأن هذه هى الحياة، بما أنها حياتى، ويجب أن أختلط بعائلات "ألدونزا" و"البرش" و"ليلى" وبعض السادة المُسنين الذين ليس لهم عائلات، والذين يجتمعون جميعًا حول مائدة اللعب؛ حيث يتجاور الخمر النقية مع أوراق اللعب، وربما مع زوج من الأحذية، وكل ذلك يُعتبر مقدمة لوجود طفل يعيش فيما بعد... لنبدأ مرة أخرى، بما أن البداية ستكون فى الظلام؛ فلنمضِ فى هذا الطريق بسرور، بما أننى سأغوص فيه على راحتى.

وحدقت بعينيها الصافيتين وفمها المرتخى كى تسمع "شارلوت بلوكس" التى كانت تتحدث باستفاضة عن زوجة ابنها، قائلة :

«هل تعلمين يا "ليا" العزيزة، ما إذا كان هدف حياتى كلها هو السلام والهدوء ؟ حسنًا إنهما عندى الآن. وباختصار، يُعتبر اختفاء "شيرى" نوعًا من الطيش، كما أن فكرة لومك على ذلك، يا عزيزتى "ليا"، بعيدة عنى، ولكن ألا تعرفين أنه فى التاسعة عشرة عامًا أو فى الخامسة والعشرين من عمره لم يكن لديه الوقت الكافى ليعيش عيشة الشباب؟ حسنًا، لقد عاش حياة الشباب ثلاثة أشهر، هذه حياة الشباب ! يا له من شىء جميل !».

وقالت "ليا" دون أن تفقد جديتها : «هذا أفضل رغم ذلك. إنه تأكيد بأنه يكرس نفسه لامرأته الشابة ».

وصرخت "مدام بلوكس" قائلة وهى متألقة : «بالضبط، بالضبط، إنها الكلمة التى كنت أبحث عنها ! أى كلمة تأكيد ! فمنذ ذلك اليوم لم يعد هناك حلم ! وأنتِ تعلمين أنه عندما يعود أحد أفراد عائلة بلوكس إلى منزله بعد أن يسرف فى الإنفاق لا يخرج منه بعد ذلك !»

وسألت "ليا" قائلة : «هل هى تقاليد العائلة ؟ »

ولكن "شارلوت" لم ترد أن تسمع شيئًا، ولكنها قالت :

«من جهة أخرى، أحسن استقباله فى منزله، خاصةً من جانب زوجته الصغيرة، آه ! وهذه واحدة، يا "ليا" ... وأنت تعلمين أننى رأيت فتيات صغيرات، ولكننى لم أجد واحدة تتجاوز إدميه"».

وقالت ليا : « إن أمها سيدة مشهورة».

فردت "مدام بلوكس" قائلة : «تصورى، تصورى، يا عزيزتى الكبيرة، أن "شيرى" قد تركها قرابة ثلاثة أشهر، وبالمناسبة، كانت محظوظة لأننى كنت موجودة ! ».

وقالت ليا : « هذا بالضبط ماكنت أفكر فيه».

وردت "مدام بلوكس" قائلة : «حسنًا، يا عزيزتى، لم تصدر منها أية شكوى، ولا أية حركة، ولا أى مسعى غير موفق، لا شىء، لا شىء ، بل كان هناك فقط الصبر، الرقة، وجه طاهر، وجه قديسة» .

وقالت ليا: «هذا مزعج».

وردت "مدام بلوكس" قائلة : «هل تعتقدين أنه عندما يخرج الطفل الشقى ذات صباح وهو يبتسم، كما لو كان يعود من جولة فى الغابة، أن إدميه كانت ستسمح لنفسها بأية ملحوظة ؟ لا ، مطلقًا ! كما أنه هو نفسه كان لابد أن يشعر فى قرارة نفسه ببعض الضيق...» .

وقالت ليا : «أوه ! لماذا ؟».

وقالت "مدام بلوكس" : «هكذا، لننظر فى الأمر ... لقد وجد "شيرى" استقبالاً رائعًا، وتم الاتفاق على أن يناما فى غرفتهما، تبًا ! وحدث ذلك دون انتظار. آه ! أؤكد لك، إنه لم يكن هناك فى العالم – فى تلك الساعة – امرأة أسعد منى !».

واستدارت ليا قائلة : « ربما ، ماعدا "إدميه" ».

ولكن "مدام بلوكس" عبرت عن ذلك بكل جوارحها، وقامت بحركة دائرية، ثم قالت :

«فيم ستفكرين ؟ أما أنا فلا أفكر إلا فى لم شمل العائلة».

وغيرت من لهجتها، وأخفضت عينيها وشفتيها، وأضافت قائلة : «من جهة أخرى، إننى لم أرها جيداً – هذه الصغيرة – وهى مستغرقة فى رغبة محمومة، بحيث تصدر صيحة نشوة، وهى فى العشرين من عمرها. مرت باضطرابات، تبًا ... وفى هذا العمر يكون المرء مذبذبًا، ثم أقول لك – فيما بيننا – إننى أعتقد أن أمها باردة».

وقالت ليا : «إن إيمانك بالأسرة يبعدك عن الصواب».

وأظهرت "شارلوت بلوكس" – بكل براءة – قاع عينيها الكبيرتين اللتين لا تقرأ فيهما شيئًا .

وقالت : «إنها ليست مسألة وراثة ! ليست وراثة ! على حد اعتقادى. وهكذا، فإن ابنى هو النزوة نفسها ... وكيف لا تعرفين أنه النزوة بعينها ؟».

واعتذرت "ليا" قائلة : «كنت سأنسى ذلك».

وردت "مدام بلوكس" قائلة : «حسنًا، إننى أؤمن بمستقبل ابنى؛ فإنه سيحب ما بداخله كما أحبه، وسيقوم بإدارة ثروتى، وسيحب أطفاله كما أحببته أنا....».

وتوجهت إليها "ليا" بالرجاء قائلة : «إذن، لا تتوقعى كثيرًا من الأمور المحزنة ! وكيف لنا أن نعرف ما بداخل هذين الشابين ؟».

وصاحت "مدام بلوكس" قائلة : «إنها كارثة، كارثة ! إن الأبسطة بنفسجية ! بنفسجية اللون ! والحمام أسود وذهبى، وغرفة الصالون بدون أثاث، لكن المكان مملوء بالقازات الصينية الضخمة مثلى ! وأيضًا، ماذا يحدث : إنهما لم يعودا يغادران نيوى. ومن جهة أخرى، فإن الصغيرة تحبنى كثيرًا بلا غرور».

وسألتها "ليا" قائلة : « ألم يكن عندها أية اضطرابات عصبية ؟».

ولمعت عين" شارلوت بلوكس"، وقالت : «هى ! لا يوجد أى خطر، لقد كان أمامنا خصم عنيد».

وقالت "ليا" : «مَن نحن ؟».

وردت "مدام بلوكس" قائلة : «عفوًا، يا عزيزتى، إنها العادة ... إننا نشهد ما يمكن أن تسميه بالمخ، مخ حقيقى. إنّ لديها الوسيلة التى

تصدر بها الأوامر دون أن ترفع صوتها، وأن تقبل سخريات "شيرى"، وأن تبلع الإهانات كما لو كانت لبنًا سائغًا... وحقيقةً، أسأل نفسى عما إذا لم يكن هناك خطر على ابنى فى المستقبل. إننى أخشى، يا عزيزتى ليا، أن يصل الحال إلى القضاء التام على هذه الطبيعة الأصلية جداً، إذا ...».

وقاطعتها ليا قائلة : «ماذا ؟ هل يتراجع بهدوء ؟ استخدمى رقتى، يا "شارلوت"، إنها مذهب "سبيلوف" ، وعمرها أربعة وسبعون عامًا، وهم يعلمونه للأطفال الرضع ...».

وقالت "مدام بلوكس" : «إن الانسحاب بهدوء، ليست هى العبارة، ولكن صحتها... »، وأسرعت "ليا" قائلة : «هل هى رباطة الجأش ؟ ».

ثم أسرعت "مدام بلوكس" قائلة : «لقد قلتها أنتِ. وهكذا، فحينما علم بأننى سأحضر لرؤيتك ....».

قالت "ليا" : « كيف عرف ذلك ؟ ».

واندفع الدم بقوة إلى وجنتى "ليا" ، وأخذت تسُب انفعالها الطائش، وتلعن اليوم الصحو فى الصالون الصغير. أما" مدام بلوكس"، ذات العين الصافية، فقد اعتادت على تقلب ليا.

وقالت : «بالتأكيد، إنه يعرف ذلك. يجب ألا يصيبك الخجل من جرائه، يا عزيزتى ! هل أنتِ طفلة ؟!».

وأجابت ليا قائلة : «أولاً، كيف عرفت أننى عدت ؟».

– أوه، لنبحث الأمر "يا ليا"، لا تسألى أسئلة مماثلة؛ فالجميع شاهدوك فى كل مكان ...

– وقالت "ليا" : «نعم، ولكن ألم يعلم "شيرى" منكِ – عندئذ أننى عُدت ؟»

وردت "مدام بلوكس" قائلة : «لا، يا عزيزتى، إنه هو الذى أعلمنى بذلك ».

وردت "ليا" قائلة : «آه، إنه هو، هو الذى ... ذلك شىء مُضحك ».

كانت "ليا" تسمع دقات قلبها، ولم تجازف باستخدام عبارات طويلة. وقالت : «إنه يا" مدام بلوكس" قال لكِ تفضلى لمعرفة أخبار "نونو" ؛ لأن هذا الطفل متعلق بكِ».

وردت "مدام بلوكس" قائلة : « هذا لطف منك ! »

وكان يبدو أن مدام بلوكس، القرمزية اللون، تترك نفسها لما كان يمليه عليها شراب العرقى المُعتق. وكانت تتحدث، وهى تهز رأسها، كما لو كانت تحلم، ولكن عينها السمراء الذهبية كانت لا تزال ثابتة وساخرة. وكانت تترقب "ليا" المنتصبة القامة، التى تحمى نفسها بنفسها، وتنتظر ضربة مفاجئة، لا تعرفها ...

وقالت "مدام بلوكس" : « إن ذلك لطف منك، ولكنه أمر طبيعى جداً؛ لأن الرجل لا ينسى امرأة مثلك، يا عزيزتى "ليا"، ثم ... هل تريدين أن تعرفى شعورى كله ؟ ما عليكِ إلا أن تصدرى إشارة كى ... ».

ووضعت "ليا" إحدى يديها على ذراع "شارلوت بلوكس"، وقالت برقة : «أوه، لا أريد معرفة كل شعورى».

وتركت "مدام بلوكس" جوانب فمها تنذهل، وتنهدت قائلة بصوت كئيب: «أوه ! إننى أفهمك، وأوافق على ما تقولين؛ فحينما يرتب المرء حياته بشكل آخر مثلك ... إننى حتى لم أحدثك عن نفسى !».

– ولكن بدا لى جيداً أنه إذا ....

– هل أنت سعيدة ؟

– وردت "ليا" قائلة : « سعيدة ».

– وقالت "مدام بلوكس" : « هل هو حب كبير ؟ هل هى رحلة جميلة؟... هل هو لطيف ؟ أين صورته ؟ ... ».

وبعد أن اطمأنت "ليا"، ابتسمت وهزت رأسها قائلة :

«لا، لا، إنكِ لم تعرفى شيئًا ! ابحثى !... ألم يعد لديك مُخبر شرطة، يا "شارلوت" ؟»

– قالت "مدام بلوكس" : « إننى لا أثق فى أى شرطى، وليس ذلك لأن شخصًا ما – رجلاً أو امرأة – حكى ذلك... مما جعلك تشعرين

بإحباط جديد . وبمضايقات كبيرة، منها المضايقة المالية... لا ! لا، إننى كنت أمزح، وأنت تعلمين ماذا أفعل بالمزاح ».

– إن أحداً لا يعرف ذلك أفضل منى، لا يا "شارلوت" العزيزة، اذهبى دون قلق، وبددى قلق أصدقائنا، وتمنى لهم أن يحققوا نصف المال الذى حققته من الوقود من ديسمبر إلى أبريل.

وانقشعت السحابة الكحولية التى كانت تلطف من ملامح" مدام بلوكس"، وظهر وجهها واضحًا وجافًا، ومنتعشًا، وقالت لليا :

«إنك تعملين فى مجال المحروقات ! وكان يتعين علىَّ أن أشك فى ذلك! كما أنك تذكرينه لى !».

– وأجابت "ليا" قائلة : «إنكِ لم تطلبى منى ذلك... وأنتِ لا تفكرين إلا فى عائلتك، وهذا طبيعى جداً !....».

– وردت" مدام بلوكس" بقولها : «كنت أفكر أيضًا فى الولاعات المضغوطة، والحمد لله، إن الأمور أصبحت على ما يرام».

– وقالت "ليا" : «آه ! إنكِ أيضًا لم تذكرى ذلك لى».

– وردت "مدام بلوكس" قائلة :« كيف لى أن أعكر حُلم الحب؟ مطلقًا! سأرحل، يا عزيزتى، ولكنى سأعود».

قالت "ليا" : «إنكِ ستعودين يوم الخميس؛ لأنه حتى الآن، يا عزيزتى "شارلوت"، انقضت أيام الأحد فى "نيوى" ... بالنسبة لى.

هل تريدين أن نقضى أيام الخميس هنا ؟ حيث لم يكن معنا سوى أصدقاء طيبين: الأم ألدونزا، و"بير لابارون" Père-la-Baronne، المحترم والبوكر الخاص بك، وأخيرًا التريكو الخاص بى....».

– وتساءلت "مدام بلوكس" قائلة : «هل تشتغلين بالتريكو ؟».

– وأجابت "ليا" : «ليس بعد، ولكن ذلك سيحدث؛ أليس كذلك ؟ ».

– فقالت "مدام بلوكس" : «إننى أطير من الفرح بسبب ذلك ! انظرى إذا ما كنت أطير ! وأنت تعلمين، ولم أقل ذلك لأحد : إنه قد يطلب الصغير منك كوبًا من خمر ألبرتو يوم الخميس فى المنزل ! وقد يطلب أيضًا قُبلة يا عزيزتى ... ياإلهى، ما أزكى رائحتك ! هل لاحظتِ أنه عندما تكون لدى المرء بشرة رقيقة، فإن العطر يؤثر فيها أفضل ؟ وهذا جميل جدًا».

وقالت "ليا" : «اذهبى، اذهبى ... ».

وتابعت "ليا" المرتجفة بنظرها "مدام بلوكس" التى كانت تعبر الفناء، وقالت : «اذهبى إلى مشاريعك الشريرة ! ولن يمنعك شىء؛ فهل ستلوين قدمك ؟ نعم ، ولكنكِ لم تقعى كما أن السائق الخاص بكِ حذر ولن ينزلق، ولن يصدم عربتك بشجرة، وستصلين إلى "نيوى"، وتختارين لحظتك – اليوم، غدًا، الأسبوع القادم – كى تقولى الكلمات التى ربما لا ينبغى عليكِ أبدًا أن تنطقيها. وستحاولين أن تجدى أولئك الناس

المستريحين، وأقل ما يمكنك فعله، هو أن تجعليهم يضطربون – بعض الشيء – اضطرابًا عابرًا – مثلى ... ».

كانت ساقا "ليا" ترتعشان مثل الحصان بعد جموحه، ولكنها لم تعانى؛ ذلك لأنها كانت تعتنى بنفسها، كما كانت سحنتها تحتفظ بحيوية جميلة فى نظرها، وكانت تعصر منديلها؛ لأن عندها مزيداً من القوة، ولم يمكنها أن تحول فكرها عن "شارلوت بلوكس".

وقالت "ليا" لنفسها : «لقد وجدنا بعضنا، كما يجد الكلبان الخف الذى تعودا على تمزيقه. ياللغرابة ! إن هذه المرأة عدوتى. ومع ذلك، فإن الراحة تأتى منها، كم نحن مرتبطتان ببعض ! ... ».

حلمت "ليا" وقتًا طويلاً، وكانت تشعر بالخوف أحيانًا وتقبل مصيرها، كما أن عدم توتر أعصابها وهبها بعض النعاس القصير، وتأملت وهى جالسة ومرتكزة على خدها تقدمها القريب فى السن، وتخيلت أن أيامها تماثل أيام "شارلوت"، ورأت نفسها فى مواجهة "شارلوت بلوكس"، التى كانت المنافسة الحارة بينهما تحميها لوقت طويل؛ مما كان يقصر الساعات، ويوجد نوع متدرج من عدم الاكتراث الذى يؤدى بالنساء الناضجات إلى أن يهملن أولاً المشد، ثم بعد ذلك الصبغات، وأخيراً الملابس الشفافة. وتذوقت مقدمًا المباهج الأثيمة – لرجل عجوز – وهى ليست سوى صراع سرى، وآمال فى القتال، وتطلعات حامية تتحول باستمرار إلى كوارث لا يسلم منها إلا شخص

واحد، ونقطة واحدة فى العالم – واستيقظت "ليا"، وهى مندهشة فى ضوء الغروب الوردى الذى يشبه ضوء الفجر.

وتنهدت قائلة : «آه ! يا شيرى ...».

لم يكن ذلك سوى نداء مبحوح مشتاق إلى العام السابق، ولم تكن هناك دموع، ولا ثورة فى كل الجسد الذى يعانى وينتفض عندما يصيبه ألم من الرأس يريد أن يدمره ... ونهضت "ليا"، وفركت خدها الذى انطبع عليه أثر تطريز الوسادة ...

وقالت "ليا" : « يا "شيرى" المسكين، هل من المضحك أن أعتقد – أنك وأنت تفقد عشيقتك المتقدمة فى السن، وأنا أفقد عشيقى الشاب الفاجر– أننا إننا فقدنا نحن الاثنين أفضل ما كنا نمتلكه فى الأرض ... ».

ومر يومان بعد زيارة "شارلوت بلوكس"، كانا يومين غامضين طويلين بالنسبة لـ "ليا" التى تحملتهما بصبر وبنفس صامدة. وكانت تقول لنفسها :

«بما أنه يتعين علينا العيش هكذا «فلنبدأ، ولكنها وضعت فى هذه الحياة بعض الرعونة ونوعًا من الاجتهاد غير الضرورى الذى يمكن أن يثبط بدايتها. لقد أرادت أن تخرج فى اليوم التالى، وتذهب إلى البحيرات سيراً على الأقدام حوالى الحادية عشرة صباحًا» .

وقالت "ليا" أيضًا : «إننى سأشترى كلبًا ليرافقنى، ويضطرنى إلى المشى، أما "روز" فقد تعين عليها أن تبحث، فى دواليب الصيف (بلاكار)، عن زوج من الأحذية ذات الرقبة الصفراء والنعال القوية، وعن رداء خشن – إلى حد ما – تفوح منه رائحة الجبل والغاب».

وخرجت "ليا" بمشيتها الجادة التى تفرض نفسها؛ بسبب ارتداء أحذية ما، وملابس معينة من قماش خشن.

وقالت "ليا" لنفسها : «ربما كنت أجازف، من عشر سنين، بحمل عصا». وبالقرب من منزلها أيضًا، سمعت وراءها خطوة فعلية سريعة ظنت أنها تعرفها، واستولى عليها تقريبًا خوف مذهل لم يكن لديها الوقت للتخلص منه، وكان ذلك رغمًا عنها ، لدرجة أنها تركت نفسها كى يسير وراءها شاب غير معروف كان متعجلاً ، وقد تخطاها ولم ينظر إليها».

وتنفست الصعداء وهى تشعر بالارتياح، وقالت : «إننى شديدة السذاجة !»

واشترت لسترتها زهرة قرنفل غامقة اللون، ثم رحلت مرة أخرى، ولكن كان أمامها – وعلى بعد ثلاثين خطوة – خيال رجل كان ينظر إلى الضباب الشفاف الذى كان يغطى مزروعات الشارع.

وقالت فى نفسها : «بالنسبة إلى هذا الأمر، أعرف طريقة تفصيل السترة التى يرتديها هذا الشخص والطريقة التى يلعب بها بالعصا ...

آه ! لا، شكرًا، لا أريد أن يرانى هذا الشخص وأنا ألبس حذاءً مثل حذاء ساعى البريد، وسترة تجعلنى ضخمة، ماذا أفعل بلقاء هذا الشخص؟ إننى أفضل أن يرانى بشكل آخر؛ لأنه لم يستطع أبدًا أن يتحمل اللون البنى، وقبل كل شىء ... لا، لا، سأعود، إننى ... ».

وفى هذه اللحظة، أوقف الرجل الذى كان ينتظر سيارة أجرة خالية، وصعد داخلها، ومر أمام "ليا" ، كان شابًا أشقر له شارب صغير وقصير، ولكن "ليا" لم تبتسم، ولم تصدر منها بادرة ارتياح، ؛ فعادت أدراجها، ورجعت إلى منزلها.

وقالت "ليا" لـ "روز" : «إنها واحدة من الانفعالات الحارة ... أعطنى ثوبى الوردى الجديد، والكاب الكبير المطرز ؛ بدون أكمام؛ حيث أننى أختنق من ارتدائى الملابس الصوفية».

كانت "ليا" تفكر قائلة: «إن الأمر لا يستحق الإلحاح الشديد؛ ففى مرتين متعاقبتين، لم يكن الذى شاهدته من قبل هو "شيرى"؛ أما المرة الثالثة فربما يكون هو، وأنا أعرف مثل هذه التصرفات الصغيرة، وليس لدينا مايمكننا أن نفعله إزاءها، واليوم لا أحس برغبة فى الثورة على أحد؛ فأنا الآن هادئة الطبع».

وشرعت طوال اليوم فى محاولاتها المستمرة للبقاء وحدها، وخففت عنها قراءة الصحف وتناول السجائر بعد الغداء، وقد تلقت بفرحة عابرة اتصالاً تليفونيًا من "بارونة البرش"، ثم اتصالاً آخر من "سبيلوف"

عشيقها السابق؛ أى تاجر الخيول الجذاب الذى رأته سائرًا بالأمس، وعرضت عليه أن تبيع له حصانين.

وتبع ذلك الموقف ساعة طويلة من الصمت التام المخيف.

وقالت "ليا" : « لننظر فى الأمر، لننظر فى الأمر ... ».

وكانت تسير ويداها على عجزيها، وفى إثرها الكاب الرائع المطرز بالذهب والورود، وكانت ذراعاها عاريتين.

قالت "ليا" لنفسها : «لنبحث الأمر، لنبحث الأمر، ولنحاول أن نتبينه، ولن تضعف معنوياتى فى اللحظة التى لا يحتفظ فيها هذا الغلام بى فى قلبه. ومنذ ستة أشهر أعيش وحيدة. وفى الجنوب أشعر بالراحة، أولاً: لأننى أغير المكان، ولأن علاقاتى مع مواطنى "الريفيرا" Rivièra أو "البرينيه" Pyrénées لها طبيعة طيبة، وأشعر بعد مغادرتهم بالانتعاش...، كما أن كمادات النشا التى يضعونها على الجروح لا تشفى، ولكنها تخفف الآلام، شريطة أن تُستخدم طول الوقت من جديد، ولكن ستة أشهر من التنقلات تناسب قصة "سارة كوهين" Sarah Cohen البشعة التى تزوجت وحشًا، وقالت ليا أيضًا : «فى كل مرة أراه، أعتقد أننى جميلة، ولكن قبل هذه الستة أشهر، كنت أعرف ماذا تعنى المعيشة المنفردة، فكيف عشت بعد أن تركت "سبيلوف" ، مثلاً ؟ آه، نعم، لقد تسكعت بإصرار فى البارات والحانات مع" بترو"، وبعد ذلك، كان عندى "شيرى". وقبل "سبيلوف" ، كان عندى الصغير

"لوكيلوك" Lequellec الذى انتزعته منى عائلته لتزوجه ... يا له من صغير مسكين ! كانت عيناه الجميلتان مغرورقتين بالدموع! ... وبعده بقيت وحيدة أربعة أشهر على ما أذكر. وفى الشهر الأول بكيت كثيراً ! آه ! لا، لقد كان بكائى على "بكسيوتشى" Bacciocchi أكثر، ولكن عندما توقفت عن البكاء، لم يعد بوسع أحد الاعتقاد بأننى سعيدة لكونى وحيدة. نعم ! ولكن كان عندى فى زمن "بكسيوتشى" ثمانٍ وعشرون سنة، وبعد "لوكيلوك" ، كان عندى ثلاثون، وبينهما، عرفت ... لا يهم. وبعد "سبيلوف"، تقززت من الأموال التى لم أحسن إنفاقها، بينما بعد "شيرى"، كان عندى... عندى خمسون عاماً، وارتكبت حماقة الاحتفاظ به سبع سنوات ».

وقطّبت "ليا" جبينها، وبدا أنها غير جميلة بسبب عبوس وجهها المكفهر. لكنها قالت : «ذلك حسن بالنسبة لى، إنه لا يمكن الاحتفاظ بعشيق لمدة سبع سنوات فى مثل عمرى، سبع سنوات ! لقد سلبنى ما بقى منى، وكان يمكننى أن أستخلص من هذه السنوات السبع متعتين صغيرتين أو ثلاثًا تتناسب معى جداً، بدلاً من الحسرة الكبيرة ... إن وجود علاقة مدتها سبع سنوات هى بمثابة اتباع زوج إلى المستعمرات: وعند العودة لا يعرفك أحد، ولا نعرف كيف تستخدم مساحيق التجميل».

ولكى تدخر قواها دقت الجرس لـ "روز" ، وأخذت ترتب معها الخزانة الصغيرة الخاصة بالمنزل والمحاطة بالدانتيل. وأقبل الليل، وأضيئت المصابيح، واستُدعيت "روز" لكى تعتنى بالمنزل.

وقالت "ليا" لنفسها : «غداً، سأستدعى السيارة، وأذهب لزيارة مريض[1] تجويد نسل الخيل النورماندى الخاص بـ "سبيلوف"، وسأصطحب معى "الأم لابرش" إذا رغبت ؛ لأن ذلك سيثير معدتها القديمة. وأقسم، لو نظر إليها "سبيلوف" الصغير بعينيه، فلن أقول إلا ... ».

وتحملت عناء الابتسام بشكل غامض ومثير كى تبدد الأشباح التى يمكن أن تتراءى لها حول التسريحة أو السرير المخيف الذى يلمع فى الظلام، ولكنها كانت تشعر أنها باردة جداً، ومليئة بالاحتقار لرغبة الآخرين.

وكان عشاؤها المكون من السمك الخالص والحلوى بمثابة فسحة من الوقت لها، واستبدلت بخمر البوردو شمبانيا، وأخذت تدندن وهى تغادر مائدة الطعام. وفاجأتها الساعة الحادية عشرة، بينما كانت تقيس - بعصا - عرض القوائم التى بين النوافذ فى غرفتها؛ حيث كانت تعتزم

(١) مربض : مكان .

إحلال ستائر مُشجرة ومزخرفة بالزهور محل المرايا الكبيرة، وتثاءبت، وحركت رأسها، ودقت الجرس كى تستعد لزينة الليل.

وبينما كانت "روز" تخلع الجوارب الحريرية الطويلة، كانت "ليا" تتأمل يومها المنصرم، وتستغرق فى الماضى، وكان ذلك يمتعها كأنه كتاب مقرراً عليها انتهت منه. وبعد أن شكَّل الليل بالنسبة إليها حماية من خطر الفراغ، كانت تحسب الفارق بين ساعات النوم وساعات الأرق؛ لأن القلق يغطى - مع قدوم الليل - الحق فى التثاؤب بصوت مرتفع، والحق فى التنهد، والحق فى لعن عربة موزع اللبن، وعمال النظافة الكسالى.

وأثناء قيامها بحمام الليل، فكرت "ليا" فى مشروعات غير ضارة ربما لم تُحققها.

وقالت : «إن "ألين مسماكير" **Aline Mesmacker** عندها بار ومطعم تكسب منهما ذهبًا ... وبالطبع، فإنه عمل تنشغل به، وتوظيف لمالها فى الوقت نفسه ... ولكنى لا أرى نفسى أمام الخزينة، ولو عينت مديرة، فإن الأمر لا يساوى عندى كل هذا التعب. وتقوم "دورا" **Dora** و"فيفى السمينة" **La grosse Fifi** بإدارة عُلبة ليل[1] معًا، كما قالت لى

(١) علبة ليل : المقصود بها ملهى ليلىّ .

الأم دى برش، ولكن ذلك يبدو تقليعة جديدة. وهن يلبسن ياقات صناعية وسترات سموكنج كى يجتذبن عملاء معينين. وللسمينة فيفى ثلاثة أبناء تربيهم، وهذا أعذر... ويوجد أيضًا "كوهين" الذى يشعر بالضيق، والذى يمكن أن يأخذ رءوس أموالى ليؤسس بيت أزياء جديدًا ... ».

ورشت "ليا"، وهى عارية تمامًا - ولونها لون الورد الطوبى من جراء انعكاس طقم حمامها الإيطالى - عطر الصندل على جسمها، وأخذت بسرور لاشعورى تلبس قميصًا طويلاً من الحرير، وقالت لنفسها:

« إننى أعلم أن ذلك مجرد كلمات؛ فإننى أعلم تمامًا أننى لا أحب العمل. هيا إلى السرير، أيتها السيدة ! فلن يكون لى أبدًا منضدة حسابات؛ لأن العملاء قد رحلوا».

وتدثرت بغلالة بيضاء ملونة الأطراف، تعطى لمعانًا ورديًا لا يمكن إدراكه، وعادت "ليا" إلى تسريحتها، وراحت ذراعاها يمشطان شعرها، ويسندان هذا الشعر الذى جففته الصبغة، وظهر بينهما وجهها المُتعب. وظلت ذراعاها جميلتين جدًا، كما ظهر إبطها الممتلئ ذو العضلات حتى رسغها المستدير، وأخذت تتأمل ذلك لحظةً، وقالت لنفسها : «إنها مقابض جميلة، ولكن لقازة عتيقة !»

ووضعت بيديها - دون اكتراث - مشطًا أشقر على مؤخرة شعرها، واختارت - من مكتبها المُظلم - رواية بوليسية دون أمل كبير فى قراءتها؛ فلم يكن عندها تذوق للكتب المجلدة، ولم تقلع مطلقًا عن أن

تضع كتبها، وعبوات الدواء، وصناديقها الفارغة المصنوعة من الكرتون، داخل خزانات الحائط (البلاكار).

وبينما كانت تلمس - وهى منحنية - قماش الباتسته الناعمة والباردة الموضوعة على سريرها غير المرتب، دوى جرس الفناء. وقد أساءت هذه الدقَّة الغليظة الدائرية الغريبة، الصوت إلى منتصف الليل.

وقالت "ليا" بصوت مرتفع : «هذا، على سبيل المثال ...».

كانت تسمعه - وفمها نصف مفتوح - وهى تحبس نفسها. ودق الجرس مرة أخرى، وبدت أكبر من الأول، وجرت "ليا" - بحركة تلقائية من التحفظ والحياء - لتضع البودرة على وجهها. كانت تنادى "روز" عندما سمعت باب المدخل الخارجى وهو يصطك، وسمعت وقع أقدام فى الصالة وعند السُّلَّم، وسمعت صوتين مختلطين ببعضهما، هما صوت الوصيفة وصوت آخر. ولم يكن لديها الوقت لتتخذ قرارًا، وقد فُتح الباب بقوة . « كان شيرى» أمامها، مرتديا معطفًا مفتوحًا تحت حلة إسموكنج، وكانت قبعته على رأسه، وظهر شاحبًا سيئ المظهر. وأسند ظهره إلى الباب المغلق، ولم يتحرك. ولم ينظر- بصفة خاصة - إلى "ليا"، ولكن نظر إلى الغرفة كلها؛ بحيث مسح أرجاءها تمامًا كما لو كان هناك شخص يتعرض للهجوم.

أما "ليا" التى كانت قد اضطربت فى الصباح من أجل شبح خمنته فى الضباب؛ فلم تشعر حتى تلك اللحظة بأى اضطراب، اللهم إلا بعدم

السرور الذى تشعر به امرأة شخص ما أثناء استحمامها. ومرت بجوار التسريحة، ووضعت مشطًا، وبحثت بقدمها عن فردة خف سقطت منها، واحمر وجهها، ولكن عندما ذهب هذا الاحمرار من خديها، اتخذت مظهر الهدوء، ورفعت رأسها، وبدت أكثر طولاً من هذا الشاب – الذى بدا شديد السواد – الواقف قريبًا منها بجوار الباب الأبيض.

وقالت بصوت عالٍ : «هذه طريقة أخرى للدخول، بوسعك أن تخلع قبعتك، وتقول صباح الخير».

– وقال شيرى بصوت أجش : «صباح الخير».

وبدا أن نغمة صوت "ليا" قد أثارت دهشة "شيرى"، فنظر بشكل أكثر إنسانية حوله، وارتسمت ابتسامة على فمه قادمة من عينيه، وكرر برقة قائلاً :

« صباح الخير ...».

وخلع قبعته ومشى خطوتين أو ثلاثًا، ثم قال : « هل بوسعى أن أجلس ؟».

– قالت "ليا" : «إذا أردت».

وجلس على وسادة، ورأى أن "ليا" لا تزال واقفة؛ فقال : «هل كنتِ تلبسين ملابسك ؟ ألن تخرجى ؟ »

وأشارت "ليا" بالنفى، وجلست بعيداً عنه، وأخذت مصقلة أظافر، ولم تتكلم. وأشعل "شيرى" سيجارة، وطلب الإذن بتدخينها بعد أن أشعلها.

وكررت "ليا" الكلام قائلة بعدم اكتراث : « إذا رغبت».

وصمت "شيرى" ، وأخفض عينيه، واضطربت اليد التى كانت تمسك بالسيجارة اضطراباً حقيقياً، ولاحظ هو ذلك، ووضع يده على حافة المائدة. وكانت "ليا" تعتنى بأظافرها بحركات بطيئة، وتلقى من وقت إلى آخر نظرة سريعة على وجه "شيرى"، وبخاصة على جفنيه المنخفضين، وعلى أهداب رموشه السوداء.

وقال "شيرى" أخيراً : «إن "إرنست" هو الذى فتح لى الباب كما كان يفعل دائماً».

– لماذا لا يكون هو "إرنست" ؟ هل كان ينبغى أن أغير من يعملون عندى لأنك كنت تتزوج ؟

– وقال "شيرى" : «لا ... ليس ذلك ما كنت أقول ... ».

وساد الصمت، وقاطعته "ليا" قائلة : «هل يمكن أن أعرف إذا كانت لديك النية فى أن تبقى جالساً طويلاً على هذه الوسادة (البوف) ؟ بل إننى لا أسألك لماذا سمحت لنفسك أن تدخل عندى فى منتصف الليل ... ».

– وقال "شيرى" بشدة : «يمكنك أن تسألى ذلك ».

وهزت "ليا" رأسها قائلة : « ذلك لا يعنينى».

ونهض "شيرى" بقوة، ودفع الوسادة (البوف) خلفه، واتجه إلى "ليا"، وشعرت به وهو مائل عليها كما لو كان سيضربها، ولكنها لم تتراجع. وكانت تفكر قائلة : «من أى شيء يمكن أن أخاف فى هذا العالم ؟ »

قال "شيرى" : «آه ! إنك، إنك، أتعرفين ماذا جئت أصنع هنا ؟ ألا يمكنك أن تعرفى ماذا جئت أصنع هنا ؟ »

وخلع معطفه، وقذف به على كرسى التمدد، وشبك الذراعين، وصاح من قريب فى وجه "ليا" بنغمة مكتومة منتصرة ، قائلاً: « إنى عائد ! »

كانت "ليا" تعبث بملقاط صغير دقيق أغلقته بعنف قبل أن تمسح أصابعها، وسقط "شيرى" مرة أخرى جالسًا كما لو كان قد استنفذ كل قواه.

وقالت "ليا" : «حسنًا، إنك تعود، هذا جميل جدًا ، من الذى استشرت من أجل هذا ؟».

قال : «أنا».

وتركتها خفقات قلبها الهادئ تتنفس براحتها، وكانت تريد أن تلعب دورها بالتمام.

وقالت لـ "شيرى" : «لماذا لم تأخذ رأيى ؟ إننى رفيقة قديمة تعرف حركاتها بوصفك قطًا صغيرًا، كيف لم تفكر فى أنك عندما دخلت هنا يمكن أن تضايق ... شخصًا ما ؟ »

وتفقَّد "شيرى" – ورأسه إلى أسفل – الغرفة أفقيًا، بأبوابها المُغلقة، وبالسرير المُدرع بالمعدات، وكذلك حافة السرير التى توجد عليها الوسادة الضخمة. ولم يرَ شيئًا غريبًا، ولا شيئًا جديدًا، وهز كتفيه. كانت "ليا" فى وضع انتظار أفضل، وقالت بإلحاح : «أتفهم ما أعنى ؟ ».

– وأجاب "شيرى" قائلاً : « حسنًا جدًا، ألم يعد السيد ؟ ، أيبيت خارج المنزل ؟».

– وقالت "ليا" بهدوء : «ليس ذلك من شئونك، يا صغيرى».

وعض "شيرى" شفتيه ، وهز بعصبية رماد سيجارته داخل كأس مُرصَّع.

وصاحت "ليا" قائلة : «ألا أقول لك دائمًا لا تلقيه هنا ؟! كم مرة ينبغى أن أقول لك إن ... ؟ »

وقطعت كلامها، ولامت نفسها على أنها استأنفت رغمًا عنها لهجة المناقشات الاعتيادية، ولكن لم يبدُ عليه أنه يفهمها ، بل كان يتفحص خاتمًا من الزمرد اشترته "ليا" أثناء سفرها.

وتلعثم فى الكلام قائلاً : « ما ... ما هذا ؟».

– وقالت : « هذا ؟ إنه زمرد».

فرد "شيرى" قائلاً : «إننى لست أعمى ! أريد أن أقول : من الذى أعطاكِ إياه ؟ ».

– فردت "ليا" قائلة : «ألا تعلم؟ ».

– قال "شيرى" بمرارة : « إنه رائع ! ».

واستردت "ليا" كل سطوتها خلال لهجة كلامها، وسمحت لنفسها بمتعة أن تضلل قليلاً الشخص الذى ترك لها هذه الميزة.

فقالت : «أليست هذه زمردة رائعة ؟ لقد أثنى الجميع عليها فى كل مكان، كما أن إطارها يتكون من عدد كبير من القطع اللامعة التى ...».

– وصاح "شيرى" بغضب، وهو يضرب بقبضته على المنضدة الهشة قائلاً : «كفى !»

ومن أثر الصدمة، تناثرت بعض الورود، كما أن كأسًا من الصينى انزلق على البساط السميك دون أن ينكسر. ومدت "ليا" يدها نحو التليفون، ولكن "شيرى" أوقفها بذراعه الخشن قائلاً : « ماذا تريدين بهذا التليفون ؟».

– قالت : «أريد الاتصال بالبوليس».

وأخذ ذراعيها، وتظاهر ببعض الشقاوة الصبيانية وهو يدفعها بعيداً عن التليفون.

وقالت "ليا" : «اذهب، اذهب، الأمر على ما يرام، لا أريد مِزاحًا ! لا يمكن للمرء أن يقول شيئًا دون أن تجعل منه شيئًا دراميًا على الفور ... ».

جلست "ليا"، وأدارت ظهرها، وظل هو واقفًا، ويداه خاويتان، وفمه نصف مفتوح ومنفوخ مثل غلام مستاء. كان هناك خيط أسود يغطى حاجبيه. وفى المرآة – ودون أن يعلم – كانت "ليا" تراقبه، ولكنه جلس واختفى وجهه فى المرآة. وبدورها شعرت "ليا"، التى أصابها الضيق، بأنه يراها من ظهرها، وقد زادت الغلالة الفضفاضة من حجمها. وعادت "ليا" إلى تسريحتها، وأسدلت شعرها، وأخذت مشطها، وفتحت قنينة عطر كما لو كانت تتسلى بها. أما "شيرى" فقد أدار رأسه نحو الرائحة، ونادها قائلاً : « نونو ! »

ولكنها لم ترد، فكرر القول : « نونو ! »

– وقالت "ليا" بصيغة الأمر دون أن تلتفت : « اطلب السماح».

ولكن "شيرى" قال :

« أتعتقدين ذلك ؟!».

– وقالت "ليا" : «إننى لا أجبرك، ولكنك ستذهب من هنا . وفوراً ....».

ورد "شيرى" بسرعة، وبعصبية، قائلاً : « سامحينى ! ».

– وقالت "ليا" : « قُلها أفضل من ذلك ! ».

– وأعاد "شيرى" القول بصوت خفيض : «عفواً».

– وقالت له "ليا" : « حسنًا ! »

وعادت "ليا" إليه، ووضعت، يدها بخفة عليه – ورأسها مائلة – قائلة :

« هيا، احكِ لى».

وشعر بقشعريرة، وهز يدها المداعبة، وقال :

«ماذا تريدين أن أقص عليكِ ؟ إن الأمر ليس بهذه الصعوبة؛ فأنا عائد إلى هنا، وهذا هو الموضوع ».

– وقالت "ليا" : « احكِ، هيا، احكِ ».

وتأرجح "شيرى" على مقعده واضعًا يديه بين ركبتيه، ورفع رأسه نحو "ليا"، لكن دون أن ينظر إليها. كانت ترى منخارى "شيرى" البيضاوين ينبضان، وسمعت تنفسًا سريعًا يحاول أن يضبط نفسه، ولكن لم يكن أمامها سوى أن تقول مرة أخرى : « هيا، احكِ ... »، ودفعته بإصبعها كى تسقطه؛ فنادها قائلاً :

« حبيبتى" نونو" ! حبيبتى" نونو" !»، وألقى نفسه عليها بكل قواه، وهو يحتضن أعلى الساقين اللذان انطوايا. وتركته – وهى جالسة – ينزلق على الأرض يتدحرج عليها ذارفًا الدموع، وينطق بكلمات مضطربة، ويداه تتحسسان وتتعلقان بدانتيل "ليا" وبعقدها، وتبحثان تحت ثوبها عن كتفها ومكان أذنها تحت شعرها.

وقال : «حبيبتى" نونو" ! ها أنا أجدكِ مرة أخرى ! يا" نونو" الحبيبة ! آه حبيبتى" نونو"، إن كتفكِ، بل حتى رائحتك، وعقدك، يا حبيبتى، آه ! كل ذلك مدهش ، كما أن ذوقك فى تلوين شعرك باللون المتوهج، آه ! إنه ... إنه مدهش ...».

وأخرج – وهو مضطرب – هذه الكلمة الحمقاء كما لو كانت آخر نفس فى صدره. وحضن "ليا" بين ذراعيه وهو جاثٍ على ركبته، وأراها جبهته التى يعلوها الشعر، وفمه المضطرب المبلل بالدموع، وعينيه المملوءة بدموع الفرح، وتأملته بعمق شديد، ونست تمامًا أى شىء غيره، لدرجة أنها لم تفكر فى أن تعطيه قُبلة. وطوقت رقبة "شيرى" بذراعيها، وحضنته بحنان على إيقاع الكلمات التى كانت تتمتم بها قائلة :

« يا عزيزى ... وحبيبى الشقى ... وها أنت ذا .... ها أنت ذا قد رجعت ... ماذا فعلت أيضًا ؟ إنك شرير جداً... أيها الجميل...».

كان "شيرى" يئن بهدوء وفمه مغلق، ولم يكن يتكلم كثيراً ، بل كان يسمع "ليا" وهو يضع خده على صدرها. وقال لها راجياً : «مرة أخرى!»

وعندما علقت بسؤالها الرقيق، قامت بتوبيخه برقة، بنفس اللهجة، وهى تخشى أن تبكى أيضاً، وقالت له :

«أيها الحيوان السيئ ... أيها الشيطان الصغير بلا قلب ... أيها الخبيث، اذهب...».

ورمقها "شيرى" بنظرة عرفان قائلاً : « وهو كذلك، وبخينى ، آه ! يا نونو ... ».

وأزاحته من جانبها كى تراه أفضل، وقالت : « هل كنت تحبنى إذن ؟ »

وخفض عينيه باضطراب صبيانى، وقال : « نعم، يا" نونو".

ولم تستطع "ليا" أن تكتم قهقهة مختنقة ، جعلتها على وشك أن تترك نفسها لأشنع فرحة فى حياتها. وتصورت العناق والسقوط والسرير المُعد للحب، وهذين الجسدين الملتصقين معًا، وكأنهما قطعتان حياتان لحيوان واحد جرى تقسيمه ... وقالت "ليا" لنفسها : « لا، لا، لم يحن الوقت بعد، أوه ! لم يحن الوقت بعد ... ».

وتنهد "شيرى" قائلاً : «إننى عطشان، يا" نونو"، إننى عطشان ... ».

وقامت بسرعة، وتحسست بيدها دورق الماء الفاتر، ثم خرجت كى تعود بسرعة. أما "شيرى" المنبطح على الأرض، فكان قد وضع رأسه على الوسادة (البوف).

وقالت "ليا" : «لقد أحضروا لك شراب الليمون؛ فلا تمكث هنا. فتعالَ لتجلس على كرسى التمدد، هل يضايقك هذا المصباح ؟ »

كانت "ليا" تقشعر من السرور وهى تقوم بالخدمة وتصدر الأوامر. وجلست فى وسط كرسى التمدد، وتمدد "شيرى" نصف تمديدة فى مواجهتها.

وقالت له : « إنك ستتحدث إلىَّ قليلاً، الآن ... ».

إلا أن دخول "روز" قطع الكلام، وأدار "شيرى" رأسه بفتور نحو "روز" دون أن ينهض، وقال لها : « صباح الخير ».

وردت "روز" باحتشام قائلة : « صباح الخير، يا سيدى ».

وقال "شيرى" : « يا "روز"، أريد فى التاسعة صباح غد .... ».

وأكملت" روز" الكلام قائلة : «شطائر وشيكولاته » ، وأعاد "شيرى" غلق عينيه ، وتنهد برضا قائلاً :

«إنكِ سريعة البديهة ! يا "روز"، أين سأرتدى ملابسى صباح غد ؟ ».

– وأجابت "روز" بمجاملة : « فى الصالون الصغير، يجب فقط دون شك أن أُخرج الأريكة، وأن أضع مايلزم للزينة كما كان الحال سلفًا ؟..»

كانت "روز" تنظر إلى "ليا" التى كانت تتمدد بكبرياء، والتى كانت تسند جسد هذا الغلام الشقى الذى كان يشرب.

وقالت "ليا" : «إذا أردت، يا "روز"، افعلى ذلك، وسنرى الأمر. اذهبى يا "روز".»

وذهبت "روز"، وفى أثناء فترة الصمت التالية، لم تسمع للريح إلا همهمة مكتومة ، وصوت أحد الطيور الذى خدعه ضوء القمر.

وقالت "ليا" : « هل تنام يا شيرى ؟ »

وتنهد "شيرى" تنهيدة طويلة كأنه كلب صيد، ثم قال :

«أوه ! لا، يا" نونو"، فإننى على أحسن مايرام لدرجة أننى لا أريد النوم ».

وقالت "ليا" : « قل لى، يا صغيرى ، ألم ترتكب إثمًا هناك ؟ ».

فرد قائلاً : « فى بيتى ؟ لا، يا" نونو"، على الإطلاق، وأقسم لكِ بذلك ».

وقالت "ليا" : « ألم يكن هناك مشهد ما ؟ »

ونظر "شيرى" إليها من أسفل، دون أن يرفع رأسه الواثقة من نفسها، وقال :

« قطعًا لا، يا" نونو". لقد رحلت لأننى رحلت. كانت الصغيرة لطيفة جدًا، ولم يحدث أى شىء ».

– وقالت "ليا" : «آه ! آه!».

– وأجاب "شيرى" قائلاً : «لم يكن بوسعى أن أضع يدى فى النار دون أن يكون لديها فكرة عن ذلك، على سبيل المثال. كان عندها فى ذلك المساء مايمكن أن نطلق عليه رأس اليتيمة – كما تعلمين – وعينين شديدتى السواد وشعرًا جميلاً...وأنتِ تعرفين مدى جمال شعرها ».

– أجابت "ليا" قائلة : « نعم ... ».

ولم تكن تتحدث إلا بكلمات بسيطة وصوت خفيض، كما لو كانت قد استمعت إلى نائم يتحدث وهو يحلم.

واستمر "شيرى" فى كلامه قائلاً : « إنها لابد أن تكون قد رأتنى وأنا أعبر الحديقة ».

– فأجابت "ليا" قائلة : « آه ؟ !».

فرد "شيرى" بقوله : «نعم، وقد كانتِ فى الشرفة بثوبها الأسود والأبيض، وكان الأبيض ناصعًا، أوه أنا لا أحب هذا الثوب ... هذا الثوب يشعرنى بالهروب منذ العشاء .... ».

– وقالت "ليا" : « أحقًا ؟ ».

– فأجاب : « قطعًا نعم، يا نونو، ولا أعرف ما إذا كانت شاهدتنى؛ لأن القمر لم يسطع بعد، ولكنه ظهر عندما كنت أنتظرُ ».

وقالت "ليا" : « أين كُنت تنتظر ؟ »

وأشار "شيرى" بيده نحو الشارع الرئيسى بغموض، قائلاً :

«هناك ، كنت أنتظر، أتفهمين. كنت أريد أن أرى، وانتظرت لوقت طويل».

– وقالت "ليا" : «ولكن ماذا ؟ »

وتركها فجأة، وجلس عن بعد، وأعاد استخدام تعبير عدم الثقة البدائى، قائلاً :

« انتبهى، لقد كنت أريد أن أتأكد أنه لا يوجد أحد هنا».

– وقالت "ليا" : « آه ! نعم... كنت تفكر فى ...».

ولم تستطع "ليا" أن تكتم ضحكة مليئة بالسخرية، هل كان لديها عاشق؟ عاشق، طالما كان "شيرى" حيًا ؟ وكان ذلك أمرًا مضحكًا، وفكرت قائلة بحماس : «يا له من أبله ! »

وقال لها "شيرى" : « هل تضحكين ؟ »

وقف "شيرى" أمامها، وأدار لها رأسها بيده التى وضعها على جبهتها.

وأضاف "شيرى" قائلاً : «أتضحكين ؟ أتسخرين منى ؟ هل لديكِ ... هل لديكِ عشيق ؟ هل لديك شخص ما ؟ »

كان ينحنى حينما يتكلم، وكان يلمس مؤخرة رأسها الموضوعة على كرسى التمدد. كانت "ليا" تتحسس جفنيها بأنفاس هذا الفم الذى يهينها، ولم تبذل أى جهد لكى تتخلص من اليد التى كانت تتحسس جبهتها وشعرها.

وقال "شيرى" : « تجرئى إذن وقولى ذلك، إن لكِ عشيقًا ! »

وحركت جفنها، وهى مندهشة من قرب هذا الوجه الساطع الذى كان يتجه نحوها، وقالت أخيراً بصوت مكتوم :

« لا ليس لى عشيق. إننى أحبك ... ».

وتركها، وأخذ يخلع لباسه الإسموكنج وصدريته ورباط عنقه، وأخذ يصفر فى الهواء، وجرى نحو تمثال "ليا" النصفى الموضوع فوق المدفأة. ومع ذلك لم يبتعد عنها، وكان يمسك بها، ويضع ركبته مقابل ركبتها، وهى تجلس على كرسى التمدد. وحينما رأته نصف عارٍ، سألته بنبرة شبه حزينة قائلة :

« هل تريد ممارسة الحب ؟ .... أليس كذلك ؟ .... »

ولم يرد عليها "شيرى"، الذى سيطرت عليه فكرة الشهوة القريبة، والرغبة التى كانت عنده فى امتلاكها. وخضعت "ليا" للأمر، واستجابت

إلى رغبة عشيقها الشاب بوصفها عشيقة جيدة، منتبهة وجادة. ومع ذلك كانت ترى – وهى فى حالة من الفزع – أن لحظة هزيمتها قد أزفت، وعنَّفت "شيرى" كما لو كانت تعذبه، ثم تدفعه بيديها دون قوة وتحجزه بين ركبتيها القويتين. وأخيراً أمسكته من ذراعه، وصاحت بضعف، واستغرقت فى هذه الهوة التى صعد منها الحب شاحبًا وساكنًا ومليئًا بالأسف، ولم يتركا بعضهما، ولم تعكر أى كلمة هذا الصمت الطويل الذى كانا يستعيدان فيه الحياة، وانزلق جسم "شيرى" على بطن "ليا"، وكان رأسه المتدلى يستند – وهو مغلق العينين – إلى الملاءة، كما لو كان قد اغْتيل وهو فى حجر عشيقته.

أما هى، فكانت مستديرة قليلاً نحو الجانب الآخر، وكانت تتحمل ثقل جسد "شيرى" الذى لم يكن يرحمها. كانت تلهث بصوت خفيض، كما كان ذراعها الأيسر يؤلمها، أما "شيرى" فكان يشعر بأنه يخدر مؤخرة رأسها، ولكنَّ كليهما كان ينتظر – بلا حراك تام – أن تبتعد عنهما الشهوة، وأن تتناقص صاعقتها.

وقالت "ليا" لنفسها : « إنه ينام»، رغم أن يديها الطليقة كانت لا تزال تمسك بمعصم شيرى الذى قبضت عليه برقة، كما أن رقبة "شيرى" التى كانت "ليا" تعرف شكلها النادر– شديدة الالتصاق

بركبتها. وفى أعلى قلبها كانت تلاحظ دقة منتظمة ومكتومة. وكان العطر المفضل لدى "شيرى" ينتشر بقوة ، وكان هذا العطر خليطًا من الزهور الكثيفة ومن عطر الأشجار الأجنبية.

وقالت "ليا" لنفسها : «إنه هناك» ، وسادها بالكامل أمان غير منتصر، وصاحت فى داخلها قائلة : «إنه هنا للأبد»، وتراجع كل شىء : حذرها المتزن، وحسها الباسم اللذان كانا يوجهان حياتها، وكذلك انحصر ترددها المهين فى سن نضجها، وكذلك تنازلها، اختفى كل ذلك أمام شراسة الحب العجيبة.

وقالت "ليا" لنفسها أيضًا: «إنه هنا ! تاركًا منزله، وامرأته الساذجة الصغيرة الجميلة، إنه عاد، عاد إلىّ ! ومن يمكنه أن ينتزعه منى ؟ والآن، الآن سوف أنظم حياتنا ... وهو لا يعلم دائمًا ماذا يريد، ولكننى أعلم. وبكل تأكيد، ستكون هناك ضرورة لرحيل ما. وإننا لا نختبئ، ولكننا نبحث عن الهدوء ... ثم يلزمنى الاستمتاع برؤيته؛ لأنه إذا لم يتعين علىَّ أن أنظر إليه جيداً، فى الوقت الذى لم أكن أعرف فيه أننى كنت أحبه. يلزمنى بلد يكون فيه مكان لنزواته ولرغباتى ... أما أنا فسأفكر لكلينا معًا، وعليه هو أن ينام ... ».

وبينما كانت تخلص بحذر ذراعها الأيسر الذى أصابه التنميل والألم، وكتفها الذى جمدته عدم الحركة، نظرت إلى وجه شيرى الملتفت إلى الجهة الأخرى، ورأت أنه لا ينام. وكان بياض عينه يلمع، كما كانت الناحية السوداء الصغيرة من رموشه تضطرب دون انتظام.

وسألته قائلة : « ما هذا؟ ألا تنام ؟ »

وأحست به يرتعد نحوها، واستدار بالكامل بحركة واحدة، وقال لها :

« ألا تنامين أنت أيضًا، يا" نونو" ؟ »

ومد يده نحو المنضدة الموضوعة بجوار السرير وأطفأ المصباح، وغطت مساحة من الضوء الوردى السرير الكبير، وأحدثت نتوءات فى الدانتيل، وخيوطًا من الظل بين الخياطات الغليظة لغطاء السرير الذى نفخه هبو القماش. أما "شيرى"، المتمدد، فكان يبحث عن مجال لراحته ولألعابه التى يهواها. أما "ليا"، المتكئة على مرفقها بالقرب منه، فكانت تلاعب بيدها حواجبه الطويلة التى كانت تحبها، وكانت تزيح شعره إلى الخلف. وهكذا بدا "شيرى" ، وهو نائم وشعره أشعث حول جبهته، كأن ريحًا عاتيةً قد بعثرته.

ودقت ساعة الحائط المصنوعة من المينا، واعتدل "شيرى" فجأة وجلس، وقال :

« كم الساعة ؟ ».

– وردت "ليا" قائلة : « لا أعرف، ماذا يمكن أن يعنينا فى ذلك ؟».

– وقال "شيرى" : «أوه ! كنت أسأل فقط ... »

وضحك ضحكة قصيرة، وعاد إلى النوم على الفور. أما أول عربة بائع لبن فقد هز جرسها كل ما هو مصنوع من زجاج، وسمعت لها حركة خفيفة فى الشارع الرئيسى. ومن بين الستائر الملونة بلون يشبه الفراولة، تسللت شريحة باردة من ضوء النهار. وحول "شيرى" نظرته إلى "ليا"، وتأملها بقوة وبثبات يجعل انتباه أى طفل مضطرب وأى كلب مرتبك يخشاها. وكان فى قرارة عينيه فكر غير مقروء ، كان شكله غامضًا جدًا، ولم يفده البريق المتجهم أو الفاتر إلا فى الانتصار وليس فى الاكتشاف، وكان جسده العارى العريض عند المنكبين وعند الوسط يبدو من الملاءات المكرمشة كما لو كان بارزًا من موجة بحرية، وكما لو كان كيانه كله ينبئ عن اكتئاب من أعماله كلها.

وتنهدت "ليا" بنشوة قائلة : «آه ! أنت ... ».

ولم يضحك "شيرى" الذى تعود أن يتلقى الثناء فقط.

ثم قال : « أخبرينى، يا" نونو" ... ».

فقالت : «عن جمالى ؟ »

وتردد "شيرى"، وارتجفت رموشه، وأصيب بقشعريرة، ثم قال :

« إننى متعب .... وفى الغد، كيف تستطيعين ؟...»

وفى لحظة اندفاع رقيق ربتت "ليا" على جسد "شيرى" العارى المُلقى على الوسادة وعلى رأسه الثقيلة، ثم قالت :

«لا تشغل نفسك، نم ، أليست" نونو" معك ؟ لا تفكر فى شىء، نم؛ فإنك تشعر بالبرد، وأنا سأدفع .... هناك، خذ هذا، إنه دافئ .... »

ولفت "ليا" "شيرى" فى ثوب نسائى صغير من الحرير والصوف وجدته على السرير ثم أطفأت النور. وفى الظلام، أراحت كتفها، وتحسست خاصرتها الجميلة، واستمعت إلى النفس الذى كان يضاعف من نفسها هى. ولم تكن هناك أية رغبة تعكر صفوها، ولكنها لم ترغب فى النوم. وكانت تكرر الكلام مع نفسها قائلة : «عليه هو أن ينام، وعلىّ أنا أن أفكر»، وسأقوم بتنظيم رحيلنا بطريقة مهذبة جداً، وسرية للغاية؛ لأن مبدئى هو أن أسبب أقل قدر من الإزعاج والشجن...وفى الربيع سيكون الوسط أيضاً هو أكثر ما يعجبنا. وإذا لم أستشر سوى نفسى، فإننى قد أفضل البقاء هنا بكل هدوء. ولكن "الأم بلوكس"، ولكن ابن مدام بلوكس... » ولم تلفت صورة المرأة الشابة المرتدية لباس الليل، والقلقة الواقفة بالقرب من النافذة، نظر "ليا" إلا بقدر الوقت الذى هزت فيه كتفها باعتدال بارد، وقالت : «إننى لا أملك شيئًا فى هذا الأمر؛ لأن ما يحقق سعادة البعض ...»

تحركت رأس شيرى ذات الشعر الأسود الناعم – على صدر ليا ، وكان العاشق النائم يئن وهو يحلم. وبذراع قوية قامت "ليا" بحمايته من الكابوس، وهزته كى يظل وقتًا طويلاً، بلا عينين، وبلا ذكريات، وبلا أهداف، مشابهًا «لطفل رضيع شقى» لم تستطع أن تلده.

* * *

الفصل الثانى عشر

ونظـرًا ليقـظته منـذ وقت طويـل، فقـد كـان يتـجـنب الحـركة، وكان يحاول – وخـده على ذراعه المنثنى – أن يخمن كم الساعة. كانت السماء الصافية تجعل الجو حارًا قبل الأوان؛ إذ لم يـكن يوجـد أى ظل من السحاب يمر على الـلون الخلفى للستائر. قال" شيرى" : «ربمـا تكـون الساعة العاشرة ...» . كان الجوع يعضه؛ لأنه لم يتناول سوى قليل من طعـام العشـاء بالأمس. وربما كـان فى العـام الماضى يقـفـز، ويعـكر صـفـو راحـة "ليـا"، مـدفـوعًـا بنـداءات عنيـفـة كى يطلب الشـيـكولاته بالـكريمة وبالزبـدة المثلجة ... ولم يتحرك. كان يخشى ، وهو يتـحـرك، أن يعبث بما تبقى من الفـرح، ومن السـرور الذى رآه، والذى كـان يتذوقـه فى دفء اللـون الوردى للسـتـائر، وفى الـزخـارف، وفى الصلب والنحاس الذى كان يلمع بسببهما السرير فى هـواء الغـرفة الملون. وكـانت سـعـادته الكبـرى بـالأمس تبـدو له أنهـا انطوت وذابت وصغرت فى انعكاس قوس قزح الذى كان يتراقص داخل الكريستال المليء بالماء.

وسمعت وقع خطوة "روز" الحذرة على بساط الدرج. كان هناك صوت مكنسة وتنظف الفناء بحذر، ولاحظ "شيرى" أن ثمة رنينًا بعيداً للخزف الصينى فى المطبخ ... وقال لنفسه :

« ياله من صباح طويل! سأنهض من النوم ! »

ولكنه ظل بلا حراك تمامًا؛ لأن "ليا" كانت تتثاءب خلفه، ومدت ساقيها، ووضعت يدها الرقيقة على كليتى "شيرى"، ولكنه أغمض عينيه، وأخذ جسد كل منهما يتغير دون أن يعرف لماذا، وهو يتظاهر بالميل إلى النوم.

وأحس بأن "ليا" تترك الفراش، ورآها وهى تمر بغلالة سوداء أمام الستائر التى لم تزيحها بالكامل. والتفتت "ليا" نحوه، ونظرت إليه، ثم هزت رأسها بابتسامة لم تكن ابتسامة انتصار، وإنما تمثل عزيمة وإصرار ؛ حيث كانت تقبل جميع المخاطر. لم تكن "ليا" تستعجل مغادرة الغرفة، ولا شيرى الذى انفتحت رموشه بسبب بعض الضوء؛ مما مكّنه من مراقبة "ليا". ورأى أنها تفتح دليل السكة الحديد وتتابع بأصابعها أعمدة الأرقام، ثم بدت وكأنها تقوم بعلميات حسابية، وترفع وجهها إلى السماء، وتقطّب حواجبها. لم تكن ليا قد تزينت بعد، وكانت هناك خُصلة ضئيلة من شعرها على مؤخرة رأسها، وكان ذقنها مزدوجًا، ورقبتها منهكة، وتحاول أن تعرض نفسها بلا حذر لنظرة خفية.

وابتعدت عن النافذة، وأخذت من الدرج دفتر الشيكات الخاص بها، ثم سحبت أورقًا صغيرة عديدة كتبت فيها، ثم وضعت أسفل السرير منامة بيضاء، وخرجت دون ضجيج.

ولاحظ" شيرى" الذى صار وحده - بعد أن أخذ نفسًا عميقًا - أنه كان قد حبس نفسه منذ أن استيقظت "ليا". نهض" شيرى"، وارتدى المنامة، وفتح نافذة، ونفث قائلاً: «إنى أشعر بالاختناق». كان يحتفظ بالانطباع الغامض وبالقلق من أنه ارتكب عملاً قبيحًا.

وقال : «هل ذلك يرجع إلى أننى تظاهرت بالنوم ؟ ولكنى رأيت "ليا" مائة مرة عند النهوض من الفراش، ولكن فقط هذه المرة...، تظاهرت بالنوم ».

عندما بزغ النهار أعاد إلى الغرفة لونها الوردى، كما أن التفاوتات اللونية "الدقيقة" للوحة "شابلن" Chaplin الشقراء المفضضة كانت تبدو جميلة على الجدران. وأحنى "شيرى" رأسه، وأغمض عينيه حتى تساعده ذاكرته على تذكر مواصفات حجرة الأمس الغامضة والملونة مثل قلب البطيخة، وكذلك القبة الساحرة للمصباح، وبخاصة المشاعر التى تحملها، والتردد الذى أصابه، واللذات التى ....

قالت له "ليا" : «هل أنت واقف ! الشيكولاته قادمة ».

وقد لاحظ بامتنان أن "ليا" قد مشّطت شعرها، وتزينت برقة، ووضعت عطرها المعتاد. وسُمعت فى أرجاء الغرفة نبرة الصوت الجميل

الوردى ، ثم شُمت فيه رائحة الشطائر المحمرة ورائحة الكاكاو. وجلس شيرى بالقرب من فنجانين ساخنين، وأخذ من يدى "ليا" الخبز المغطى بالزبد الكثيف. كان "شيرى" يبحث عن شىء ما يقوله، ولم يكن لدى "ليا" شك فى ذلك؛ لأنها كانت قد عرفته صامتًا كالمعتاد، وغارقًا فى التأملات أمام الطعام، ويأكل بشهية وبسرعة وبسرور، منشغلاً بامرأة تتناول الطعام، بعد أن حزمت حقائبها قبل أن تركب القطار.

وقالت "ليا" لـ "شيرى" : « ألا نأكل الشطيرة الثانية ؟».

– لا، شكرًا، يا "نونو".

وردت قائلة : « ألم تعد جائعًا ؟ ».

وأجاب شيرى : «لا، لم أعد جائعًا. »

وحذرته "ليا" بأصبعها ضاحكة، وهى تقول :

«إنك، ستسد فتحتى أنفك بقرصين من الراوند[1]؛ فذلك يضعف حاسة الشم عندك ! »

وقطَّب "شيرى" أنفه مصدومًا، وقال لها : «اسمعى، يا "نونو"، إن لديكِ شعورًا حازمًا بأن تشغلى نفسك بـ ... »

(١) الراوند Rhubarbe : نبات عطرى.

وردت "ليا" قائلة : « تا تا تا ! ذلك شأنى، ألا تريد أن تخرج لسانك ؟ عندئذ أمسح شاربك من الشيكولاته ولنتحدث قليلاً، ولكن لنتحدث جيداً، يجب أن تتناول الموضوعات المملة بسرعة ».

وتناولت يد" شيرى" من على المنضدة، ووضعتها بين يدها، وقالت له : «إنك عُدت، هذا قدرنا؛ فهل تثق بى ؟ إننى سأتكفل بك.»

وقاطعت نفسها رغمًا عنها، وأغلقت العينين كما لو كانت تنحنى لانتصارها، ورأى "شيرى" أن الدم المتدفق يثير وجه عشيقته.

وقالت مستأنفة كلامها : « آه ! عندما أفكر فى كل ما لم أعطك إياه، وفى كل ما لم أقله لك ... عندما أفكر أننى ظلمتك عابرًا صغيراً كالآخرين، وإن كنت أثمن منهم بكثير... وأننى كنت ساذجة، حينما لم أفهم أنك كنت حبى، الحب، الحب الذى لا يأتى سوى مرة واحدة...»

وأعادت فتح عينيها اللتين ظهرتا أكثر زرقة فى سواد الجفون، وتنفست "ليا" باضطراب.

أما "شيرى" فقال فى نفسه : «أوه ! إنها لم تسألنى سؤالاً، ولم تطلب منى إجابة الآن، وأنا غير قادر على التفوه بكلمة واحدة ...»

وهزت "ليا" يد "شيرى"، وقالت :

«هيا، هيا، فلنكن جادين. كنت أقول إذن : إننا نرحل، بل رحلنا. فماذا نفعل بالنسبة لمنزلك هناك ؟ اجعل" شارلوت" تحل لك مسألة النقود، فذلك أكثر حكمة، وكن كريمًا، أرجوك. وكيف ستخطر البعض الآخر هناك ؟ أتصور أن الإخطار برسالة ليس مناسبًا، ولتتخلص من المشكلة حينما لا تتحدث كثيرًا. وسنرى ذلك معًا، ثم توجد بعد ذلك مسألة حقائبك، فليس عندى لك شيء هنا... وهذه الأمور الصغيرة تجلب الضيق أكثر مما يجلبه القرار الكبير، ولكن لا تفرط فى التفكير فى الأمر... هل ترغب فى ألا تنزع جلدك الصغير حول ظفر أصبعك ؟ بهذه الطريقة نصل إلى ظفر شديد الثبات !»

وترك "شيرى" قدمه تسقط مرة أخرى تلقائيًا. كان صمته يمزقه، وكان مضطرًا إلى أن يركز انتباهه كى يستمع إلى "ليا" ؛ حيث يتفحص الوجه المرح الملىء بالحيوية، والمقهور لصديقته، وكان يتساءل بغموض : « لماذا تبدو مسرورة جدًا ؟»

وظهرت بلاهته بشكل جعل "ليا" تتحدث الآن عن إمكانية إعادة شراء يخت" برتليمى" العجوز، وتوقفت فجأة لتقول :

«هل تعتقد أنه سيعطينى نصيحة فقط ؟ آه ! حدث ذلك عندما كان عمرك، أنت، اثنتى عشرة سنة ! »

ومرر "شيرى" – الذى أفاق من دهشته – يده على جبهته، وأحاط "ليا" بنظرة مكتئبة قائلاً :

« معكِ، يا "نونو"، توجد فرص ليصبح عمرى اثنتى عشرة سنة فى نصف قرن».

وأومأت له "ليا" بعينيها عدة مرات كما لو كانت تنفخ فى جفنيه، وساد الصمت بينهما.

وسألته أخيراً قائلة : «ماذا تريد أن تقول ؟ »

ورد "شيرى" بقوله : « لا شىء مما أقوله، يا "نونو"، لا شىء سوى الحقيقة. هل يمكن لكِ أن تنكريها، وأنت إنسانة شريفة ؟ »

وآثرت "ليا" أن تضحك برشاقة تخفى وراءها خوفًا شديداً.

وقالت : «إن هذه الأعمال الطفولية هى نصف سحرك أيها الأبله الصغير ! وسيكون ذلك فيما بعد هو سر شبابك الدائم. أتشكو من ذلك؟! وبلغت بك الحماقة أن تأتى إلى هنا لتشكو لى ! ».

– قال "شيرى" : « نعم، يا "نونو"؛ فإلى منْ تريدين أن أشكو ؟ »

وأخذ يدها التى كانت قد سحبتها، وقال لها :

«حبيبتى" نونو"، عزيزتى" نونو"، إننى لا أفعل ذلك فقط، إننى لا أشكو نفسى فقط، إننى أتهمك» .

وأحست "ليا" بأنه يقبض على يدها، وبدلاً من أن تتحاشى عيناها عينيه، أخذت العيون السوداء ذات الرموش اللامعة تتركز على عينيه ببؤس. لم تكن تريد أن ترتجف، وقالت :

«إن الأمر بسيط، الأمر بسيط ... ».

لا يلزم سوى كلمتين جافتين أو ثلاث ليرد عليها بسباب غليظ، ثم يستاء بعد ذلك فتسامحه ... ليس الأمر سوى ذلك ... ، ولكنها لم تعثر على التوبيخ الفورى الذى كان بوسعه تغيير هذه النظرة.

– وقالت "ليا" : « هيا، هيا، أيها الصغير ... إنك تعلم أن هناك بعض المداعبات التى لا أسمح بها طويلاً ».

وفى الوقت نفسه كانت تعتبر أن نبرة صوتها مائعة وغير حقيقية؛ فقالت : «إننى لم أحسن التعبير ... فقلته بشكل مسرحى سيئ ... ». وغمرت ضوء شمس الساعة العاشرة والنصف المائدة التى كانت تفصلهما، ولمعت أظافر "ليا" المصقولة ، ولكن الشعاع أضاء يديها الكبيرتين الجميلتين ، وتسلل إلى الجلد الناعم على ظهر اليد وحول المعصم، وأحدث شعاع الشمس شبكات معقدة، وخطوطًا مركزية، ومتوازيات أضلاع صغيرة مثل تلك التى يحدثها الجفاف الشديد بعد الأمطار فى الأرض الطينية. وحركت "ليا" يدها بشرود، وهى تدير الرأس كى تجذب انتباه شيرى إلى الشارع، ولكنه ألحَّ فى تأمله الشديد البائس.

وفجأة أطبق على اليدين الخجولتين اللتين كانتا تتظاهران بأنهما تعبثان بطرف الحزام، وقبَّلهما وعاد يقبِّلهما، ثم وضع خده عليهما وهو يتمتم قائلاً :

« "نونو" حبيبتى ... "نونو" حبيبتى ... ».

– وصاحت "ليا" بغضب ليس له تفسير، وهى تنتزع يديه قائلة : «اتركنى».

واستغرقت لحظة لتهدأ، وتفزع من ضعفها؛ لأنها كانت على وشك أن تجهش بالبكاء. وعندما استطاعت أن تفعل ذلك، تحدثت وابتسمت قائلة :

« أتتألم لحالى، الآن ؟ لماذا كنت تتهمنى منذ برهة ؟ »

وقال "شيرى" بخنوع : « لقد كنت أنت بالنسبة لى ... ».

وقام بحركة كانت تعبر عن عجزه عن أن يجد كلمات تليق به.

وقالت "ليا" بلهجة لاذعة : « كنتِ ! إن ذلك – يا غلامى الصغير – يُعتبر أسلوب رثاء ! ».

ولكن "شيرى" لامها قائلاً : «أنت ترين ... ».

وهزت الرأس، ورأت جيداً أنها لم تغضبه. ومدت كل عضلاتها، وضغطت أفكارها بمساعدة كلمتين أو ثلاث لم تغيرها، وتكررها فى قرارة نفسها : «إنه هناك، أمامى... لننظر، إنه دائماً هناك ... وهو بعيد المنال ... ولكن هل لا يزال هناك أمامى، حقيقةً ؟ ...»

وتخلى فكرها عن أى منطق منتظم، وحل انتحاب داخلى كبير محل الكلمات المحببة للنفس، وقالت : «أوه ؛ فليردوه لى، وليعد لى اللحظة

التى قلت فيها : «هل تأكل الشطرة الثانية، يا "شيرى" ؟" إن تلك الحظة لا تزال قريبة منا، ولن تضيع أبداً، إنها ليست حتى الآن فى الماضى ! فلنستأنف حياتنا من تلك اللحظة؛ لأن القليل الذى حدث منذ ذلك، سأمحوه، سأمحو... سأتحدث إليه كما لو كنا معًا منذ بضع دقائق، سأتحدث إليه، لننظر فى مسألتى الرحيل والحقائب ... »

وبالفعل تحدثت، وقالت :

«إنى أرى ... إنى أرى أننى لا أستطيع أن أعامل كائنًا يستطيع أن يثير الاضطرابات بين سيدتين معاملة الرجل. هل تعتقد أننى لا أفهم ؟ فيما يتعلق بالرحيل، فأنت تحبه قصيراً، أليس كذلك ؟ فبالأمس كنت فى "نيوى"، واليوم هنا، ولكن غداً ... أين إذن، الغد ؟ هنا ؟ لا، لا، يا صغيرى، لا تكلف نفسك عناء الكذب، فإن هذا الوجه الذى يشبه وجه المحكوم عليه لا يمكن أن يخدع من هى أكثر بلاهة منى، إذا كانت مثلها موجودة هنا ... ».

وقلبت حركتها العنيفة – وهى تشير إلى اتجاه "نيوى" – علبة الجاتوه التى عدلها "شيرى". وبقدر ما كانت تتكلم، كانت تزيد من ألمها، وكانت تغيره إلى ألم مبرح، وعدوانى، وغيور، كان ألمًا باستفاضة عن امرأة شابة، لقد صار مسحوق التجميل خمرى اللون على خدها، وكانت خصلة من شعرها المشدود بتوكة من المعدن – تنسدل على مؤخرة رأسها كثعبان هزيل.

قالت "ليا" لـ "شيرى" : «حتى امرأتك التى تقيم هناك، لم تستعدها فى كل مرة تذهب إليها، عندما يروق لك أن تعود إليها لا يعرف الكثيرون، يا صغيرى، كيف يجتذبونها، ومن غير المعروف أكثر كيفية التخلص منها !... اجعل شارلوت تحتفظ بامرأتك؛ أليس كذلك ؟ إنها فكرة، آه ! وسأضحك جيداً، فى اليوم الذى...».

ونهض "شيرى" شاحباً وجاداً، وقال : « "نونو" !» .

– وردت "ليا" بقولها : « ماذا تقول، يا"نونو" ؟ ماذا، ؟ أتعتقد أنك ستخيفيننى ؟ آه ! هل تريد أن تسير وحدك ؟ سر ! فأنت متأكد أنك سترى البلد، مع ابنة "مارى لور" ! فليس لها ذراع، كما أن عجزها مسطح، ولكن ذلك لن يمنعها كثيراً من ... ».

ولكن "شيرى" قال لها : «إننى أمنعكِ، يا "نونو" !... ».

وأمسك "شيرى" بذراعى "ليا"، ولكنها نهضت وتخلصت منه بقوة، وانفجرت فى ضحكة مبحوحة، وقالت : « بالتأكيد ! ». ولكن "شيرى" قال لها : «إننى أمنعكِ أن تقولى كلمة ضد امرأتى ! أليس كذلك ؟! »

ودار "شيرى" حول المائدة، واقترب منها كثيراً وهو يرتجف من السخط، وقال : «لا ! إننى أمنعك، أتفهمين جيداً، إننى أمنعك من أن تلقى بى فى الهاوية يا "نونو" ! »

وتراجعت "ليا" إلى داخل الحجرة وهى تتمتم قائلة :

«كيف ذلك ؟ كيف ذلك ؟ »

وكان" شيرى" يدفعها، كما لو كان على استعداد لمعاقبتها، وقال :

«أجل ! هل ينبغى أن نتحدث يا نونو بهذا الشكل ؟ ماهذه الطريقة ؟ هل توجهين الآن شتائم صغيرة من النوع الذى تستخدمه" مدام بلوكس "؟ هل هذا يصدر منكِ أنتِ، يا "نونو"؟!» .

وأرجع رأسه إلى الوراء بكبرياء، وقال :

«أما أنا، فإننى أعرف كيف ينبغى أن نتحدث يا "نونو"!، وأعرف أيضًا كيف ينبغى أن نفكر ! وكان لدى الوقت لأعرف ذلك، ولم أنس اليوم الذى كنت تقولين فيه، قبل قليل من زواجى بهذه الصغيرة : «على الأقل لا تكن شرسًا.... حاول ألا تجعلها تعانى.... لدىّ إلى حد ما انطباع بأن تترك الغزالة لكلب الصيد [1] »، هذا هو الكلام ! هذا أنت ! وعشية زواجى، حين هربت لأحضر لرؤيتك، أتذكر، إنكِ قلت لى ... ».

وخانه الصوت، وتمخضت ملامحه عن نار الذكرى، وقال :

« حبيبتى، اذهبى ... ».

(١) يُسمى هذا الكلب " سلاقى".

ووضع يده على كتفى "ليا"، وقال مستأنفًا حديثه :

«وفى هذه الليلة أيضًا، ألم يكن أحد اهتمامتك هو أن تسألينى إذا لم أكن قد سببت ضررًا فى بيتى هناك ؟ إن حبيبتى "نونو" نموذج راقٍ أحببته عندما بدأنا الحب. إذا كان ينبغى أن تنتهى؛ فهل ستشبهين فى ذلك النساء الأخريات ؟».

وأحست "ليا" بغموض وبأن هناك مكرًا وراء المدح، وجلست وهى تخفى وجهها بين يديها.

وقالت لـ "شيرى" متلجلجة : «كم أنت قاسٍ، كم أنت قاسٍ... لماذا عدت ؟ لقد كنت هادئة جدًا، ووحيدةً جدًا، ومعتادة على ... ».

وسمعت نفسها تكذب، وقاطعت نفسها.

ورد "شيرى" بقوله : « ليس أنا ! لقد عدت لأن ... لأن ... ».

وفرد ذراعيه، وتركهما تسقطان، ثم فتحهما مرة أخرى، وقال : «لأننى لم أستطع الاستغناء عنكِ، ولم أكلفك بالبحث عن شىء آخر».

وظلا صامتين لحظة. كانت "ليا" التى أصابها الإحباط، تتأمل هذا الشاب المتسرع الأبيض مثل طائرالنورس، الذى تبدو قدماه خفيفتين وذراعاه مفتوحتين كما لو كان مستعدًا للطيران ...

وكانت عينا "شيرى" السوداوان تحولان فوق "ليا".

وقال "شيرى" فجأة : «آه ! يمكنك أن تتباهى، يمكنك بأن تفتخرى بأنه منذ ثلاثة شهور على الأخص، جعلتنى أعيش حياةً ... حياة ...»

وقالت "ليا" : «أنا» ؟ ».

ورد "شيرى" بقوله : « ومن إذن غيرك ؟ وينفتح الباب، فأقول إنها "نونو" التليفون يدق، فأردد أنها "نونو"، تُوجد رسالة فى صندوق الحديقة ، ربما من "نونو" ... بل كنت أبحث عنكِ حتى فى الخمر التى كنت أشربها، أبحث عنكِ، ولم أجد أبدًا تفاحًا مثل الذى عندك ... وفى الليل، إذن ... آه ! هناك ! هناك ! ... ».

كان "شيرى" يمشى بسرعة كبيرة دون أى صوت، جيئةً وذهابًا.

ثم قال : «أستطيع أن أقول لكِ، إننى أعرف معنى المعاناة عند المرأة، أجل ! وفى الوقت الحالى أنتظر كثيرًا من المعاناة منك، وهى معاناة تعتبر فى نظرك ... رمادًا ! آه ! لقد وضعت لى السم جيدًا ! ... ».

واعتدلت "ليا" ببطء، وتابعت – مؤرجحة صدرها – ذهاب "شيرى" ومجيئه. كان الجزء الأعلى من خديه جافًا ولامعًا، يميل لونه إلى الأحمر الغامق؛ حيث كان يجعل زرقة عينيه غير واضحةٍ. كان يسير مائلاً، ورأسه منحنية، ولم يتوقف عن الكلام.

وقال : «ماذا تظنين، الحال الذى كانت عليه" نيوى" بدونك، فى أوائل أيام عودتى ؟! ومن جهة أخرى، فإن كل شىء بدونك ... ربما كنت سأصبح مجنونًا، وذات مساء، كانت الصغيرة مريضة، ولم أعد أعرف من أى شىء، هل من المعاناة، أم من الألم العصبى؟ ... كانت حالتها تؤلمنى، ولكنى خرجت من الغرفة، لأن شيئًا فى العالم لم يكن بوسعه أن يمنعنى من أن أقول لها : «انتظرى، لا تبكى، سأذهب للبحث عن "نونو" التى ستشفيكِ ...». وهكذا جئت، أليس كذلك، يا "نونو" ؟ أوه ! لا، لا، هذه الحياة ... وفى فندق" موريس"، كنت قد استأجرت "ديزمو"، ودفعت له بسخاء، وكنت أحكى له، أحيانًا، بعض هذه القصص، وفى ليلة.... كنت أقول له، كما لو كان لا يعرفك، ياعزيزى، إن جلدًا مثل جلدك غير موجود... «أترى غطاء رأسك الياقوتى، أخفه ياعزيزى، لأنه أزرق مثل عينيها؛ لأن عينيها لا تتحول فى الأضواء إلى اللون الرمادى !، وكنت أقول له بما أنك خبيث عندما تريد أن تكون كذلك، وإن أحدًا لا يمكن أن يتخابث معك، كما أننى لا أتخابث مع الآخرين... كنت أقول له : «إن تلك المرأة، يا عزيزى، تصبح رائعة حينما تلبس القبعة الملائمة لها ، والحقيقة يا "نونو" أن لون قبعتك الكحلى ذات الطرفين، التى كنت تلبسيها الصيف الماضى، وطريقة ارتدائك لها تجعل أى امرأة أخرى بجانبك تفر منكِ !.

كما أن طُرقكِ الرائعة فى الحديث، والسير، وابتسامتك، ومشيتك الراقية، جعلتنى أقول لديزمو : «آه ! إن امرأة مثل "ليا" !... ليست بالأمر الهين».

وفرقع" شيرى" أصابعه، بزهو الذى يحسه من يملك شيئًا، وتوقف، لاهثًا عن الكلام والسير.

وقال فى نفسه : «إننى لم أقل أبدًا كل شىء لـ "ديزمو". ومع ذلك لم أكذب عليه فيما قلته. وعلى الرغم من ذلك، فهم "ديزمو" كل شىء». لقد أراد "ديزمو" أن يستعيد "ليا". كانت "ليا" لا تزال تستمع إلى "شيرى"، وجلست حينئذ مستقيمة تمامًا، وقد راحت تُرى" شيرى" وجهها النبيل المنكسر فى وضح النهار، والذى لمعته الدموع الحارة المجففة. كان هناك هم ثقيل يشد ذقنها وخديها إلى أسفل، وكان يصيب جوانب فمها المرتجف بالحزن.

وفى هذا الجمال المتدفق، كان "شيرى" يجد مرة أخرى الأنف الجميل، وإنسان العين ذى اللون الأزرق الزهرى... وكأن كل ذلك لم يُمس.

وقال "شيرى" لليا : « وهكذا، يا "نونو"، عُدت إلى هنا، بعد شهور من الحياة هناك، و ...».

وتوقف "شيرى" منزعجًا بما سيقوله، ولكن ليا قالت له بصوت ضعيف وهادئ : « لقد وصلت إلى هنا، ووجدت امرأة عجوز».

– "نونو" ! اسمعى، يا "نونو" !

وجثا "شيرى" على ركبتيه أمامها، وظهر على وجهه جبن الطفل الذى لا يجد الكلمات ليخفى بها خطأه.

وكررت "ليا" القول له : «هأنت تجد امرأة عجوز؛ فمن أى شىء تخاف، يا صغيرى ؟ ».

وأحاطت كتفى "شيرى" بذراعيها، وشعرت بالتوتر، وبمقاومة هذا الجسم الذى كان يعانى جُرح قديم .

وقالت "ليا" لـ "شيرى" : «إذن تعال، يا حبيبى مِمَّ تخاف ؟ هل تخاف من أنك أتعبتنى ؟ لا تبكِ، يا حبيبى .... كم أشكرك! على العكس ...».

وأظهر" شيرى" أنين احتجاج، وأخذ يتخبط بلا قوى، ووضعت "ليا" خدها على شعره الأسود المجعَّد.

وقالت لـ "شيرى" : «أقلت كل ذلك، واعتقدت كل ذلك، عنى ؟ قل هل كنت جميلة فى نظرك ؟ طيبة جداً ؟ لقد كنت بالنسبة لك أجمل الجميلات فى هذا العمر الذى تنهى فيه النساء حياتهن، وكنت فى نظرك أفضل النساء؛ فهل كنت تحبنى ؟ كم أشكرك، يا حبيبى ... هل قلت إننى راقية جداً ، يا صغيرى المسكين؟!».

وترك "شيرى" العنان لنفسه، وأخذت "ليا" تسندة بين ذراعيها،

وقالت : «لو كنت راقية جداً لجعلت منك رجلاً لا يفكر فى شهوة الجسدين : جسدك وجسدى. أما أنى راقية جداً، لا، لا، فلم أكن كذلك، يا حبيبى؛ لأننى كنت أحتفظ بك. وقد فات الوقت ».

كان "شيرى" يبدو نائماً بين ذراعى "ليا"، ولكن جفنيه المغمضين بشدة كانا يختلجان دون توقف، وكان يتعلق بيده المتصلبة المغلقة قميص الحمام الذى كان يتمزق ببطء.

وقالت "ليا" : « فات الأوان كثيراً، فات الأوان كثيراً.... ومع ذلك ...».

وانحنت عليه قائلة : «استمع لى، يا حبيبى. قفْ، يا عزيزى. استمع لى، وعيناك مفتوحتان. لا تخف من رؤيتى؛ فإننى على كل حال المرأة التى أحببتها، كما تعلم، وهى أكثر النساء رقياً ...».

فتح "شيرى" عينيه، وكانت أول نظرة رطبة مليئة بأمل أنانى مملوء بالرجاء. وأدارت "ليا" رأسها، وقالت لنفسها : «إن عينيه.... آه ! لنتصرف بسرعة...»، وأراحت خدها مرة أخرى على جبهة "شيرى".

وقالت له : « لقد كنت أنا، يا صغيرى، أجل أنا، هذه المرأة التى قالت لك : لا تفعل السوء بلا جدوى، ولا تقتل الظبية....». إننى لم أعد أتذكر ذلك. والحمد لله أنك فكرت فيه. إنك تتخلى متأخراً جداً عنى، ياطفلى الشقى، لقد حملتك كثيراً على جسدى، وهكذا تنوء أنت بالحمل بدورك : إن المرأة الشابة، أو ربما الطفل... إننى مسئولة عن

كل ما ينقصك ... نعم، نعم، يا عزيزى، هأنت تصبح بفضلى – وفى سن الخامسة والعشرين – طائشًا جدًا، ومدللاً جدًا ، وغامضًا جدًا فى الوقت نفسه .... وأنا أحمل همَّ ذلك كثيراً. إنك ستتألم، وستجعل الآخرين يتألمون. أنت الذى أحببتنى...».

وتشنجت اليد التى كانت تمزق ببطء قميص الحمام ،وشعرت "ليا" على نهدها بأظافر هذا الطفل الشقى.

وقالت مستأنفةً كلامها : « ... أنت الذى أحببتنى بعد فترة راحة، هل سيمكنك ... أنا لا أعرف كيف أجعلك تفهمنى ... ».

وتباعد عنها ليسمعها ، وكانت على وشك أن تصيح به قائلة : «أعد وضع يدك على صدرى، وعلِّم عليه بأظافرك، إن قوتى تتخلَّى عنِّى فى الوقت الذى يبتعد فيه جسدك عنى! ». واستندت بدورها عليه بعد أن جلس القرفصاء أمامها، واستمرت قائلة :

«أنت الذى أحببتنى، وأنت الذى ستأسف علىَّ... ».

وابتسمت له، ونظرت إلى عينيه، ثم قالت :

«أحقًا، يا للغرور! .... أنت الذى ستأسف علىَّ، إننى أود، فى الوقت الذى تشعر فيه أنك على وشك أن تخنق غزالتك التى تمتلكها وتتكفل بها، أن تمسك نفسك، وأن تخترع فى تلك اللحظات كل ما لم أعلمه لك ... إننى لم أحدثك مطلقًا عن المستقبل. سامحنى، يا "شيرى"؛

فقد أحببتك كما لو كنا – نحن الاثنين – سنموت بعد ساعة. ونظراً لأنى ولدت قبلك بأربع وعشرين سنة، فإننى أحس بأن اللوم علىَّ؛ حيث إننى جرفتك معى ...».

كان يسمعها باهتمام يعطيه طابعًا خشنًا، ومسحت بيدها على جبهته القلقة كى تزيل عنها ثنيتها.

وقالت له : «هل كنت ترانا، يا "شيرى"، ونحن ذاهبان للغداء معًا، فى "أرمنونڤيل" Armenonville؟ هل كنت ترانا ونحن ندعو مدام "ليلى" وزوجها ؟ ...».

وضحكت "ليا" بحزن واقشعرت، ثم قالت: «آه ! لقد انتهيت تمامًا مثل تلك العجوز .. أسرع، أسرع، يا صغيرى، اذهب وابحث عن شبابك، فإن السيدات الناضجات انتزعن منك، ومازال عندك منه بقية، وبخاصة عند تلك الطفلة التى تنتظرك، لقد أزاقتك الشباب ! أنت تعلم أنها لا تشبعك، ولكن ستعود إليها ... إيه ! إن المقارنة التى بدأت تعقدها لم تبدأ من تلك الليلة.... وماذا أفعل أنا هنا ؟ أعطى نصائح، وأُظهر عزة نفسى ؟ فماذا أعلم عنكما أنتما الاثنان ؟ إنها تحبك، وجاء دورها لترتجف، وستعانى مثل الحبيبة، وليس كما تعانى الأم الضالة، وستتحدث إليها بوصفك سيداً، وليس كشاب طائش يحب امرأة كبيرة السن ... اذهب، اذهب سريعًا ».

كانت "ليا" تتحدث بلهجة الرجاء السريع. وكان يسمعها واقفًا متسمرًا أمامها، وصدره عارٍ، وشعره غير ممشط، وكان مثيرًا إلى حد أن "ليا" عقدت يديها اللتين كانتا على وشك الإمساك به. وربما خمَّن "شيرى" ما تريده "ليا"، ولم يحاول المواربة. ولمع بينهما أمل ساذج كالذى يمكن بلوغه عند السقوط، أو عندما يهوى الناس من برج، ولكن هذا الأمل تلاشى.

وقالت "ليا" بصوت منخفض : «اذهب؛ فإنى أحبك؛ ولكن فات الأوان كثيرًا. اخرج واذهب على الفور؛ البس ملابسك ».

ونهضت "ليا"، وأحضرت له حذاءه، وفردت له القميص المفروك، وكذلك الجوارب. وكان "شيرى" يدور فى مكانه، ويحرك بغباء أصابعه كما لو كانت مُخدرة، وتعين على "ليا" أن تبحث بنفسها عن الحمَّالات، ورباط العنق، ولكنها تحاشت الاقتراب منه ولم تساعده. وعندما كان "شيرى" يرتدى ملابسه، نظرت "ليا" مرات عديدة إلى الفناء كما لو كانت تنتظر سيارة.

وفى تلك اللحظة، ظهر"شيرى" شاحبًا بعينيه اللتين اتسعتا بسبب هالة من التعب.

وسألته : «ألا تحس بأنك مريض ؟» وأضافت باستحياء، وعيناها إلى أسفل قائلة : «يمكنك . أن تستريح...»، ولكن على الفور استأنفت كلامها، وعادت إليه كما لو كان فى خطر جسيم، وقالت له : «لا، لا، إنك ستكون أفضل فى منزلك... عد بسرعة، إن الظهر لم يحن بعد، كما أنّ

حماماً ساخناً سينعشك، إلى جانب النسيم العليل ... خذ قفازيك ... آه ! أجل، إن قبعتك على الأرض.... البس معطفك، لأن الهواء سيفاجئك، إلى اللقاء، يا حبيبي" شيرى"، إلى اللقاء ... هكذا ... قل لـ "شارلوت" ... »، وأعادت غلق الباب عليه، ووضع الصمت نهاية لكلماته اليائسة غير المجدية. وسمعت أن" شيرى" كان يترنح على السلم، وجرت إلى النافذة. وعندما كان يهبط إلى المدخل توقف وسط الفناء.

وصاحت وهى ترفع ذراعيها قائلة : «إنه يصعد ثانية ! إنه يصعد ثانية!».

وكررت امرأة عجوز لاهثة – فى المرآة المستطيلة – حركتها، وسألت "ليا" نفسها عما يمكن أن يكون مشتركًا بينها وبين هذه المجنونة.

واستأنف "شيرى" طريقه إلى الشارع، وفتح البوابة وخرج. وعلى الرصيف قام بربط أزرار معطفه ليخفى الثوب الذى كان يرتديه بالأمس. وتركت "ليا" الستارة تنسدل، ولكن كان لا يزال لديها الوقت لتنظر ما إذا كان "شيرى" يرفع رأسه نحو سماء الربيع ونحو أشجار الكستناء[1] المزهرة، وعما إذا كان وهو سائر يملأ صدره بالهواء كما لو كان هاربًا من شىء .

* * *

(١) أشجار الكستناء : Les Marronniers

المؤلفة فى سطور :

سودنى جبرييل كوليت

ولدت كوليت فى سان سوفير فى أسرة ثرية سعيدة – تشمل أختها وأخويها – فى عام ١٨٧٣ م . ونشأت فى مناخ ريفى ، والتحقت بمدرسة شعبية علمانية ، وتميزت على أقرانها بثقافتها العامة؛ حيث كانت تقرأ الكثير من الكتب – فى سن العاشرة – التى تتجاوز عمرها مثل "الكوميدية الإلهية" لدانتى ، و"البؤساء" لڤيكتورهيجو ، وكانت تقرأ أيضًا لڤولتير ، ولشكسبير ، ولإميل زولا ؛ مما جعل أعمالها متأثرة بما تقرأه ، وبما تراه ، وبما تلاحظه فى الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد.

وبدأت كوليت فى الكتابة للمرة الأولى من أجل كسب المال على يد زوجها الأول ويلى Willy ، الذى أدخلها فى الوسط الأدبى العالمى لباريس بسلسلة كلودين ، التى تحكى فيها قصة حياتها المليئة بالمغامرات ، ولكن بعد فترة ، أصبحت الكتابة بالنسبة لها فنًا . ونجحت فى كسب حياتها عندما تركها زوجها ويلى ، ثم توالت بعد ذلك رواياتها التى كانت تكتبها بتلقائية وشاعرية ، واضطرت كوليت بعد انفصالها عن زوجها إلى الاشتغال بالتمثيل والاستعراض فى المولان روج ، ثم قامت بجولات فى الأقاليم استلهمت خلالها موضوعات لرواياتها المتعددة.

وتعتبر كوليت كاتبة رومانسية ، ويتجلى ذلك بوضوح فى رواية شيرى، التى ألفتها فى ١٩٢٠ م ، وتصور فيها الاضطراب الذى تعيش فيه امرأه ناضجة هجرها حبيبها الشاب الصغير .

أما إنتاجها الروائى فغزير مثل روايات : المتشردة ، وچى ، وچى ، والقطة. وقد تزوجت الكاتبة مرة أخرى ١٩١٢م ، ثم مرة ثالثة ١٩٣٥م ، ونظراً لأهميتها الأدبية ، كانت لها مقاعدها فى الأكاديمية الملكية فى بلچيكا ، وفى أكاديمية جون كور ، وقد منحتها الدولة وسام الشرف من الدرجة الأولى .

وفى عام ١٩٥٤م ، توفيت كوليت بعد أن أثرت الحياة الأدبية بمؤلفات متميزة فى مجال الرواية والمسرح ، وقامت الدولة بعمل جنازة قومية لها عرفاناً وتقديراًلمكانتها بعد أن تربعت على عرش الأدب الفرنسى .

المترجمة فى سطور :

شيرين عبد الحميد على

- حاصلة على الليسانس من كلية الألسن قسم اللغة الفرنسية - جامعة المنيا.

- حاصلة على درجة الماچستير من كلية الألسن قسم اللغة الفرنسية بتقدير ممتاز.

- حاصلة على دبلومى "الدلف" Delf A1 & A2 من فرنسا.

- مُسجلة للحصول على درجة الدكتوراه فى اللغة الفرنسية وآدابها بكلية الألسن.

- عملت بمجالات الترجمة بكل أنواعها من اللغة الفرنسية إلى العربية والعكس.

- عملت بقسم اللغة الفرنسية بكلية الألسن كباحثة ماچستير - بجامعة المنيا.

- عملت مُدرسة لغة فرنسية بإحدى مدارس اللغات.

المراجع فى سطور :

أ.د. أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفى

- أستاذ ورئيس قسم اللغة الفرنسية بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر ووكيل الكلية السابق .

- حاصل على درجة الدكتوراه من كلية الآداب - جامعة القاهرة .

- حاصل على وسام العلوم الأكاديمية من الحكومة الفرنسية .

- عضو اللجنة الدائمة لترقية أساتذة اللغة الفرنسية.

- أشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه فى مجالات الترجمة واللغويات والأدب .

- له مجموعة من الأبحاث والدراسات العلمية باللغتين الفرنسية والعربية .

- اشترك فى العديد من المؤتمرات المحلية والدولية .

المحرر فى سطور :

د. عبد الرحمن حجازى

- حصل على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب - جامعة القاهرة عام ٢٠٠٤م .
- عضو اتحاد الكتاب المصرى ٢٠٠٦م .
- يعمل حالياً مسئول المراجعة اللغوية بالمركز القومى للترجمة .
- يقوم بتدريس اللغة العربية بكلية الإعلام ، جامعة MSA ، ٦ أكتوبر .
- يقوم بتدريس اللغة العربية للدبلوماسيين الأجانب بالمركز المصرى للتعاون الثقافى الدولى - وزارة الثقافة .

صدر له :

١ - مصر فى ردائها الفاطمى ، مجلة المحيط الثقافى ، القاهرة ، ديسمبر ٢٠٠١م.

٢ - نشأة الموشحات (تفسير جديد) ، مجلة جذور ، المملكة العربية السعودية ، شوال ١٤٢٣هـ = ديسمبر ٢٠٠٢م .

٣ – ترجمة ديوان (أشعار من عالم اسمه الصين : مختارات من شعر آى تشينغ) ، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٣م .

٤ – الخطاب السياسى فى الشعر الفاطمى : دراسة أسلوبية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥م .

٥ – ترجمة كتاب (الواحات المفقودة) ، تأليف : أحمد محمد حسنين بك ، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥م .

٦ – مفهوم الخطاب فى النظرية النقدية المعاصرة ، مجلة علامات فى النقد ، المملكة العربية السعودية ، رجب ١٤٢٦هـ = سبتمبر ٢٠٠٥م .

التـصـحـيح اللغـوى : **ياسـر مكى** .

الإشـراف الفـنى : **حسـن كامـل**.

رواية شيرى ليست مجرد نص أدبى خيالى، فرائعة كوليت تعتبر خلاصة فلسفة للكاتبة، التى عكفت على صفحات أوراقها الزرقاء لتصور، بكل ما فى أسلوبها من سحر، جمال الطبيعة التى تشع بنضرة الخضرة، التى تمكنها من التحسب لما قد يحدث فى المستقبل.

وفى الواقع، فإن هدفنا من ترجمة إحدى روائع أعمال كوليت ليس فقط ما يتعلق بفلسفتها وأسلوبها، بل ما يعكسه كل كيانها المليء بالمتناقضات، وما يفيض به هذا الكيان من روح شاعرية.

ومن ثَمَّ فإن الكاتبة كوليت تستحق بحق ما وصفها به النقاد بأنها " عبقرية الأسلوب ".

لوحة الغلاف: إيجون شيلى تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح